جامعة محمد الخامس
كلية الآداب

سلسلة الرحلات -1-
سفارية (1)

الإكسير في فكاك الأسير

لمؤلفه
محمد بن عثمان المكناسي

حققه وعلق عليه الأستاذ
محمد الفاسي
رئيس الجامعة

منشورات :
المركز الجامعي للبحث العلمي

تـــقـــديـــم

يرى كثير من علمـاء النقد ان الادب العربى النثرى يتصف بخلـوه مـن ظـاهرة مهمة من الناحية الادبيـة المحضة ، وهى تعـرض الكاتب لما يتعلـق بشخصه ، ولافكاره وعـواطفه واحساساته ، حتى انك تقرأ كتابا مـن أولـه الى آخـره ولا يمكنك ان تتصور عصر المـؤلف ولا بلاده كما لا تستفيد شيئـا عـن ميولاتـه الشخصية ، ولا عن اعماله ، وبالجملة فلا ترى أثـرا فى كـل كتاباته لفعـل فاعلـه ضمير المتكلـم الا ما يكون غالبـا فى المقدمـات من اطراء المـؤلف لكتابـه . ويظهر لى ان من يوجهـون هـذا الانتقـاد للادب العـربى يغفلون نـوعـا أدبيـا له قيمته ، وهو كتب الرحلات . اذ اساس هذا النوع هو شخص المـؤلف وانيته ووصف ما يعرض له فى سفره ، وذكـر الاحساسات التى يشعـر بهـا أمـام المناظر التى يمـر بها ، مع اطلاعنا على أحـوال البلاد التى يزورهـا وعلى عوائـد اهلها واخـلاقهـم وافكـارهم ، وهو فى كل هذا يعبـر عن نفسه وعـن عواطفه وعـن وجهة نظره الخاص فى كل مسألة .

واذا كان الادب العربى فى جملته خصوصـا النثرى منـه يتسم بسمـة الاتباعيـة (الكلاسيكيـة) أى النظر الى الوجود بكيفية عامة ، والى الانسان كشخص مجـرد شبيه فى كل زمـان وكل مكان ، فان الادبـاء الذيـن وصفوا اخبار اسفـارهـم فى الكتب التى نطلق عليها اسم الرحـلات ، يمثلـون فـى ادبنـا الناحيـة الابداعية (الرومانتيكية) ، لذلك كان فـن الرحلـة من الأنواع الادبيـة الطريفـة التى تميل اليها النفس ، وكانت مطالعة الرحلات ممتعة . وقد تنبـه الاستاذ محب الديـن الخطيب لهذه الميزة الخاصة بكتب الرحلات ، فقال فى مقدمـة رحلـة لاحـد المعاصريـن من اهل القـدس نشرهـا فـى المطبعـة السلفيـة «قـد كان لكثير من الكتب القديمـة التى الفت فى الرحلة مـزيـة

قلمـا تجـدها فى المـؤلفات الحديثة ، وهى ان المؤلف كان يترك القلم يرسـم ما فى نفس صاحبه بعيـدا عن التصنع ، فـاذا قـرأ الناس كتاب رحلة شعروا بأنهـم معـه يرون ما رآه ويقفـون على وقـع ذلك فى نفسه»

وقد اعتزمنـا فى هـذه المجموعـة الجديدة التى نفتتحها بهذه الـرحلـة الطريفـة ان ننشر الرحلات المغربيـة وغيرها التى لا تزال مخطوطـة ولا نلتزم نوعـا دون غيره ولا ترتيبا خاصا تاريخيـا او مكانيـا او نوعيا وانما سنوالى بحول الله نشر الرحـلات التى يقوم على تحقيقهـا العلمـاء والباحثون . وربما اعـدنا طبـع رحلات صارت اليوم من قبيـل المخطوطـات لقلة نسخها وصعوبة الحصول عليها فى الخزانات العامة

ونريد ان نقدم لهذه المجموعـة بلمحة وجيزة عن ادب الرحلـة خصوصا عند المغاربـة ، مـع ذكـر الاسباب التى جعلتهم يتوفقون فيه ويكثـرون مـن تأليف الرحـلات فى كل العصور .

ويكفى للتدليل على تبريزهم فى هـذا النوع الادبى ان اشهـر الرحالين الـذى يضرب بـه المثل فى طـول الغيبة والتجوال والدخـول لمجاهيل الاراضى والبـلاد فى كـل القارات التى كانت معروفة فى وقته هـو من اهل المغـرب وبنيـه واعنى بـه ابن بطوطـة الشهير وان اكبـر علمـاء الجغـرافية فى كل عصر الادريسى هو ايضا من ابنـاء المغـرب وقد جال كذلك فى بلاد كثيرة قبل ان يضع مـؤلفه العظيم المعروف بنزهـة المشتاق فى اختراق الافـاق .

امـا اهتمام المغاربـة بالاسفار والكتابة عـن رحلاتهم فانه يـرجـع لعوامل مختلفـة اهمهـا بعد الديار المغربيـة عن الشرق والحجاز مهـد الحضارة العربية ومهبط الـوحى فكـان جـل من يقصد البلاد الحجازيـة مـن الادباء والعلمـاء لاداء فـريضة الحج يشعر بوجوب اطلاع مـواطنيـه على اخبار تلك البقـاع الشريفة البعيدة التى يحن اليها كل مغربى ، لمـا يربطـه بها من روابط الدين واللغـة والدم ، فيقصد الكاتب الى التعريف بتلك البلاد ومـا احتوت عليه من آثـار الصحابـة والعلمـاء والمشاهد الشهيرة ، مـع وصف الطريق التى تؤدى اليهـا بحـرا وبـرا ، وينتهـز الراحـل فرصة هذا السفر الطويـل فيقف بكل

عواصم العلم التى يمر بها فى طريقه ، ويصفهـا ايضا ويـذكـر مسـاجدها ومـآثرها وعلماءهـا وادباءها ، فنفقت بذلك سوق هذا النوع الادبى ، واقبـل عليه المغـاربـة وصـار الكتاب يتنافسون فيه خصوصـا فـى القرنين السابـع والثامن حيث ازدهـرت آلاداب والعلـوم بفضل تشجيع المرينيين ، وقد كان لهم اهتمـام خاص باخبـار المـاضي واحوال البلاد ، حتى ان الفضل فى تسجيـل اخبار رحلة ابن بطـوطـة يرجـع لابى عنان المـرينى ، اذ هو الذى استدعـاه لحضرتـه وامر كاتبه ابن جـزي الكلبى بتحـريـر ما املى عليـه مـن اخبـار اسفـاره الطويلة فى اقطـار الدنيـا

ومن اسباب هـذا التفوق ولوع المغاربـة بكيفية عامة بالسياحة وارتيادهم لاقاصى البـلاد ، ولـم يكـن ابن بطوطـة المغربى الوحيد الذى دخـل اقصى البـلاد الشرقيـة ومجاهـل افريقيـة ، وانما بقيت لنا اخبار اسفاره بفضـل عنايـة ابى عنان الذى امـر بجمعها ، والا لكنا نجهلهـا كما نجهل غيرها ، وقد ذكـر هـو نفسه فى رحلتـه قصة تـدل على ما نقوله ، وذلك انـه لـمـا كـان مقيمـا باحدى مـدن الصين وصلها مركب عظيـم لبعض الفقهاء المعظمين عندهم، قـال ابـن بطوطـة فـاستوذن لـه على ، وقـالـوا مـولانا قـوام الـدين السبتى . فعجبت من اسمه ودخـل على ، فلمـا حصلت المؤانسة بعد السلام، سنـح لى انى اعـرفـه ، فاطلت النظر عليه ، فقـال اراك تنظر الى نظر مـن يعرفنى ، فقلت له من اى البلاد انت ؟ فقـال من سبتة . فقلت له: وانـا مـن طنجـة فجـدد السلام علي ، وبكى حتى بكيت لبكائـه ، فقلت له هل دخلت بلاد الهنـد ؟فقـال لى نعـم دخلت حضرة دهلى . فلما قال لى ذلك تذكرته، وقلت انت البشيري ؟ قال نعـم . وكان وصل الى دهلى مـع خاله ابى القاسم المرسى ، وهـو يـومئذ شاب لانبات بعارضيه من حـذاق الطلبة يحفظ الموطـا، وكنت أعلمت سلطـان الهند بأمره فـأعطـاه ثلاثـة آلاف دينـار ، وطلب منه الاقامـة عنده فـأبى ، وكان قصده فى بلاد الصين ، فعظم شأنه بهـا واكتسب الامـوال الطـائلة . أخبرنى ان لـه نحو خمسين غـلاما ومثلهم من الجوارى ، واهدى الى منهـم غلامـين وجاريتين وتحفـا كثيرة ، ولقيت اخـاه بعد ذلك

ببلاد السودان فيابعد ما بينهما !

وهكذا نرى المغاربة يجوبون اقطار المعمور وذلك فى القرن الثامن الهجرى حيث لابخار ولا كهرباء ولا سيارة ولا طائرة ! وقد عبر الشريف الادريسى اكبر جغرافيى العرب عن هذه الهواية بقوله

دعني اجل ما بدت لي سفينة أو مطية
لابد يقطع سيرى أمنية أو منية

وهو القائل ايضا

ليت شعرى أين قبرى ضاع في الغربة عمرى
لم أدع للعين ما تشتاق في بر وبحر

وكأنه يصف فى هذين البيتين كثيرا من هؤلاء الرحال الذين كانو يفارقون بلادهم ويفنون اعمارهم فى التجوال واختراق الافاق ، ومنهم من يرجع لوطنه ويكون له فيه ذكر و منزلة ، ومنهم من لا يعود له . وكذلك كان الشأن فى أقدم من بلغنا خبره ، وهو ابو هارون الاغماتى الذى فارق وطنه فى اواخر القرن الخامس ، وزار الديار المصرية والحجاز والعراق وخراسان وما وراء النهر ودخل سمر قند ، وكان شاعرا بليغا محدثا محاضرا متكلما وهو القائل

لعمر الهوى اني وان شطت النوى لذوكبد حرى وذو مدمع سكب
فان كنت في أقصى خراسان نازلا فجسمى في شرق وقلبي في غرب

وابو هارون هذا لا ذكر له فى كتب المغاربة ، وهو الذى فتح سلسلة اولئك العلماء والادباء الذين كانوا ينزحون عن بلادهم لانهم لا ينصفون بها ، ويقصدون المشرق فيحصلون على الشهرة ، ويضيع فيهم المغرب كما يضيع المغاربة أخبارهم حتى انك لا تجد لهم فى كتبهم ذكرا .

ومن اشاهير هؤلاء الرحالة الذين لا يعنينا امرهم الان لكونهم لم يسجلوا اخبار اسفارهم ابو هارون الاغماتى هذا ، والشريف الادريسى ، و المؤرخ عبد الواحد المراكشى ، والاديب الكبير المحدث ابن دحية الكلبى وغيرهم .

ومن اسباب الرحلة ايضا توجيه السفراء من قبل الملوك ومن اسباب الرحلة ايضا التغرب فى طلب العلم ولقاء المشايخ الكبار وارتياد المكاتب الشهيرة ،، فكان الطالب بعد رجوعه من سفره وقد آب بعلم غزير يؤلف فى الغالب رحلة يذكر فيها الشيوخ الذين اخذ عنهم والادباء الذين لقيهم ، ويثبت الاجازات التى حصل عليها مدة دراسته . ويصف كل ما شاهده فى اسفاره فكانت الرحلة بمثابة الاطروحات التى يكلل بها علماء وقتنا دراساتهم ، والتى تبرهن على تفوقهم وعلو كعبهم فى العلوم التى تخصصوا فيها ، وكثيرا ما كانت هذه الغاية الدراسية تتحد مع اداء فريضة الحج ، اذ كان الطالب ينتهز فرصة وجوده بالمشرق ليقوم قبل رجوعه لبلاده بزيارة البقاع المقدسة فى موسم الحج واتيان مناسكه

ومن أسباب الرحلة كذلك مرافقة الكتاب للملوك ولرجال الدولة فى اسفار رسمية يكلف احدهم بعد ذلك بتسجيلها على نحوما يفعله اليوم الصحفيون الذين يصحبون الرؤساء فى تنقلاتهم ويوافون صحفهم بأخبار هذه الرحلات

وقد تضافرت كل هذه الاسباب وشبهها فى بلادنا وفى مختلف عصور تاريخنا على تزويد الخزانة العربية بمؤلفات ثمينة ، منها ما طبقت شهرته كل اقطار الدنيا كرحلة ابن بطوطة التى ترجمت لجل لغات العالم.

وان قائمة رجال العلم والادب الذين رحلوا عن بلادهم لسبب من الاسباب المتقدمة لا تكاد تنحصر ، اذ قل ما توجد ترجمة شهير من مشاهيرنا لا يشار فيها الى ان له رحلة ، ولكن لا يعنينا من هؤلاء الرحالة سوى من سجلوا أخبار أسفارهم فى كتاب خاص يشتمل على وصف المراحل والمشاهد ، اذ منهم من يضع كتابا اثر سفره يخصصه بذكر شيوخه وتراجمهم ، مع ذكر الكتب التى درسها عليهم ، والتعرض لسلسلة الرواة التى توصله لواضعى المؤلفات الاولين ، وهذا النوع الذى يسمى بالفهرسة عند اهل المغرب وبالبرنامج عند الاندلسيين وبالثبت عند المشارقة لا يعنينا

ايضا ، اذ انـه ولو كـانت له صلة بالرحلة فهو لا يتصل بموضوعنا الا مـن طرف واحـد (I)

ان فن الرحلة فى اصله لـه اتصال متـين بالجغرافيـة ، اذ الكتب الاولى المؤلفـة فى هـذا العلـم كانت تتخذ صبغـة الرحلة ، وذلك ان الجغـرافى كان اولا يطـوف البلاد التى يود التكلـم عليها ، ويخترق مسالكها ويقف بنفسه على احـوالها ، ثـم يضع بعـد ذلك كتابه لذلك سميت جل التآليف الجغـرافية التى كتبت فى القـرون الاولى ، «المسالك والممـالك» وصارت هاتان الكلمتان تطلقـان على علـم الجغـرافيـة عند العـرب ، كما سمـوه ايضا علم تقويـم البلدان ، والفـرق بين كتب الرحـلات وبـين كتب المسالك والممالك ، هو ان مـؤلف الرحلة يذكـر فيها ما يتعلـق بنفسه ، فينبه مثلا على تاريخ خروجـه من وطنه ، وعلى الاحـوال التى احاطت بسفـره ، مـع الاشارة لاسبابـه ، ويثبت كل مـا يقع له من حوادث اثناء غيبته واما مـؤلف المسالك والممالك فـانـه يكتفى بذكـر المسافات وبوصف البلاد التى يمـر بها مـن الناحيـة الزراعيـة والتجـاريـة ، ويصف احـوال الممالك السياسيـة والعمرانيـة ، ولا يتعـرض لنفسه الا فى ما قـل ، وذلك خصوصا فى المؤلفـات الاولى مـن هـذا النـوع ، حيث كان علم الجغرافيـة لم يستقل بعد تمامـا عن فـن الرحلة حتى ابلغـه الشريف الادريسي الى درجته العليـا عند العـرب ، فى مؤلفـه نزهـة المشتاق فى اختـراق الافـاق ، وهـذا الكتاب وان كـان كجـل الكتب القديمـة الموضوعـة فى المسالك والممالك نتيجـة رحلات متعددة كما ينـم عنه عنوانـه ، فانه كتاب جغرافى محض ، لا أثـر فيه لذكر الوقائـع التى حدثت للمؤلف اثنـاء اسفـاره ، ولا لشيء مـن احواله الشخصية ، لذلك لا يدخـل فى موضوعنـا الا عـرضا

ويمكننا ان نقسم الكلام على الرحلات بالاستناد الى اعتبارات مختلفة ، كأن

I – واننا معتزمون ان شاء الله نشر مجموعة أخرى خاصة بالفهرسات سيكون أول مؤلف ينشر ضمنهـا فهرسة القاضى عياض

نرتبها على العصور التاريخيــة مسلسلين الحديث عنها من اول رحله الى عصرنا هذا ، ويمكــن ايضا ان نرتبها حسب النواحى التى قصدهــا الرحــاله وكتبوا عنهــا ، كما يمكــن ان نقسمها الى قسمــين كبيريــن الرحلات التى سافــر اصحــابها برا ، والرحلات التى سافــر اصحابهــا بحرا الى غــير ذلك مــن الاعتبــارات .

ونظرا لمــا تقدم يمكن ان يقسم نوع الرحلة الى خمسة عشر قسما

اولا - الرحلات الحجازيــة ـ وهى التى يضعها صاحبها بعد رجوعــه من قضاء فريضة الحج وهى زيــادة على موضوعهــا الاساسى من وصف الامــاكن المقدسة وبيان مناسك الحج وكيف اداهــا المؤلف تشتمل فى الغالب على وصف كل المــراحل التى يمــر بها الراحــل من بلده الى مكة المكــرمة فان كان شاميا ذكــر المنازل التى يمــر بها من بلده الى الحجــاز وهكــذا العراقى والمصرى والتونسى وغيرهم وبالنسبة للمغاربــة فان ذلك معناه وصف البلاد الجزائريــة والتونسية والطرابلسية والمصريــة واذا سار الحــاج على طريــق الصحــراء وصف مراحــل بلاد وارزازات وتــوات وازكــر والفزان وبلاد وجلة وسيوة كما فعــل ابن مليح صاحب رحلة انس السارى والسارب وهى فريدة فى بابها وقد خــرج من اغمــات سنة 1040 هـ فدخــل من المغــرب الى طرابلس مبــاشرة ومنهــم من كان يتوجــه بحــرا الى الاسكندريــة . واحيانا ينتهز الحاج المغربى هــذه المناسبة لزيارة بلاد الشام ومشاهدها بالقــدس والخليــل وغيرهمــا والرحلات الحجازية التى وضعت بالعربية فى مختلف البلاد الاسلاميــة تعــد بــالمئيــن .

ثانيــا - الرحلات السياحية وهى التى تكون غايــة واضعها مــن سفــره السياحــة مطلقا والوقــوف على المناظر الطبيعية والمشاهــد الاثريــة والاطلاع على اخــلاق الناس وعوائدهم . وهذا النوع زخــرت بــه الخزانــة العــربيــة فى العصور المتأخــرة بما الف فيه خصوصا المشارقــة ـ مــن مــؤلفــات عــن سياحاتهم فى بلاد اوربا واميريكــا والشرق الاقصى

ثالثا - الرحــلات الرسمية وقد تقدمت الاشارة اليها

رابعــا – الرحلات الدراسية وقــد تعرضنا لها كــذلك عنــد كلامنــا على اسباب الرحلة واقــدم رحلة بلغتنــا هى من هــذا النوع وهى رحلــة الامــام الشافعى رضى الله عنه .

خامسا – الرحلات الاثريــة وهى التى تكون الغايــة منها البحث عنالاثار ووصفها وان كانت الرحلات التى الفت فى هذا الموضوع قليلة فهى نــوع على حــدة

سادسا – الرحلات الاكتشافية ـ وهى التى قام بها اصحابهــا بقصــد اكتشاف بلاد جــديدة او الاطلاع على احوالها . ومن اقــدم الرحــلات العربيــة فى هــذا الموضوع رحلــة سليمان التاجــر الى الهند والصين سنة 237 هجرية (851/852.)

سابعا – الرحلات الزياريــة وهى التى يقصد صاحبها من سفره زيــارة اضرحــة الانبيــاء والاوليــاء ومشاهدهــم وذكر فضائلهم وكراماتهــم والرحلات المؤلفة فى هذا الموضوع من اهم المصادر عــن تاريخ الحياة الدينية والحــركــة الصوفيــة وهى فى نفس الوقت من اهم المصادر عن الفن المعمارى لانها تتعرض بتفصيل لوصف المشاهــد الاثريــة خصوصا ما الف منها عن مشاهد الانبيــاء والاوليــاء بالشام والقــدس .

ثــامنــا – الرحــلات السياسيــة وهى التى كــانت أسبــابهــا تــرجــع لقضايــا سياسية بــين بلديــن وذلك مثل رحلــة ابى الحسن على السوسى الى الصحــراء موجهــا من قبل الملك مولاى الحسن الاول فى شأن الحدود

تاسعا – الرحلات العلميــة وهى التى يكون الدافع لها غايــة علميــة مثل الحضور فى مؤتمــر علمى او دراسة احوال بلد او ناحية من النواحى وتحتوى عادة هــذه الرحلات العلميــة على معلومات وفوائد جمــة واقــدم رحلة من هــذا النوع مؤلف البيرونى الخالد عــن رحلتــه الى الهند فى اوائل القــرن الخامس الهجــرى .

عاشرا – الرحلات المقاميــة ـ وذلك ان من الادباء من سبك اخبار رحلتــه

فى قالب المقامات والرحلات من هذا النوع كذلك قليلة ولكن لها طابعها الخاص .

حادى عشر ـ الرحلات الدليلية وذلك ان من الرحالين من فضلوا ان يصفوا البلاد التى دخلوها بدون ان يذكروا احوالهم الخاصة وتاريخ ورودهم وصدورهم ولا شيئا مما حدث لهم وهذا النوع ليس له اتصال من الناحية الادبية بفن الرحلة الا من حيث وصف البلاد والمشاهد ولكن من حيث التعبير عن العواطف الخاصة والاحساسات والارتسامات ـ وذلك ما يمتاز به هذا الفن ـ فانها بعيدة عنه . لذلك تسمى فى الغالب دليلا وقد الفت فى العصور الاخيرة دلائل كثيرة من هذا النوع عن جل بلاد الدنيا

ثانى عشر – الرحلات الخيالية ـ وهذا النوع من الرحلات وضعها مؤلفوها على لسان رحالة وهمي سافر فى الماضى الى احدى حواضر العلم والثقافة ووصف احوالها وشخص مدنيتها . وهى طريقة لتقريب شؤون الحياة الماضية لاذهان المعاصرين . واشهر هذه الرحلات الخيالية حضارة الاسلام فى دار السلام لجميل المدور و حضارة العرب فى الاندلس لعبد الرحمن البرقوقى ومن الرحلات الخيالية ما يكون موضوعها غير هذا كنقد احوال المعاصرين والسفر المعنوى وغير ذلك .

ثالث عشر – الرحلات الفهرسية ـ وهى التى يقتصر مؤلفها على ذكر الرجال الذين لقيهم والشيوخ الذين قرأ عليهم والكتب التى درسها عليهم او ان كان اديبا الادباء والشعراء الذين اجتمع بهم مع الاشارة الى المجالس الادبية والمحاورات التى راجت فيها معهم الى نحو هذا من المواضيع المتعلقة بالحياة العلمية والادبية . وهذه الرحلات الفهرسية من اهم المصادر عن تاريخ الاداب العربية وهى مفيدة جدا لمعرفة تراجم العلماء والادباء فى مختلف العصور والبلاد العربية . وعلى سبيل المثال نذكر منها رحلة المقرى المسماة روضة الاس العاطرة الانفاس فى ذكر من لقيته من

اعلام الحضرتين مراكش وفاس (I) وكذلك الافق المشرق بتراجم من لقيناه بالمشرق لابن الطيب الشرقي

رابع عشر – الرحلات العامة ـ وهى رحلات مهمة جمعت كثيرا من هذه الاغراض كرحلة ابن بطوطة فقد خرج فى الاول من بلده طنجة بقصد الحج ثم اعجبته السياحة وارتياد البلاد البعيدة فكانت رحلته عامة حجازية سياحية اكتشافية سفارية زيارية علمية ومن الرحلات العامة المتأخرة رحلة الشيخ بيرم التونسى المسماة صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار فى خمسة أجزاء . وكتاب عبد الوهاب عزام رحمة الله المسمى رحلات وقد كانت دواعى اسفاره متعددة من سياحة وحج وسفارة وحضور مؤتمرات علمية وغير ذلك

خامس عشر – الرحلات السفارية ـ وقد اخرت الكلام عليها لان هذا النوع موضوع هذه الرحلة الاولى التى نفتتح بها هذه المجموعة . وهى التى تكون الغاية من سفر صاحبها كما قدمنا القيام بسفارة لدى دولة اجنبية وتكون احيانا من انشاء السفير نفسه ان كان فى نفس الوقت من رجال الادب والعلم واحيانا اخرى يقوم بتاليفها احد الكتاب الذين يرافقون السفير

وقد برز المغاربة فى هذا النوع من الرحلة ولم يؤلف احد من العرب بقدر ما وضع المغاربة من رحلات سفارية وكلها كتبت فى العصور الحديثة اى ابتداء من ايام السعديين .

واقدم رحلة سفارية هى التى لخص اخبارها ابن دحية السبتى في كتابه المطرب من اشعار اهل المغرب وتتضمن سفر يحيى الغزال موفدا من قبل الخليفة الاموى عبد الرحمن بن الحكم الى ملك المجوس اى النورمانديين وذلك حوالى سنة 208 ھ (824)م. وهذه الرحلة اقدم من الرحلتين السفاريتين

I – وقد نشرت أخيرا في مطبوعات القصر الملكى بعناية الاستاذ عبد الوهاب ابن منصور فى حلة قشيبة ومع مقدمات وتعاليق مفيدة .

اللتين قام بهما ايام العباسيين ابن فضلان الى بلاد الخزر والروس وابو دلف الى ايران والهند والصين وذلك فى النصف الاول من القرن الرابع.

وعسى ان نوفق فى هذه المجموعة الجديدة الى نشر اكثر ما يمكن من الرحلات فى سائر هذه الانواع المذكورة سواء كان ذلك من انتاج المغاربة او غيرهم من الرحالين وعندنا تحت الطبع الان الرحلة المغربية للعبدرى وانس الفقير لابن قنفذ كما ستقدم للطبع قريبا رحلة البلوى الحجازية المسماة تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق ومن الله نستمد العون وهو ولى التوفيق

محمد الفاسى

رئيس جامعة محمد الخامس

مقدمة

ابن عثمان المكناسي ورحلته
الاكسير في فكاك الاسير

صاحب هذه الرحلة التى كانت نعتبر ضائعة الى هذه السنين الاخيرة هو احدى الشخصيات المغربية التى كان لها دور هام فى تاريخ العلائق الخارجية ايام الملوك الثلاثة سيدى محمد بن عبد الله ومولاى اليزيد ومولاى سليمان .

وهو ابو عبد الله محمد بن عبد الوهاب بن عثمان وبه شهر المكناسي. وان تاريخ ولادته لا يعرف بالضبط وانما يستنتج من احوال حياته كلها انها وقعت فى اواسط القرن الثانى عشر الهجرى (الثامن عشر الميلادى) بمدينة مكناس . وكان من بيت علم فان والده كان مورقا واعظا باحد مساجد مكناسة الزيتون وقام ولده بالنيابة عنه فى هذا الوظيف وهو لا يزال فى طور الشباب . وهناك ظهرت نجابته فرقاه السلطان سيدى محمد بن عبد الله لمهمة سرد الكتب بالقصر السلطانى ثم عينه كاتبا بحضرته . واستمر فى عمله هذا سنين لا نعلم كم كان عددها بالضبط لاننا لا نعرف ابتداء عمله فى الادارة المخزنية العليا ولا شك انه ترقى فى وظيفه ونال الحظوة والتقدير لدى الملك العظيم سيدى محمد بن عبد الله الذى اعاد للمغرب الهدوء والرفاهية بعد عصر الفتن والحروب والتطاحن على الملك بين ابناء المولى اسماعيل بعد وفاته حتى ان سبعة من ابنائه طلعوا على عرش المملكة ومنهم من خلع عدة مرات ورجع الملك وذلك فى ظرف ثلاثين سنة .

سيدى محمد بن عبد الله وسياسته الخارجية

وكان لسيدى محمد بن عبد الله اهتمام كبير بربط العلائق الدبلوماسية والتجارية بين المغرب وامم اوربا والخلافة العثمانية . ومن ثم نراه

يوجه الوفود السفارية لمختلف البلاد وكانت حركه القرصنه التي سادت في القرنين السابقين تشل حركة المواصلات البحريه وتعرقل النشاط الاقتصادي فتصدى لمعالجة هذا المشكل بعزم وايمان صادق في احلال السلام والوئام بين الشعوب مما ينبغي ان تخصص له الدراسات ويزاح عنه النقاب بنشر رحلات سفرائه ومعاهداته ومراسلاته وكل الوثائق المتعلقه بعهده الموجود منها الكثير بمختلف مخطوطات الامم التى كانت تصلها بالمغرب صلة وقد انفق سيدى محمد بن عبد الله اموالا طائلة فى افتداء اسرى المسلمين ولم يكن رحمه الله يفرق بين المسلم من رعاياه وبين غيره بل جل من أنقذهم من الاسر كانوا من رعايا الترك من طرابلسيين وتونسيين وجزائريين

سفارة ابن عثمان الاولى

ومن جملة السفارات التى اوفدها سيدى محمد بن عبد الله الى الخارج توجيه كاتبه ابن عثمان سنة 1193 هـ (1779 م) الى ملك اسبانيا كارلوس الثالث في شان عقد معاهدة لتجديد الصلح بين الدولتين ولافتكاك الاسارى الجزائريين الذين كانوا باسبانيا

وهذه السفارة لم يتعرض لها مؤرخ واحد من مؤرخى المغرب ولم نكن نعرفها الا عن طريق الكتاب الغربيين وبالاشارة التى اوردها عنها ابن عثمان نفسه فى رحلته عن سفارته الى تركيا المسماة احراز المعلى والرقيب وكانت الرحلة التى وضعها ابن عثمان عنها وهى هذه التى نفتتح بها هذه المجموعة تعتبر ضائعة الى هذه السنين الاخيرة حيث اكتشفت دفعة واحدة ثلاث نسخ منها كما سنذكره عند الكلام على مؤلفات ابن عثمان .

تعيين ابن عثمان وزيرا

بعد ما رجع ابن عثمان من سفارته الى اسبانيا وقد نجح فى ماموريته نجاحا تاما عينه سيدى محمد بن عبد الله وزيرا ولكن المؤرخين المغاربة

لا يلقبونــه بهذا اللقب ماعدا مولاى عبد الرحمن بن زيدان رحمه الله ويكتفــون بلفظــة كاتب وذلك لسببين اولهما ان لفظــة كاتب كانت تستعمل بمعنى وزير وثانيهما ان مرجــع المؤرخــين الوحيد لحوادث آخــر القرن الثانى عشر واوائل الثانى عشر هو ابــو القاسم الزيانى وقد كان عدوا لــدودا لابن عثمان ومنافسا حسودا ومــع ذلك فانــا نــراه فى قصيدة تاريخية يذكره باسم الوزير فى هــذا البيت

ثــم محمــد بــن عثمــان الــوزيــر أخــذ مــن وفــر و مــن در كــثــير

سفــارتــه الثــانيــة

بعد مضى ثلاث سنوات على سفارتــه الى اسبانيا وجهه سيــدى محمــد ابــن عبد الله الى مالطــة ونابلى لافتداء المسلمين المــاسوريــن بهاتين الولايتين ولــم يتعرض المؤرخــون المغاربــة كذلك لهذا الحادث وقــد الف ابن عثمان عــن هــذه السفــارة رحلة سماهــا البــدر السافــر فى افتكاك الاسارى مــن يــد العدو الكــافــر وتــوجــد منها نسخة بخزانــة المؤرخ الشهير مولاى عبد الرحمن بن زيدان رحمه الله كما اكتشف اخيرا نسخة ثانية بالمكتبة السلطانية .

وكانت هذه السفارة تتركب من المترجــم ومن السيد عبد الكريم بن قريش والسيد محمد المــير السلوى والسيد الطيب ابن جلون والسيد التهامى البنائى وحملهم سيدى محمد بن عبد الله من المــال مايزيــد على 86.000 ريال وخرجت السفارة مــن مراكش فى ثانى ذى الحجــة سنــة 1195 هـ 19 نــومبيــر سنــة 1781 م وقــد لخص المؤرخ ابن زيدان اخبــار **هــذه الــرحلــة** فى كتــابــه اعــلام النــاس (1)

امــا المعاهــدة التى ابرمها ابن عثمان باسم سلطانــه سيدى محمد بن عبد الله مــع نــائب ملك الصقليتــين فيوجد اصلها الايطــالى بمحفوظات الدولــة

---

1 – ج 3 ص. 320 .

بمدينة نابولى حيث تم توقيعها بتاريخ 12 ذى القعدة سنه 1196 هـ 19 اكتوبر سنة 1782 م . وهى تتضمن خمسة فصول تؤكد الصلح والسلام بين المغرب وممالك فردناد الاول (1)

سفارة ابن عثمان الثالثة

ان الفترة بين رجوعه من ايطاليا وتعيينه سفيرا الى الدولة العثمانيه وهى نحو ثلاث سنوات لاشك ان ابن عثمان قضاها فى العمل ببنيقة بالقصر الا اننا لا نعرف شيئا بالضبط عن نشاطه اثناءها ، ولقضية توجيهه الى اسطنبول قصة لا نتعرض لها بالتفصيل الان ونترك ذلك لوقت نشر الرحلة الثالثة التى وضعها عن هذه السفارة الى تركيا وملخصها انه كان ورد على سيدى محمد بن عبد الله سفير من لدن السلطان عبد الحميد الثالث اسمه اسماعيل افندى وكان مكلفا بالاعتذار عن اهل الجزائر الذين كانت تدخل عصابات منهم للحدود المغربية وتعيث فيها وتنهب ما تقدر عليه حتى عيل صبر السلطان سيدى محمد بن عبد الله وكان يحب السلام فشك امرهم للخليفة العثمانى بواسطة سفيره السيد محمد الحافى وقد كلفه بابلاغ 274000 ريال لتصرف فى افتداء اسرى الترك وكان سيدى محمد بن عبد الله ينفق فى هذه السبيل انفاق من لايخشى الفقر . وعزز هذه السفارة باخرى يراسها السيد عبد الكريم العونى التطوانى ومعه كتاب ثان فى شان اهل الجزائر يقول فيه على ما ذكر الزيانى فى الترجمانة الكبرى

---

1 – وقد نشر كايى J Caillé ترجمة نصها بالفرنسية فى كتابه اوفاق سيدى محمد بن عبد الله الدولية وهو من منشورات كلية الحقوق بجامعة محمد الخامس
Les accords internationaux du Sultan Sidi Mohammed Ben Abdallah.
ص 242 .

«ان لم تدفع ضررهم عن المسلمين فدعني واياهم» (1) فكان لهذا الكتاب اثر كبير في الدوائر التركية وكتبوا لباشا الجزائر وباشا تونس «ان يتادبوا مع السلطان مولاي محمد سلطان المغرب وينفذوا ما يكتب لهم ويفعلوا معه من الآداب ما يفعلونه مع السلطان عبد الحميد» (1) الا ان السفير صرح وهو في المركب تصريحات هو جاء يستفاد منها اكثر مما في المكاتيب تملقا للمسؤولين المغاربة ولما وصل الى حضرة السلطان وفتحت رسائل الخليفة وجد انها لاتعدو الاعتذار عن اعمال اهل الجزائر فغضب سيدي محمد بن عبد الله غضبا شديدا ونسب الكذب للسفير التركي وامر بارساله في الحين الى تطوان ريثما يلحق به سفير مغربي يرده الى بلاده

وعند ذلك كلف السلطان وزيره ابن عثمان نظرا لاهمية المسألة بالتوجه الى اسطنبول وبعد قضاء غرض الرسالة يتوجه للحرمين الشريفين بهدايا ثمينة لاشراف الحجاز ولغيرهم

وقد دامت هذه الرحلة الطويلة عامين وسبعة اشهر اذ كان ابتداؤها يوم 4 نومبير 1785 م والرجوع الى فاس يوم 4 يونيه 1788 م

وقد كان ابن عثمان يظن ان اتعابه قد انتهت وانه بعد هذه الرحلة الشاقة سيتاح له ان يستريح ولكن السلطان سيدي محمد كلفه بمجرد وصوله ان يرجع على عقبه ليصاحب الى تلمسان جماعة من الاسارى الجزائريين اطلق سراحهم ملك اسبانيا ووجههم كهدية لملك المغرب لما يعمله من شغفه بانقاذ المسلمين من الاسر . (2) وان تكليف الملك كاتمه

---

1 – انظر الترجمانة الكبرى مخطوط الخزانة العامة بالرباط ص. 33 – 36

2 – ذكر الناصري في الاستقصا ج 4 ص. 121 عن افتكاك سيدي محمد بن عبد الله لاسرى المسلمين : «واما ما انفقه من الاموال في فكاك اسرى المسلمين فاكثر من ذلك كله حتى لم يبق ببلاد الكفر أسير لا من المغرب ولا من المشرق ولقد بلغ عددهم في سنة مائتين والف (1786) ثمانية واربعين الف اسير وزيادة .»

ابن عثمـان بهذه المامورية الشريفة يدل على تقديره لسعيه ولنجاحه في تادية رسالته في البلاد الشرقية

ابن عثمان سفير مولاى اليزيد

منذ رجوع ابن عثمان من رحلته الطويلة الى البلاد المشرقة لا نسمع له ذكرا في كتب مؤرخينا الى ايام مولاى سليمان ولا شك انه قضى السنتين الاخيرتين من ملك سيدى محمد بن عبد الله في الحكومة كوزير له اختصاص بالشؤون الخارجية .

اما بعد مبايعة مولاى اليزيد فلم نكن نعرف عن مصير ابن عثمان شيئا حتى اكتشفت اخيرا وثائق هامة بالمحفوظات الوطنية بمجريط وقد نشر بعضها الاستاذ ارىباس بالاو الملحق للبحث بجامعة محمد الخامس وهو يشتغل في معهد مولاى الحسن بتطوان وقد تقدم ببحثه هذا كأطروحة لنيل الدكتورة من جامعة برشلونة

وملخص ما يتعلق بابن عثمان من هذه الوثائق وهي عبارة عن مراسلات وقعت بين مولاى اليزيد وملك اسبانيا وابن عثمان وغيرهم من رجالات الدولتين ان ابن عثمان وجهه مولاى اليزيد سفيرا الى كارلوس الرابع ملك اسبانيا بطلب منه . وذلك بضعة شهور بعد مبايعته الا ان الاحوال فسدت بعد ذلك بين المغرب واسبانيا فوجه مولاى اليزيد يعزل ابن عثمان عن السفارة ويكلف بها ابن عمه المولى علي بن احمد بن ادريس بن اسماعيل (1791/7/28) ولكن ابن عثمان لم يرجع في الحين واخذ يحاول حل المشاكل بين الدولتين حتى وجه مولاى اليزيد بتاريخ 4 اكتوبر سنة 1791 (5 صفر سنة 1206) يكلفه من جديد بالسفارة. وبقى ابن عثمان باسبانيا الى ان بلغه خبر وفاة المولى اليزيد فرجع الى المغرب حيث وقعت له حظوة كبيرة عند مولاى سليمان ، وقد اضفت هذه الرسائل المكتشفة اضواء جديدة على هذه الحقبة من حياة ابن عثمان مع العلم بان كتب مؤرخينا

خلية كليا من الاشارة الى قضية واحدة من القضايا الكثيرة المهمة التى كانت بين المغرب واسبانيا ايام مولاى اليزيد والتى تحتاج الى دراسة سنخصص لها فرصة اخرى ان شاء الله

ابن عثمان أيام مولاى سليمان

لما اتصل ابن عثمان بعد رجوعه من اسبانيا بالملك المولى سليمان وقد بويع يوم الاثنين 17 رجب 1206 (12 مارس سنة 1792) ولا شك انه كان يعرفه من قبل ايام والده وكان يقدره ويعلم مواهبه الدبلوماسية سارع الى تعيينه فى منصبين خطيرين النيابة عنه فى الاتصال بالسفراء الاجانب الذين كانوا يقيمون بطنجة وولاية تطوان كما يتضح ذلك من رسالة للمولى سليمان موجهة بواسطة ابن عثمان لسفراء الدول بطنجة ، وكان يطلق عليهم لفظ القناصل يعلمهم فيها بتعيينه فى المنصبين المذكورين ورد فيها قوله اما بعد فاعلموا ان كاتبنا الفقيه السيد محمد ابن عثمان تعرفون منزلته عندنا وعند سيدنا الوالد رحمه الله صدقا وامانة وعرضا ومرؤة ولهذه الحالة المعروفة عندنا بعثناه لتطوان وولبناه امرها وامر من بها مفوضا له فى ذلك ، وقد حملنا على بعثه وتوليته غرضان احدهما ان تطوان اعظم ثغور المسلمين ومقصد لكل واحد من المسلمين ومن اجناسهم ، وهذا الفقيه له سبيل باعث على تمشية جميع الامور على ما يناسب كل واحد ومحافظ على المراتب والحقوق والغرض الاخر وهو جعله واسطة بيننا بحيث كل من يعرض له منكم امر خاص ، اما من جهتكم او من جهة دولتكم فليعرضه عليه ويتفاوض معه فيه لانه اعلم باحوالكم الى ان يقول لانه عندنا معروف بالصدق وتاريخ هذا الكتاب 16 ربيع الاول سنة 1207 ـ (22 اكتوبر 1792) اى ثمانية اشهر بعد مبايعة المولى سليمان

وقد سارع ابن عثمان بعد حلوله بتطوان وتوليته عمالتها واضطلاعه فى نفس الوقت بمهام وزارة الشؤون الخارجية بالكتابة الى صديقه الكند اراندة وزير ملك اسبانيا كارلوس الرابع لاعلامه بالحظوة التى نالها ولاستئناف

المحادثات معه حول المصالح المشتركة بين البلدين ، وقد حفظت هذه الرسالة كذلك في وثائق الدولة الاسبانية ولم تنشر بعد ، وهذا نصها نورده بالكلمة لانه بخط يد ابن عثمان نفسه مع توقيعه ولانه من اهم الوثائق التاريخية المتعلقة بهذه الحقبة

بسم الله الرحمن الرحيم   ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

صاحبنا العزيز علينا الامجد الانجد وزير الدولة الاصنيولية والامين على اسرارها الكند ارانـدة اما بعد نعرفكم ان مولاى السلطان سليمان الملك العادل قلدنى امور اجناس النصارى الداخلة فى مملكة سلطاننا العزيز والخارجة في دولتهم ومماليكهم مفوضا فى ذلك مشفعا ذلك بولاية تطوان الان لبعض المصالح ولاجل ماعلى من الحقوق لملك اصبانيا السلطان الشهير دون كارلوس الرابع تعين على ان نكاتبك لتعلمه باننى دائما فى خدمته بصدق واخلاص بجانبنا وجانبه وانا افرح كثيرا ان يأذن لقناصيله ووكلائه ورعيته الاصبنيوليين ان ياتوا الى مراسي بلادنا بمراكبهم فى قضاء اغراضهم وجميع ما يريدون من بلادنا بامان وطمانينة ، فلى تشوق كثير الى اسعاف من ياتى الينا لنظهر بذلك صدق ما انطق به من ودادكم ، فقد عوضنى الله تعالى عما مضى هذا الملك الجليل فحكمنى وفوضنى فى جميع ما نريد من المصالح ولى اشتياق كثير فى تتميم عملنا معكم فقد تعبت فيه كثيرا فيما تقدم وارجو الان اتمامه ان شاء الله وقد كاتبتكم عند قدومنا على بلادنا بعد انصرافنا من عندكم فلم ياتنا جوابكم ، فنحبكم ان لا تهملوا الجواب ، فان الباعث لنا على المكاتبة مطلق المحبة والمحافظة على المودة ، ونسلم على السيدة الجليلة زوجتكم كثير السلام نسالك ان تنوب عند الملك فيما يجب له علينا ، ونحن فى خدمته على الدوام والسلام .

كتبه من تطوان محمد بن عثمان لطف الله به فى سابع ربيع الثانى من عام 1207

محمد بن عثمان لطف الله به

وان فى قولـه

مشفعـا ذلك بولايـة تطوان الان لبعض المصالـح مـا يشعـر بانـه كلف بماموريـة خاصة لاندرى ما هى لانـه لـم يوضحها ، ولاشك انها كانت سرية وتتعلـق بقضايا سياسيـة داخلية عليـا كذلك نفهم من قولـه الان انها كانت مـاموريـة موقتة ، وهذا ما يـؤيده كذلك ما ذكـره سكيرج من انـه قضى فى ولايـة تطـوان نحـو عـام ويـؤيـد هـذا ايضـا بعض المكـاتب التى عثـر عليهـا مـن جـديـد باسبانيا وكلها موقعـة بقلم ابن عثمان نفسه واكثرها بخطه احـدهـا بتاريخ 24 صفر 1208 (فاتح اكتوبر 1793) يفهم منها انهـا كتبت من حضرة فـاس ومن جملتها رسالة اخرى مؤرخة بالثانى عشر ربيـع الثانى سنـة 1209 (6 نومبـر 1794) مصرح فيها بانها كتبت بفـاس مما يـدل على انه كـان رجـع الى العاصمة . وعلى كـل حـال ليس عنـدنـا الان نص صريـح نستنـد عليه لتحقيق هـذه النقطـة وكل ما نعلمـه ان ابن عثمان يظهـر ايام المولى سليمـان كشخصية بـارزة فى الحكـومـة المغـربيـة لهـا اختصاص بالشؤون الخارجية ونرى المؤرخين طوماسى ودى هيمسو وهما لايذكران مـرة واحـدة الزيانى يضفيان عليه صفة الوزير الاول للامبراطوريـة المغـربيـة ، وبهـذه الصفـة كذلك نـراه يقتبل السفـراء وقناصل الامـم الاجنبية الذين يفدون على المغـرب . ويكاتب وزراء الدول الاجنبيـة كما يتضح من الـوثائق المعثور عليها اخـيرا والتى سنتعرض لها بالبحث والنشر قـريبا

ابـن عثمـان والسيـاسـة الـداخليـة

ونراه يلعب دورا مهمـا فى السياسة الداخلية كذلك ، فعندما دخل المولى سليمـان مدينة مراكش سنة 1797 وفى معيته وزيره ابن عثمان كان نفوذه قد ثبتت دعائمه فى كل البلاد الا ان مدينة آسفى كانت لا تـزال خارجة عن سلطته وذلك ان رئيسها القائد عبـد الرحمـن بن ناصر كان مبايعـا لمولاى هشـام احد اخـوة المولى سليمان وكان هذا الاخير يقيـم عنده فارتأى المولى سليمـان بعد ان استتب له الامـر واستوثق ان يولي هـذه القضية السياسية عناية خاصة،

فارسل وزيره ابن عثمان لما يعلم من خبرته ودهائه ولينه الى القائد عبد الرحمن بن ناصر ولكنه زوده باوامر صارمة تتلخص فى ابلاغ القائد وجوب القدوم الى الاعتاب الشريفة لتقديم الطاعة والاوجه له جيشا لمحاربته. قال الزيانى فى الترجمان «فلما وصله اعتذر بالمرض واحضر القاصى والفقهاء وخلع سلطانه وكتب بيعته للسلطان سليمان وادى طاعته وتوجه هشام لزاوية الشرادى فاستحرم بها» .

وهكذا نجح ابن عثمان فى هذه المامورية الشاقة نجاحا باهرا ورجع الى السلطان بوثيقة البيعة واعتذارات القائد ابن ناصر عن عدم استطاعته المثول بنفسه بين يدى السلطان مولاى سليمان لتقديم مراسيم الولاء والطاعة نظرا للمرض النازل به ، قال الزيانى : «فقبل السلطان عذره واستقامت الامور»

وقد قام الوزير ابن عثمان بعمل عظيم لخير السلام وذلك مدة قريبة قبل وفاته كلل به حياته السياسية والديبلوماسية ، وكان له اثر كبير فى الاوساط السياسية باوربا ورددت صداه الجريدة الجمهورية الباريسية « المدرب » (Le Moniteur)

وكانت فرنسا تحت نظام «المديرية» (Directoire) فى حرب مع انجلترا ، وكانت هذه الدولة تقوم فى المغرب بدعاية واسعة النطاق ضد فرنسا بمساندة مولاى الطيب اخى السلطان بمراكش وخليفته ناشرين بالخصوص اخبارا مقلقة عن الحجاج المغاربة وما ينالهم من مضايقات عند مرورهم بمصر وكانت تحت نفوذ بونابرت ، ويقول طوماسى فى كتابه المشار اليه آنفا «وقد قاوم مولاى سليمان ووزيره الاول كل الدسائس التى كان يدسها لنا اعداؤنا» .

الا ان انجلترا تمادت فى سياستها وكانت تنتهز كل فرصة للتقرب من السلطان ومحاولة افساد ما بينه وبين فرنسا وحليفتها اسبانيا من ذلك انه عندما وجهت اسبانيا وفدا لتقديم هدايا لمولاى سليمان تسارعت انجلترا الى توجيه هدايا كذلك مع محاولات لقطع العلائق بين المغرب واسبانيا.

وكان ابن عثمان مومنا بوجوب نشر السلام وكانت له خبرة عظيمة بكل الشؤون الخارجية اكتسبها من مباشرته لها واطلاعه بنفسه على كل احوال البلاد الغربية ، وقد زار الكثير منها واقام مددا طويلة بها وكان يرى ان مصلحة البلاد اذ ذاك كانت تقضى بعدم افساد الجو مع اسبانيا نظرا للعلائق التجارية المتينة التى كانت تربط البلدين . فعمل على ابرام معاهدة سلم وتجارة وملاحة مع اسبانيا ونجح فى ذلك وتم الاتفاق على معاهدة سنة 1799 .

وقد اعتبرت جريدة المدرب الفرنسية هذه المعاهدة كخطوة جديدة فى سبيل التقدم والمدنية قالت : «ان مبادىء الحقوق الدولية المقدسة قد انتقلت من كتب الفلاسفة الى دواوين الممالك المغربية وصارت هذه المبادىء تهيمن على اعمالهم فلم تبق الخلافات الدينية بين الشعوب تقف حجر عثرة فى سبيل التقارب بينها ، وان نفس اولائك المسلمين الذين كانوا لا يقبلون من الكفار الا الخضوع او السيف صرنا لانسمع منهم اليوم الا الفاظ الصداقة والتفاهم والانسجام وباختصار فان امبراطور المغرب يكتب انه يتمنى ان لفظة الاسترقاق البغيضة تزول من ذاكرة البشر ويوقع على هذا باسمه كما ورد فى الفصل الثالث عشر»

وتدل هذه التعاليق على الاهمية التى اولتها كما قلنا الاوساط السياسية لهذا العمل الجليل الذى يقترن باسم الوزير ابن عثمان والذى كلل به حياة مليئة بالنشاط والاخلاص لوطنه وملوكه .

وفاة ابن عثمان

ان المؤرخين المغاربة ومن ضمنهم آخر من تكلم على ابن عثمان من المعاصرين اى مولاى الكبير ابن زيدان رحمه الله يجعلون وفاة ابن عثمان سنة 1212 ه (1798 م)ضحية لوباء الطاعون ولكن هذا غلط وقع فيه الزياني وتبعه فيه كل من جاء بعده من المؤرخين ، كما اتبعوه فى كثير من الحوادث التى وردت فى كتبه ولم يجشموا انفسهم مشقة التحقيق . وقد عمد الدكتور

رينو فى ابحاث نشرها بمجلة «هيسبريس» حول الاوبئة بالمغرب الى دراسة هذا التاريخ معتمدا على مكاتيات قنصلية وهى نصوص لاتقبل الشك وتوصل الى تأخير حوادث سنة 1212 كما وردت عند الزياني ومن جاء بعده الى سنة 1213 . قال الدكتور رينو فى هذا الصدد يوم 6 ترميضور (24 يوليه 1799 ـ 20 صفرسنة 1214) كتب القنصل كيبى ان الملك خيم فى نواحى مراكش ثم دخلها واخيرا قرر الذهاب الى مكناس حيث يظهر ان المرض فى رجوع ... الوزير ابن عثمان وقد اصيب بالمرض لم يستطع مصاحبته ... وقد توفى مدة قريبة بعد ذلك» . وهذا شىء صريح واضح ويزيد الدكتور رينو قائلا «واعتمادا على هذه الرسالة يمكننا ان نجعل سفر مولاى سليمان من مراكش فى اوائل يوليه سنة 1799 وقد ترك بمراكش وزيره ابن عثمان وحسب ما يقول اكنسوس قد بلغ السلطان خبر وفاة كاتبه ابن عثمان وهو لايزال فى طريقه الى مكناس» . على ان طوماسى ودى هيمسو يصرحان بان الوباء بدأ فى المغرب سنة 1799 ووقعت وفاة ابن عثمان فى نفس السنة .

ثم ان نشر معاهدة سنة 1799 جاء مؤيدا لما ذهب اليه الدكتور رينو وذلك ان هذه المعاهدة موقع عليها بقلم ابن عثمان وبتاريخ 22 رمضان سنة 1213 (الموافق لفاتح مارس سنة 1799)

وقد نشر الاستاذ اريباس بالاو صورة من الصفحة الاخيرة من هذه المعاهدة حيث يرى توقيع ابن عثمان واضحا وهى مؤرخة من مكناس .

وبناء على كل هذه الحقائق فان وفاة ابن عثمان وقعت بين فاتح مارس والرابع والعشرين من يوليه ، فاذا كانت كما يستنتج من كلام القنصل كيبى فى اوائل يوليه او اواخر يونيه فان ذلك يوافق من التاريخ الاسلامى شهر محرم سنة 1214

وهذا هو المرجح لانه يبعد ان ينتظر القنصل شهورا عديدة ليخبر دولته باحداث مهمة كالتى سجلها فى تقريره المؤرخ بالرابع والعشرين من يوليه

ومن سخرية الزمان ان كلف الزياني خصم ابن عثمان اللدود بالتوجه الى مراكش للسهر على مخلفاته وكان من بينها مؤلفاته وحملها الى مكناس وقد ذكر بعد ان اشار الى هذه المامورية وهو جد مغتبط :«فتوجهت لذلك حتى حملته على بغاله التي وجهها معي وقدمت فقلدني كتابته»

ونريد ان نختم هذه الترجمة بكلمة تقدير واجلال وردت في كتاب طومسي المشار اليه مرارا في هذا البحث فقد قال بعد ان ذكر ضحايا الطاعون الذي فتك في كل المدن والنواحي بالاف من اهل المغرب حتى بلغ عدد الموتى بفاس 65.000 «ولكن اعظم ضياع بالنسبة الينا وبالنسبة لمولاي سليمان هو ما منينا به من موت وزيره الاول ابن عثمان ذلك السياسي الداهية الذي كان له استعداد للتفاهم قليلا ما نراه عند المسلمين ، وقد كان صديقا لنا كما كان صديقا لاسبانيا»

مؤلفات ابن عثمان

قد اكتشفت الان رحلات ابن عثمان الثلاث وهي الاكسير في فكاك الاسير هذا و البدر السافر في افتكاك الاسارى من يد العدو الكافر وهو كما قدمنا عن رحلته الى مالطة ونابولي و احراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب وقد اظهر في هذا المؤلف عن رحلته المشرقية ثقافة اسلامية واسعة ومعلومات دقيقة في تاريخ تركيا وفي الحديث والتصوف والفقه والادب وعلوم اللسان ونترك الان الكلام بتفصيل عن هذه الرحلة وقد اعددناها كذلك للنشر وقد كانت اول ما اهتممت به من انتاج ابن عثمان اذ اعددتها للنشر مع دراسة عن مؤلفها وقدمتها كرسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا من جامعة باريس وهي التي دفعتني للبحث عن شخصية ابن عثمان الفذة ومنذ ذلك الحين اي منذ اكثر من ثلاثين سنة وانا انقب عن كل ما يتعلق بحياته وعن الوثائق الراجعة للحقبة التي كان يعيش فيها وعن مؤلفاته

اما مؤلفه هذا الذى ننشره اليوم فهو كتاب حى يصف الحياة الاسبانيه فى المائة الثامنة عشرة وصفا دقيقا فهو مولع بمعرفة الاشياء والاطلاع على اصولها ومقاييسها وفوائدها يهتم بالحياة الاجتماعية وبالنشاط الاقتصادى والثقافى ، فما ترك مظهرا من مظاهر الحياة الاسبانية من رقص وتمثيل ولعب ثيران وتفسح فى الميادين والشوارع الى غير ذلك من اوجه النشاط العام لهذه الامة الا وتعرض له بالوصف والتحليل ولم يترك عملا او دار صناعة الا ودخله وسأل عن تسيير العمل فيه وعن انتاجه وقيمته بالتقدير النقدى وعن كل ما يتعلق به وكذلك اهتم بكل ما يتعلق بالعلم والفن فزار المدارس والمتاحف والقصور والمتنزهات وخزانات الكتب والمستشفيات واولى الحياة الدبلوماسية عناية خاصة وله اطلاع واسع متين على العلائق العائلية بين مختلف بيوتات الملك فى اوربا . اما حياة القصر الملكى باسبانيا فقد اعطى عنها معلومات دقيقة واورد مختصرا عن تاريخ الاسرة المالكة وذكر تنقلات الملك بين مختلف متنزهاته والاحتفال بالاعياد الدينية خصوصا عيد الفصح ووصف مقبرة ملوك اسبانيا بالاسكوريال وتكلم على نظام ما يسمى بكبراء اسبانيا

وتعرض بتفصيل لاعمال التعمير التى قام بها الملك كارلوس الثالث من انشاء الطرق واستصلاح الاراضى والاهتمام بالزراعة والملاحة البحرية والعسكرية ، والمواصلات خصوصا البريد وذكر نظامه وسيره بتفصيل وكذلك تكلم على النظام العسكرى وعلى عناية كارلوس الثالث بالخيل وبالصيد .

واعتنى عناية خاصة بالكلام على الديانة الكاثوليكية واعطى تفاصيل مسهبة عن اختيار البابا وتكلم على ديوان التفتيش وعن اليهود باسبانيا ومعاملة الكنيسة والحكومة لهم . واهتم بحياة الاسبان الدينية من تعميد

وصيام واعتراف واحتفال بالاعياد الدينية الى غير ذلك مع الكلام على حياة الرهبان فى الاديرة والراهبات ونظام ذلك

وبالمناسبة تكلم على تاريخ الممالك الاسلامية بالاندلس وعن العائلات الاسبانية التى لها اقارب من المسلمين بالمغرب وعن الاثار الاسلامية باسبانيا

اما عن الطبيعة الاسبانية من جبال وانهار وبحيرات وغابات فلم يغفل شيئا مما شاهده منها عند سفره من مدينة قادس الى مجريط شمالا وكذلك فى الرجوع من مجريط الى ناحية شرق الاندلس ولم يغفل الاشارة الى ارحية الريح الشهيرة بناحية المانشا التى ذاع صيتها بماتلعبه من دور فى رواية دون كيخوطي للكاتب العبقرى سير فانطيس

ومن اهم ما تحتوى عليه هذه الرحلة معلومات قيمة عن الاسارى الجزائريين الذين كانوا باسبانيا وقد كان ذلك السبب الاساسى لتوجيهه سفيرا الى ملكها وان الرحلات السفارية لا تتعرض فى الغالب لموضوع السفارة كأن ذلك من سر الدولة الذى يصان ولا ينبغى نشره وانما يترك للتقارير الرسمية التى يقدمها السفير لدولته بعد رجوعه وفى هذه الرحلة خالف ابن عثمان هذا التقليد وذكر فى مقدمة كتابه القصد من توجيهه قائلا : «وقد كان عند النصارى قبل هذا من اسارى المسلمين عدد كثير وجمهور غفير وكلهم من البلاد المشرقية مثل طرابلس وتونس والجزائر وعمالاتها فسرح الله تعالى جلهم على يده الكريمة» . (I) وفصل الكلام على ذلك فى الرحلة وقد كان الاسارى الذين توجه لافتدائهم كلهم من اهل الجزائر وقد ذكر ان الحكام الاتراك بالجزائر كانوا لايقبلون ان يفتدوا الاسرى الاسبان عندهم الا بالاتراك اما العرب فيردونهم الى الاسر قال حاكيا عن مفاداة سعى فى انجازها سيدى محمد بن عبد الله مع ملك اسبانيا حتى وجه جميع الاسارى المسلمين الى الجزائر «ففدى عامل الجزائر الترك وامتنع من فداء العرب

I – يعنى على يد الملك المعظم سيدى محمد بن عبد الله .

وفدى من بقى عنده من النصارى بالمال ورد المسلمين الى الاسر ببلاد الكفر فانظر الى هذا الفعل الشنيع والامر الفظيع» (1) لذلك كان سيدى محمد ابن عبد الله يهتم بافتدائهم كما يفعل فى سبيل كل الاسارى المسلمين «حتى اخرج جميعهم احتسابا له تعالى وابتغاء مرضاته» (2) وقد ذكر ابن عثمان ان الاسارى الذين سعى فى تسريحهم كانوا كلهم من اهل الجزائر وايالتها

وكذلك اعطى تفاصيل مهمة عن المعاهدة التى ابرمها باسم ملكه مع عاهل اسبانيا كارلوس الثالث مما نترك الكلام عليه للبحث الذى اشرنا اليه آنفا

وبالجملة فلم يترك ناحية من نواحى الحياة فى عصره باسبانيا الا وتعرض لها ووصفها وهو يوفق فى تدقيق الوصف ويستعمل لغة سهلة ويهتدى الى مصطلحات مناسبة للتعبير عن مظاهر الحضارة الاسبانية وان كان لايجتنب استعمال الألفاظ العامية العربية . اما الالفاظ الاسبانية فانه يذكرها مع ترجمتها الى العربية فى الغالب .

وقاعدته فى ذكر الاعلام الجغرافية انه يوردها بنطقها الاسبانى الا فى ما اشتهر من المدن العظيمة كقرطبة واشبيلية وغرناطة . ولا يجشم نفسه مشقة البحث عن اسمها الحقيقى ايام العرب مع انه لو حاول ذلك لتوصل اليه بسهولة إذ نراه كما قدمنا فى رحلته المشرقية يبرهن عن اطلاع عميق فى الثقافة العربية .

مخطوطات الاكسير

قدمنا ان هذه الرحلة كانت تعتبر ضائعة الى ان اكتشف الاستاذ السيد ابراهيم الكتانى نسخة منها بخزانة زاوية تامكروت وهى التى تحمل

---

1 – ص. 165 من هذه الرحلة .
2 – ص. 165 من هذه الرحلة كذلك .

رقم 124 من مخطوطات الاوقاف بالخزانة العامة وتقع فى 74 ورقة فى كل وجه 19 سطرا الى ورقة 53 حيث صارت السطور تزيد حتى بلغت 30 سطرا فى الورقة الاخيرة بخط دقيق .

ثم اقتنت الخزانة العامة بالشراء نسخة ثانية هى التى تحمل الرقم 2542 وهى بخط جميل وتقع فى 100 ورقة فى كل وجه منها 20 سطرا

ثم عثرنا على نسخة ثالثة فى الخزانة الملكية التى تضم من الذخائر والنفائس العربية المشرقية والمغربية ما سيكون له أثر عظيم فى التعرف على التراث العربى المجيد فى شتى مناحى الفكر

وهذه النسخة مسجلة تحت رقم 2326 وتحتوى على 107 ورقة بخط جميل وفى طرز هذه النسخة تصحيحات وزيادات قصيرة بخط المؤلف ادخلت كلها فى النسختين الاخريين الا ما كان من هذه العبارة بعد قوله سميته بالاكسير فى فكاك الاسير : ومن الله تعالى استوهب الفتح والتيسير فى المقام والمسير

هذا وقد اعتمدنا فى التصحيح على النسخ الثلاث ولا فرق بينها فى الغالب وقد ذيلنا حواشى هذه الرحلة بتعاليق تشرح الالفاظ العامية والاسبانية ونعطى فيها كذلك الموافقة بين التاريخين الهجرى والميلادى ونبين اسماء المدن والقرى التى مر بها او دخلها مع نبذ عن تاريخها وذكر المسافات بينها بالكيلوميترات الى غير ذلك من الفوائد المناسبة .

وقد نشرنا بعض الرسائل بخط ابن عثمان لها صلة بعلائق المغرب مع اسبانيا مع صور تتعلق بموضوع الرحلة اتحفنا بها الاستاذ النشيط السيد احمد المكناسى محافظ خزانتنا العامة بتيطاون وهو يحضر الان ترجمة اسبانية لهذه الرحلة شكر الله سعيه

وتسهيلا لمسايرة القارىء لابن عثمان فى رحلته اضفنا اليها خريطة من وضع ولدنا الاستاذ عبد الواحد حفظه الله .

وقد جعلنا في ختامها فهارس للاعلام التاريخية والجغرافية والمواضيع المطروقة في الرحلة والالفاظ العامية والدخيلة والله نسأل ان يوفقنا الى السير بهذه المجموعة سيرا محمودا حتى نبرز كل مخلفات أدبائنا في هذا المضمار الذي برزوا فيه وانتجوا آثارا جليلة تجمع بين المتعة الادبية والفائدة التاريخية وهو حسبنا ونعم الوكيل .

محمد الفاسي

بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

صاحبنا الحبيب علينا الأغر الأنجد وزير الدولة الاصبنيولية والأمير على [illegible] معا
الكند أراندة أما بعد فنعلمكم أن مولانا السلطان [illegible] المملكة العادل
فلذا أمور جميع أجناس النصارى الداخلة في مملكة سلطاننا العزيز
والخارجة في دولهم وممالكهم مبسوطا في ذلك مشتغلا بذلك الأمور وفي
تلك الأوان [illegible] لبعض الصلح والاجتماع [illegible] لبلاد الاصبانيول السلطان
الشهير دون كارلوس الرابع نحرص على أن ذلك [illegible] لتعلم بما تقدم وأيضا
في هذه المدة بصدق وإخلاص لجانبنا وجانبه وإنا الآن كثير الوداد
لفضله وكلامه ورعيته الاصبنيول أو يأتوا الى مراسي بلادنا من مراكبهم
في قضاء أغراضهم وجميع ما يريدون من بلادنا بأمان [illegible] وكذلك
[illegible] كثير [illegible] من بلادهم الى [illegible] ما أذن
به [illegible] رضي الله عنه ما مضى [illegible] الجليل محمد [illegible]
و[illegible] جميع ما [illegible] من الصلح في أشياء كثيرة تتم محبتنا معكم
[illegible] كثير [illegible] وأرجو أن [illegible] إن شاء الله [illegible]
عند [illegible] على بلادنا [illegible] جوابكم [illegible]
لا تهملوا الجواب [illegible] الباعث لنا على المكاتبة [illegible] والمحبة والمحافظة
على المودة ونحن على السير الجليلة [illegible] كثير [illegible] وكذلك
ان [illegible] يجب له عليه ونحن [illegible] على الدوام
والسلام كتب من [illegible] سابع ربيع الثاني عام ١٢٠٥

[illegible]

رسالة من ابن عثمان بخط يده للكند أراندة وزير كارلوس الرابع
ملك اسبانيا

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

يقول راجي رحمة الرحمان افقر الورى اليه محمد بن عثمان سامحه الله تعالى بمحض الامتنان وأسكنه بفضله دار رضوان

الحمد لله فاتح الابواب ، وميسر السعادة ، ومسبب الاسباب ، فقال تعالى فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه ، لمن أراد من خلقه نحمده سبحانه على نعمائه ونستوهبه من فضله مزيد آلائه ، ونصلي ونسلم على سيدنا ومولانا محمد أفضل من قصد القاصدون ويمموا ، القائل سافروا تصحوا وتغنموا وعلى آله الاطيبين ، وصحابته الاكرمين ، وبعد فانه لما كان مولانا الامام المجاهد الضرغام ، حامي بيضة الاسلام ، وظل الله على الخاص والعام ممن جبل على فعل الخيرات ، ومواساة أهل الحاجات والضرورات ، ذو الهمة التي سمت على ألاوائل والاواخر ، والمآثر التي تعجز عن حدها الاقلام والمحابر ، والعزم المصروف ، في كل ثغر مخوف ، سيدنا ومولانا الاجل ، الغيث الواكف المنهل ، بحر الشجاعة والندا ، الواسع الفضل لا الى مدا ، أمير المومنين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ، المنصور بالله سيدي محمد بن عبد الله ، نصره الله تعالى وأيده ، ومهد ملكه وشيده ، وأدام للفضل أيامه ، ونلفصل أحكامه . مولعا بتشييد ما اندثر من معالم الدين ، ناهجا في ذلك منهج الخلفاء الراشدين ، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين .

وكان ممن اختصه الله تعالى بالشفقة على عباده ، والسعي في الصلاح في أرضه وبلاده ، والبحث عن أسارى المسلمين ، الذين بأيدي الكافرين ، وقد

كان عند النصارى الاصبنيول (1) قبل هذا من أسارى المسلمين عدد كثير ، وجمهور غفير ، وكلهم من البلاد المشرقية مثل طرابلس وتونس والجزائر وعمالاتها ، فسرح الله تعالى جلهم على يده الكريمة لكرامتها عند الله وجلالتها ، وكنت ممن تفضل الله عليه بالانتظام في سلك خدمته ، وبالاستظلال في ظل سعادته ، فبعثني أدام الله ايامه ، ونصر أعلامه ، للبلاد الاصبنيولية والى عظيمها ، واصحبني ادام الله تعالى سعادته ، واهلك عدوه وكبته ، عشرة آلاف مثقال (2) من سكته ، ليأخذ كل اسير حظه من صلته ، خلد الله تعالى هذه الحسنة في صحائف اعماله وبلغه من فضله نتيجة آماله ، ولآتيه بما تيسر لنا من أسارى المسلمين ، فتوجهت راجيا من الله تعالى ان يكون لنا خير معين انه ولي ذلك ، والمانح لما هنا لك وسميته 'الاكسير في فكاك الاسير وقد رايت ان أقيد ما ابصرته في وجهتي واوبتي ، من المدائن والحواضر ، والقرى والمداشر ، وان لم أكن من أهل هذا الميدان ، ولا ممن له فيه جولان ، لاكنني رسمته لمن هو (3) مثلي بالقصور معترفا ولم يكن مستنكفا ، مستمدا من الله تعالى التوفيق ، الى سواء الطريق.

1 – الاصبليون أي الاسبان على تعبير المغاربة . وابن عثمان في هذه الرحلة كلها يكتب الاعلام الاجنبية التاريخية والجغرافية كما ينطقها المغاربة أو الاسبان وقد كان للغة الاسبانية تاثير كبير على لغة التخاطب بسبب الجوار والاتصال .

2 – المثقال عشر أواق والاوقية أربع وعشرون موزونة ـ والمثقال ايام سيدي محمد بن عبد الله كانت قيمته 29 غراما من الفضة بمعنى أنعشرة آلاف من المثاقيل تساوي من عملة اليوم تقريبا سبعة ملايين وخمسين ومائتي الف فرنك . الا ان قيمة الشراء للمثقال اذاك كانت أقوى من قيمة عملتنا اليوم .

3 – أي «لمن كان مثلي بالقصور معترفا»

ذكر دخولنا مدينة سبتة أعادها الله دار اسلام

كان توجهنا من عند مولانا المنصور بالله ، وهو في رباط الفتح ، حرسه الله في عشرين من شوال عام ثلاثة وتسعين ومائة والف (1) . فوصلنا سبتة في رابع ذى القعدة (2) من سنة تاريخه ، فنزلنا بظاهرها مع المجاهد في آشبار (3) وعمل قائد ءاشبار العلامة المعلومة عندهم حيث يريدون الكلام فخرج الترجمان في أثرها ومعه طائفة من عسكرهم من موضع تحت الارض خارجا عن سورهم من ناحية المسلمين يسمونه الغراب وعندهم منه خمسة صورة ذلك انهم حفروا تحت الارض حفيرا بابه داخل سورهم ، وسقفوا الأخدود المذكور بالقبو وجعلوا فيه طيقانا متعددات لادخال الضوء وحيث انتهى الاخدود المذكور جعلوا شكلا مربعا عمقه مقدار قامة الرجل وسقفوه بالخشب وتركوا بين السقف والارض مواضع لاخراج عدتهم وقد جعلوا هذه الاغربة خارجة عن سورهم مما يلي المسلمين ويأتون اليهم من داخل السور فاذا كانت الحرب يملاهم بعسكرهم فيضرب من تحت الارض بحيث لايراه احد

---

1 – الموافق 31 اكتوبر سنة 1779

2 – الموافق 13 نومبير سنة 1779

3 – آشبار لفظة بربرية وهي بتفخيم الباء وتطلق على المحل الذي يتخذه المقاتل درقة فى الحرب ويتكون من كوم من الاحجار مصففة يختفى وراءها ويصلي منها العدو بقذائفه وربما كانت من صخور طبيعية . تجمع فى البربرية على اشبورا وفي العربية على آشبارات . ولعل أصل هذه الكلمة من قول العرب تشابر الفريقان في الحرب تقاربا كأنه صار بينهما شبر . ومعلوم أن محل آشبار يكون قريبا جدا من العدو للتمكن من اصابته

دمـرهم الله تعالى (1) ولما خـرج ترجمانهم توجه اليـه تـرجماننا الـذى تـوجـه معنا وأخبـره بقـدومنا من عند سيدنا ومولانا امـير المومنـين ايـده الله قاصدين عظيم (2) الاصبنيول بأمره الشريف فـأخبر الترجمـان حـاكـم البلد ففـرحـوا فرحـا كبيرا وأخـرجوا من المدافـع عـددا كثيرا وكـان ذلك اليـوم يـومـا مشهـودا وكـان ذلك عشيـة فبتنا بـآشبار المسلمين مـع المجاهديـن وفرهم الله ومـن الغـد عنـد طلـوع الشمس خـرج النصـارى مظهـرين زينتهم ، حاملـين عـدتهم واسلحتهم فتأهبنا لمـلاقاتهم وركبت معنا الخيل التي بعث معنا سيدنا ومولانا وتقـدم أمامنـا رمـاة المسلمـين الذين هم في مقـابلـة العدو بقصد الحـراسة عـن أمـر مولانا المنصـور بالله وسـاروا معنـا الى قـرب السور وتلقانا أهـل سبتـة كبارهم وأعيانهـم وشيوخهـم وشبانهم ، ودخلنا المدينة من ناحية البحـر بعد ان دخلنا البـاب الاول والثاني ولمـا وصلنا الباب الذي هـو باب المدينة وجدنا دونـه حفيرا متسعا جـدا كثير العمـق أدخلـوا فيه البحـر وتجـوز فيـه المراكب الصغار فصارت سبتـة بذلك ، جـزيرة البحـر محيط بها من جميع جهاتها ووضعوا على الحفير المذكور قنطرة لهـا قـوسان بالبنيـان وجعلـوا مكان القـوس الثالث وهـو الـذي من ناحيـة المدينـة قنطرة من الخشب فى راسها سلسلتان وبـاب المـدينـة يتصل بالقنطرة والسلسلتان المذكـورتان أدخلوهما في الجـواز الذي فيـه الباب وربطوهمـا في دفـة أخـرى مرفـوعـة داخل البـاب فحيث يريدون

---

1 – كـل هـذه الدعوات على الاسبـان لاتنـم عن بغض عميـق ولا عـن حقد كبـير وانمـا هي صورة للتعبـير عـن العاطفـة الوطنية الاسلاميـة حيث يـرى ابن عثمان مدنـا من بـلاده تحت النفوذ الاجنبـى بـل المسلمـون في كـل قطر يتحسرون على فقـدان الاندلس نفسها . وابـن عثمـان رغـم اعجـابـه باسبـانيا وبما شاهده فيها أيـام كارلوس الثالث من نهضة صناعية وتمدينية ورغـم الحفـاوة المنقطعـة النظـير التى قوبـل بها فهو لا يفتـر يـردد الدعـوات ضد من يـراهـم مغتصبين لبلاده .

2 – يعبر ابـن عثمان بلفظة عظيم عـن الملك فعظيـم الاصبنيـول معناه ملك اسبانيـا

ان يرفعوا القنطرة بالليل يضعون الدفة المرفوعة بداخل الباب فترتفع القنطرة ، وتقف مع قوس الباب ويبقى الحفير حائلا بيننا وبينهم دمرهم الله وخذلهم .

ثم دخلنا المدينة فاذا أزقتها وسككها وسطوح ديارها مشحونة نساء ورجالا فسار معنا اعيان بلدهم الى ان وصلنا الدار التي اعدوها لنزولنا واحتفلوا فيها غاية كل ذلك اجلالا لمنصب سيدنا ومولانا

وقد ذكروا لنا قبل ان لا بد لنا من أن نجعل الكرنطينة (1) ومعناها عندهم ان يقيم الذى يرد عليهم في موضع معروف عندهم معد لذلك اربعين يوما لايخرج منه ولا يدخل اليه احد وسبب ذلك انهم يتحرزون ان يدخل الوباء ارضهم وبلادهم لتوهمهم انه في بلادنا اعاذنا الله منه ولم يكن عندنا شيء من ذلك فيجعلون تلك الكرنطينة احتياطا وقطعا للشك بحيث اذا كان في الوارد عليهم شيء من ذلك يظهر عليه في تلك المدة وان ظهر عليه شيء من ذلك فلا يدخل البلد وحين تكمل الكرنطينة ولم يظهر عليه شيء يأتي الطبيب ويقلب (2) من هو في الكرنطينة فان أخبر بأنه لاباس به يدخل المدينة ويتلاقى مع الناس والا فلا ومن جملة قوانينهم في ذلك أنه اذا تلاقى احد من اهل البلد مع الوارد الذى يرد عليهم من بلاد (3) مشكوك فيه الوباء يجلس معه في الكرنطينة حتى يكملها وبعد فراغه ينظره الطبيب ولهم في ذلك تشديد كثير حتى ان الذي ياتي الى صاحب الكرنطينة بالطعام يطرحه له من بعد ويحمله الآخر ولايتماسان وان ورد عليهم بكتاب ذكروا انهم يغمسونه في الخل بعد ان يقبضوه منه بقصبة وبعد ذلك يقرؤونه . ولهم في ذلك قواعد لا يكادون يخرمونها وموضع الكرنطينة المذكورة خارج عن المدينة بين الاسوار ونحن من مهابة سيدنا ومولانا وعلو قدره ومنصبه

---

1 – هي مدة الحجر الصحي من الاسبانية Cuarantena أي أربعين يوما .

2 – قلب بمعنى فحص وتستعمل كذلك بمعنى بحث وفتش

3 – بلاد جمع يراد به المفرد وهذا استعمال مغربى شائع وذلك نحو قبور ورياض وجنان واحواض وآفات أي قبر وروض وجنة وحوض وآفة .

لـم يجعلوا لنـا شيئا من ذلك فـأدخلونا المدينة وأنزلونا بـدار هي افضل ديارهم منسـوبـة الى طـاغيتهم (1) واخبرونا بهذا الخبر يظهرون مـراعـاة سيدنا ايـده الله والميـل الى جانبه الشريف واستجلاب خاطره ، وقـالـوا لنـا تجعلون الكرنطينة بهـذه الدار اربعة عشر يـومـا فقط على اعـين الناس، وليست هـذه الكرنطينة جـاريـة على قوانينهم لانـه في كـل يـوم يـاتـي الينـا كبارهم واعيانهم وحاكمهم ويجلسون معنا ويبحثون عـن مقضياتنا (2) ويتفقدون أحوالنا وعلامة صدقهم فيما ادعوه من جعـل المزيـة لنـا في ذلك اننا وجـدنا عنـدهـم نصارى اخـوانهـم وردوا مـن بـلادنا بـين أسـوار المدينة يجعلون الكرنطينة كما هي عندهم .

وقد كانت الدار التي كنا بها مشرفة على موضع متسع يسمونه البلاصة (3) ياتي اليها عسكرهم صباحا ومساء كل قائد معه اصحابه يؤدبهم ويعلمهم كيفية الحرب ومع كل قائد طبل فكل مايريد القائد من أصحابه من تقديم او تأخير او اسراع في المشي او غير ذلك يشير به الى صاحب الطبل وينقر لهم نقرا مخصوصا ويفهمون من ذلك ما يراد منهم وقد كنا عندهم في فصل الشتاء وما رأيناهم ابطلوا عملهم ذلك من كثرة الرعب الذي القى الله تعالى في قلوبهم من المسلمين مـع ان التحصن الذي في سبتـة ما اظنه مـوجودا في غـيرهـا فقـد جعلوا في مقابلـة آشبار المسلمين خمسة أغـربة على الوصف المتقـدم ياتي اليهـا عسكرهـم من داخـل سورهم من تحت الارض بحيث لايراهـم أحـد وهـم يـرون النـاس ويتمكنون من ضربهم ومن وراء ذلك بقـرب السور صفان من الخشب مركـوز في الارض مبني عليه يسمونه الرشق بـين الصفين المـذكـوريـن نحو ستـة أشبار ومـن وراء الرشق المذكـور خمسة اسوار او ستة ـ شككت ـ والاسوار

---

1 – اصطلاح المتأخريـن ويعنـون بـه ملك الامـم المسيحيـة .

2 – مقضياتنا أي حوائجنا وما نتوقف عليه ونريد أن يقضى لنا وييسر.

3 – البلاصة هي الاسبانية Plaza ولهـا معـان منهـا المحـل مطلقـا والميـدان الفسيح والسوق . وملعب الثـيران . والساحة تحيط بهـا بنايـات . والمقصود هنا الميدان الفسيح .

المذكورة متفاوتة في العلو وعليها المدافع وانما جعلوها متفاوته ليتمكنوا من الضرب من جميعها وبعد الاسوار كلهم الحفير الذي أدخلوا اليه البحر وبعده باب المدينة ومع هذا كله فهم في شغل شاغل ومشقه عظيمه من شدة الحراسة ليلا ونهارا فاذا اقبل الليل تشد الابواب كلها ويبقى حراسهم خارجين عن المدينة وكل سور داخله حراسة ويشد (1) عليهم بابه وقد رأيت بين كل سورين حبلا فيه ربيعة (2) صغيرة فسألت عن ذلك فقيل اذا حدث حدث بالليل خارج عن الاسوار وعن الرشق وأرادوا ان يعلموا الحاكم به فلا يمكن لاحد ان يدخل الى المدينة ولا تفتح الابواب بوجه من الوجوه ، ومن اجل ذلك جعلوا بين كل سورين حبلا طويلا فيه صندوق صغير فحيث يرى حراسهم أمرا يجب اعلام حاكمهم به من شان المسلمين يكتب الحراس الذين في السور الموالي للمسلمين بطاقة يعلمون فيها الحاكم بالواقع ويجعلونها في الصندوق وينادى على الحراس الذين في السور الذي بعده فيجذبون الحبل فيصل اليهم الصندوق فيفتحونه ويخرجون البطاقة ويجعلونها في الصندوق الذي بينه وبين السور الآخر ويفعلون جميعا هكذا الى ان تصل البطاقة الى المدينة ويبلغونها الحاكم ويامرهم بما يفعلون واما ابواب المدينة فلا تفتح اصلا وكل هذا حذرا من المسلمين وجزعا منهم فالحمد لله على ذلك ومع هذا كله فلم يكفهم ذلك فعمدوا الى وسط المدينة وحفروا حفيرا آخر

---

1 – شد في الاستعمال المغربي هي أغلق وأصلها من سد وان كانت شد بالمعجمة لها معنى يقارب الاغلاق في قوله تعالى «واشدد على قلوبهم فلا يومنوا حتى يروا العذاب الاليم» أي اختم عليها وكذلك يقال شد فلانا أي أوثقه .

2 – الربيعة صندوق صغير وهي فصيحة ومعناها العتيدة أي الصندوق الذي تجعل فيه العروس عطرها وما شابهه ولفظة العتيدة كذلك مستعملة عند المغاربة

أدخلوا البحر في نحو نصفه والنصف الآخر منجرة (1) للسفن وعلى الحقير قنطرة ايضا وبعد ذلك عمدوا الى رأس الجبل الداخل في البحر فبنوا في قنته قصبة لها اسوار وابراج محكمة ولا زالت الخدمة بها الى الآن وبنوا بداخلها دارا لعسكرهم كبيرة محكمة وفيها مطفية (2) لجمع ماء المطر في غاية الكبر ، وفي داخل القصبة ايضا دار فيها قبة في أعلاها وفيها مرآة كأنها الجايزة (3) من الخشب ولها رجل موكل بها يظل ويبيت هنالك يرصد المراكب التي تظهر في البحر ومن يظهر في البر من المسلمين وبنفس ما يرى المراكب يكتب للحاكم يعلمه بها وأما ما تزعم عامة الناس من أن البناء الذي يظهر في اعلا الجبل هو خلوة سيدي ابي العباس السبتي ، فليس بصحيح فليس هناك خلوة موجودة اليوم وجعلوا في ذلك الجبل طرقا ابتدعوها بالمعاول والخدمة فصارت تمر بها الاكداش(4) كانها فى السهل وكل ماذكر من التحصن لم تطمئن به نفوسهم من شدة ما ألقى الله تعالى من الرعب في قلوبهم ظفر الله بهم المسلمين وجعلهم فيئا وغنيمة لهم بمنه وكرمه وكما هي محصنة من ناحية البر محصنة من ناحية البحر فقد أداروا السور بجميع الجبل الداخل في البحر الا اذا كان موضع في الجبل صعب أمنع من السور

---

1 – المنجرة اسم محل من نجر ويستعمل في الاصطلاح المغربي للمحلات التي يصنع فيها كل ما يستدعي نجارة ونحوها كالسفن وماشابهها فالمنجرة ترادف الاصطلاح العربى دار الصناعة .

2 – المطفية أصلها النطفية من نطف الماء سال قليلا قليلا وهي مخزن يتخذ لجمع ماء المطر .

3 – الجائزة تنطق في العامية بالجيم المصرية فيقال كايزة وهي في الفصيح الجائز بالتذكير وهي الخشبة المعترضة بين الحائطين في سقف البيت .

4 – الاكداش جمع كدش وهو تعريب اللفظ الاسبانى Coche (كوتشي) اى العربة التي تجرها الخيل أو البغال .

فيكتفون بذلك وفيها من العسكر وقتئذ كنا بها ثلاث رخميمطس (1) ومعناه ثلاث أرحية (2) في كل واحدة خمس عشر مائه يجتمع أربعه آلاف وخمسمائـه وفي البحـر ثلاثمائة . وعندهم مائتان وخمسون ويسمونهم المسيات اربانــات (3) ليسوا من حساب العسكر وانما هم هنالك عن اذن عظيمهم ان احتاجـوهم الى حرب يعيسونهم ويقبضون الراتب وفيها من اهل الجرآئم والجنايات عـن بـلاد اصبانية الفـان اذ عادتهـم فيمـن يجـرم جريمـة مثل السرقـة وقطع الطريق او ماشاكل ذلك مما لايوجب الموت عندهـم ان ينفى الى سبته او مليليـه او وهران أو حجـرة النكور (4) ويجعلون له أجلا باجتهادهـم وبحسب جنايتـه فمنهم من يجعلون له عشرة سنين او أقل او أكثر وهؤلاء المجرمون . لا يحملـون

---

1 — بـالاسباني ينطـق رخمينطس وهـو جمـع مفـرده Regimiento وهـو الفيلـق وقـد ترجمه المـؤلف بالرحى . وفيـه تجـوز لان الرخمينط يتركب مـن عـدة آلاف من الجنود فهـو عـدة أرحيه. انظر التعليـق بعـده .

2 — أرحية جمـع رحى وهي في الاصطلاح العسكـري المغربي عبـارة عن الف جندي ما بـين فارس وراجل وتتركب الرحى مـن عشر كتـائب على رأس كـل واحـدة ضـابط يسمى قائـد المائـة ولـه خليفـة يسمى المتـوسط وتحت نظر كـل قـائد مـائـة أربعـة مقدمين كـل واحـد تحته خمسة وعشرون جنديا ورئيس الرحى يسمى قـائـد الرحى وهو بمثابة كولونيـل او جنـرال في النظام الحديث . انظر كتاب العـز والصولـة في معالم نظـم الدولة لمولاى عبد الرحمن بـن زيدان رحمه الله . المطبعة الملكيـة الرباط . 1382/1962 الجزء الثانى ص. 190 .

3 — بالاسبانى Milicias urbanas مليسياس اوربـاناس أي العسكـر البلدي والمغـاربة يقلبون عادة السـين في آخر الكلمات الاسبانية تـاء لذلك يقولون الخزيـرات لمدينـة الجزيـرة الخضراء التى تسمى بالاسبانية الخيسراس .

4 — حجـرة النكـور ـ هي جزيرة صغـيرة في البحـر الابيض المتوسط قريبة للشاطىء جـدا مقابلة لمدينة المزمـة . وكانت تدعى عنـد الفرنسيـين Albouzème من اللفظـة العربية المزمة وقـد حرفها الاسبان الى Alhucemas ومن هـذه اللفظـة اختـرع المغـاربـة اليوم كلمة الحسيمة التى لا أصل لها . وحجـرة النكور لا تزال الى الآن تحت النفوذ الاسبانى ولهم بها سجن كمـا كـان أيـام ابن عثمان . والريفيون ينطقون كافهـا شينـا

سلاحا عندهم وانما هم بقصد الخدمة وفي الليل يدخلونهم دارا كبيرة في سفح الجبل ويبيت عليهم الحراس لانهم لاتطمئن نفوسهم بهم ويحذرون منهم وربما يختارون من أهل الجرائم من له عراقة في النصرانية وتكون جريمته خفيفة فيعطونه السلاح وتجري عليه الكلف مع العسكر الا ان لباسه الاسود علامة على أنه مسجون وفيها من السكان خمسمائة وسبعون متأهلين بأولادهم وفيها من الطبجية (1) ثلاثمائة داخلة في حساب العسكر وعدد ديارها تسعمائة وثمانية وأربعون ، ومن الكنائس ثمانية ومن البلاصات أربعة ومعناها المواضع المتسعة واحدة يعمر بها السوق وثلاثة لعرض عسكرهم أذله الله وفيها سبع مخازن للكمانية (2) ودار كبيرة فيها من المدافع ثلاثمائة وخمسون ومن المهاريز (3) المركبة على قراريطها (4) خمسون ومع كثرة هذه الاقامة (5) والعدة والتحصن تبيت حرسهم يصيحون بالليل من شدة الفرق والرعب الذيخامر عقولهم استأصل الله شافتهم واسكت قامتهم (6) وطهر منهم البلاد

---

1 – الطبجية من الكلمات التركية القليلة التي تسربت للغة المغاربة ومعناها المدفعية وأصلها من طب المدفع

2 – الكمانية كلمة تركية كذلك ولكنها كانت قليلة الاستعمال وقد سقطت تماما اليوم من اللغة ومعناها في التركية ما يدخر من الماكولات وفي الاستعمال المغربي كانت مخصصة للمؤن والاقوات التي يصحبها معه السلطان وجيشه عند السفر

3 – المهاريز جمع مهراز والاصل مهراس بمعنى الهاوون التي تدق فيها الاشياء ويطلق على نوع من المدافع يقذف القنابل المستديرة لان شكله يشبه المهراس

4 – القراريط جمع عربي للفظة Carreta الاسبانية (كاريطة) وهي عربة ذات عجلتين لحمل الاحجار ونحوها .

5 – الاقامة من أقام الشيء أعده وهي تطلق على كل ما يحتاج اليه من مواد أولية لصنع شيء من الاشياء . فالاقامة لمواد البناء والاقامة للعتاد الحربى وحتى لاتفه الاشياء كالمواد الغذائية لتحضير طعام ومن هنا اسم النعنع لانه يقام به الشاي

6 – القامة مصدر قام فكأنه قال واسكت صياحهم عند قيامهم يصيحون بالليل من شدة الرعب على ماذكر

وفي مدة مقامنا بسبتة كان يرد علينا أسارى المسلمين الذين عندهم فقد وجدنا منهم هنالك ثلاثة وعشرين وكلما وردوا علينا يعلنون بنصر سيدنا ومولانا وكانوا يأنسون بنا وطلبوا منا ان نكلم عليهم الطاغية فقلت لهم سيدنا ومولانا امير المومنين لا يغفل عنكم وله غرض في سراحكم وسراح غيركم ونحن ان شاء الله بصدد ذلك فلتطب نفوسكم من بركة سيدنا ومولانا ، وما رأيت في سبتة من آثار المسلمين الا المنار وقد جعلوا فيه أعداء الله ناقوسا لاينقرون فيه الا اذا كانت الحرب وباب الكنيسة من عمل المسلمين رحمهم الله وبازائه منار صغير من عمل المسلمين أيضا وفيه حجر مكتوب فيه بركة محمد فسألوني عن تلك الكتابة فتجاهلت خشية ان يعلموا بالاسم الشريف ولا يومنون عليه ، وقد وجدت ايضا بسبتة رخامة كبيرة مكتوب فيها بالخط الكوفي مانصه «بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد وعلى آل محمد وسلم تسليما شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لااله الا هو العزيز الحكيم وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا حتى اذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين هذا قبر الامام عبد الله الناصر لدين الله (1) أمير المومنين رضوان الله ورحمته وبركاته عليه سلالة النبي المصطفى ولد فاطمة الزهراء خير البرية أبا واما عاش حميدا ومات شهيدا قدس الله روحه ورفعه في اعلا عليين وحشره مع جده محمد خاتم النبيين وفي يوم الاحد لليلتين خليا من ذى القعدة سنة ثمان واربعمائة (2) فرحمة الله عليه وعلى ابويه آمين يارب العالمين وصلى الله على محمد .» فرفعتها وغسلتها وطلبت من الحاكم ان يعطيني اياها فضن بها حيث علم أنها كانت على قبر

---

1 – علي الناصر لدين الله هو مؤسس الدولة الحمودية الادريسية التى تعتبر أولى دول ملوك الطوائف بالاندلس . والحموديون من بني عمر بن ادريس . والشريف الادريسي الجغرافي المغربي الكبير ينتمي للحموديين . وقد حكم الناصر لدين الله من سنة 399 هـ الى سنة 408 هـ (1009 م ـ 1018 م) .

2 – الموافق 23 مارس سنة 1018 ميلادية

احد ملوك الاسلام لانني لما قراتها سمعني ترجمانهم وأخبره فراودته كثيرا فوعدني ان يبعثها الى طنجة فكتبت لحاكمها أن يقبلها منه ان صدق . وهاذا السلطان هو علي بن حمود بن ميمون بن علي بن عبد الله بن عمر ابن ادريس بن حسين بن حسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو أحد ملوك الطوائف الذين كانوا بالاندلس لما انقرضت خلافة بني أمية منها على عهد هشام المؤيد وذلك أنه لما توفي الحكم بن عبد الرحمن المستنصر بالله ولي ولده هشام المؤيد الخلافة وهو صغير ابن اثنتي عشرة سنة وعليه انشقت عصى الامة عقد له البيعة أبو عامر محمد بن ابى عامر (I) وجرت عليه حجابته وحجابة ولديه من بعده الى ان مضى لسبيله ولم تتحقق وفاته وهو محمد بن ابي عامر المعافري الملقب بالمنصور صاحب السياسة الشهيرة والغزوات العظيمة التي دوخ بها البلاد وراع الاقطار وسبى المدن ذكر انه انصرف من غزوة سمورة بتسعة عشر الف راس من السبى ولما توفي ولي الحجابة ولده المظفر عبد الملك واقتفى بسيرة أبيه في الجهاد والفتوحات العظيمة ، ثم توفي منصرفا من غزوة سانجه بن غرسية ملك جليقة في صفر سنة تسع وتسعين وثلاثمائة (2) وتولى أمره أخوه عبد الرحمن الملقب بشنجول ثم قتل لما وثب ابن عبد الجبار بالخلافة وانقضت الدولة العامرية وانقضت بانقضائها دولة الجماعة وذلك بسبب الحاجب المنصور ابن ابي عامر المذكور حيث حجب هشاما المؤيد وضرب على يده وكان اذا سافر يوكل بالمؤيد من يفعل معه ذلك وأخذ مع ذلك في قتل من يخشى منه من بني امية خوف ان يثوروا به ويظهر أنه يفعل ذلك

I – المنصور بن أبي عامر هو الحاجب الكبير الذي جدد سلطة الخلافة الاموية بالاندلس واشتهر بدهائه ومحبته للجهاد وشهامته وحسن سياسته مع الشجاعة والاخلاص . وترجمته معروفة وقد توفي بمدينة سالم عند رجوعه من احدى غزواته ببلاد قشتالة وذلك سنة 392 هـ . (I002 م) .

2 – شهر صفر سنة 399 هجرية ابتدأ يوم 5 أكتوبر وانتهى يوم ثاني نومبر سنة I008 ميلادية .

شفقـه على هشام حتى أفنى من يصلح منهـم للولايـة ثـم فـرق باقيهـم في البـادية وأدخلهم زوايا الخمول عاريـن من الطريف والتـلاد وربمـا سكـن بعضهم البـاديـة وترك مجلس الابهـة وناديـه قال بعض من ينقم على المنصور ذلك الفعـل مـن قصيـدة [كـامـل]

أبنـي أمـيـة أيـن أقمـار الـدجـى منكـم وأيـن بـدورهـا والكـوكب
غـابت أسـود منكـم عـن غـابهـا فلـذاك حـاز الملـك هـذا الثعلب

ثـم المتوثب الملقب بالمهدي هـو محمد بن هشام بن عبد الجبار بـن عبـد الرحمن الناصر لـدين الله ولمـا توفي عبد الملك بن أبي عـامـر وخـرج أخوه عبد الرحمن الى غـزاتـه وخلي البلاد من الجند وثب فملك القصر وأخـذ بيعة النـاس لنفسه وبلـغ الخبر ابن أبي عـامـر فقتـل لمـا خـذله الناس ولمـا استوثـق امـر المهدى اظهر جنازة (I) ادعى أنها جنازة هشام وخـالف اوامـره عسكـر البربـر ونافـروه وبايعـوا سليمان بن الحكـم بـن عبد الـرحمـن الناصر ، واستعان الجلالقـة ثـم قصد قرطبة ونزلهـا ولم يطق المهـدي مدافعته فـاتقاه بالانخـلاع وأخفى نفسه الى ان لحق بطليطلة واستجاش جمـع الروم وزحف الى قرطبة فكـان لـه الظهـور على سليمان وجمع البربـر فاقتربـوا الى احـواز الخضرا (2) وخيموا بوادى ياروا (3) يريدون الجواز الى بلادهـم ، وتبعهم المهدي عقب الظهـور عليهم فاستبصروا في حـربـه ونصرهم الله عليـه وهـزموه أقبـح هـزيمة وتبعوه الى قـرطبة وحاصروه فاختلت حـاله واعملت عليه الحيلة فقتل واخـرج هشام المؤيـد للناس فلـم يستقـم الامر واستولى الامـر سليمان بن الحكـم أميـر البربـر على الخضرا ثـم انبـرا لـه علـي

I – الجنازة بالكسر وتفتح هي الميت ويقصـد بهـا هنا جثة الميت وتطلق كذلك على السريـر الذي يحمل عليه الميت لدفنه وكذلك على الذين يشيعونـه .

2 – أي الجـزيرة الخضراء وهي المعروفـة اليوم باسم Algeciras .

3 – Guadiaro وهـو نهـر ينزل من نواحي أنـدة ويصب في البحـر المتـوسط على بعـد نحـو الثـلاثـين كيلـو متـرا مـن شمـال الجزيرة الخضراء

ابـن حمود المذكـور يقال ان هشامـا المحجـوب لمـا شعـر بالهـلاك خاطب ابن حمـود صاحب سبتـة يستنصر بـه ويقلـده دمـه والطلب بثـاره ويقضي اليه بعهـده لانـه كـان أجاز البحـر من العدوة الى الاندلس مع البـربـر فتحرك سنة خمس وأربعمائة (1) فبرز اليه سليمان بن الحكم فانهزم سليمـان وتقبض عليه وعلى اخيه وسيقـوا الى علي بـن حمود فضرب اعناقهم بيـده وفاء لهشام وتمت البيعة لعلي بن حمود وكـان فظا شديدا اغتالته صبية من ممالكـه الصقالبة في الحمام فقتلوه غـرة ذى القعدة من سنة ثمان واربعمائة (2) وتولى امـرهم من بعده اخـوه القاسم ثـم نازعـه يحى بـن علي بـن حمـود وكـان على سبتـة بوفـاق من بربر قرطبـة واجتمـع الموالى العامـريـون بشرق الاندلس على مبايعـة عبد الرحمن بـن محمد الملقب بالمـرتضى وتحركوا بـه فنزلوا غـرناطـة وبها امـير الصناهجة وناجـزهم الحـرب فهزمهم وقتـل الخليفة المرتضى ولمـا اعى الناس نـزاع بنى حمود بقرطبة بايعـوا مـن بقـايـا المروانية أبا المطرف عبد الرحمن بـن هشـام بـن عبد الجبـار وكـان تقيـا ذكيا بارعا اديبـا ولم يكن الا ان نقـم عليه العامـة ايـواء طـائفة من البـربـر فـوثبوا بـه ولـم يشعـر حتى قتل ، فبايعوا ابـن عمه المستكفى وهـو محمد ابن عبد الله بـن الناصر عبد الرحمن فلـم يضطلع بالامـر وأخلد الى الـراحة وضعف امـره واتفق المـلا على خلعـه فخـرج على وجهه مستترا فهلك بحصن اوكاش (3) وكانت دولته سبعة عشر شهـرا ثم بعده هشام بن محمد من ولـد الناصر كان مقيما بحصن القنت (4) لجـأ الى اميره عبد الله بن قاسم الفهـرى

1 – الموافقـة لسنتي 1014 – 1015 من التاريخ الميلادي
2 – الموافقـة لسنتي 1017 ـ 1018 من التاريخ الميلادي
3 – حصن أوكاش لم يبق له أثـر اليوم باسبانيا وكذلك حصن ابـن الشرف المذكور بعـده .
4 – حصن القنت كان هذا الحصن يشرف على مـدينـة ألقنت وهـو المسمى اليـوم : Castillo de Santa Bárbara . أمـا القنت فهـي مرسى على البحـر المتوسط بـين مرسيـة وبلنسيـة . والاسـم وان كـان يظهـر عليه أنـه اسم عربى فانه في الحقيقة تعـريب للاسم اللاتيني Lucentum .

بويع لـه بقرطبه سنة ثمـان عشرة واربعمائه (١) ولقب بالمعتمد وتقلب الأمر في شان الشيخوخـة ثـم اجتمـع المـلا على خلعـه ثـم أخـرج الى حصن ابـن الشرف وانتهى الى هـذا العهد أمـر بني مروان بالاندلس فهـذا غايـه ما يمكـن في الاختصار ومـن أراد الاطنـاب فعليـه بموضعه

وأقمنا بسبتة سبعة وعشرين يوما لانهم بعثوا الى طاغيتهم حيث دخلنا بلادهم واعلموه بقدومنا من عند مولانا المنصور بالله متوجهين اليه واستأذنوه في المركب الذى يحملنا وفي أى مرسى يكون نزولنا فعين مركبين من مراكب البحر فيها ستون مـدفعا واعتد فيهما بـأنواع الزينة في زوارق وفرش وغير ذلك مما لا مزيد عليه وقبل ورودنا على سبتة بلـغ خبرنا الطاغيـة باننا متوجهـون من سلا الى قالص (2) فبعث امـره الى قالص بملاقاتنا واكرام مثوانا وعـين دارا منسوبـة له لنزولنا في غـاية الكبر فلمـا ورد عليـه الخبر مـن سبتـة بقدومنـا جـدد الامـر الى قالص بالتـاكيـد عليهـم في الامـر الاول وورد علينا المـركبـان الى سبتة وأقـامـوا بمـرساهـا ثـلاثـة أيـام ينتظرون الريـح الشرقي التي تساعـدنا ونزل من السفينتين المذكـورتين رؤساؤها وسلمـوا علينا وما زالوا يتعاهدوننـا صباحـا ومساء ، وفي يـوم الجمعـة وهـو مهـل ذي الحجـة تحـرك ريح شرقي فقدم علينا الرئيس وأعلمنـا بذلك لنـاخـذ في الاستعـداد للركـوب في السفينة فـأخذنا أهبتنا وبعـد صلاة المغـرب من اليوم المذكور قـدم علينـا الرئيس وحـاكـم البلد وأعيانها و وجوه عسكـره

I – ابتدأت سنة 418 يوم السبت II فبراير سنة 1027 وانتهت يـوم الثلاثـاء 30 ينايـر سنة 1028 .

2 – هكـذا يسمي المغاربـة مدينة قادس Cadix وهـي مـدينـة على المحيط الاطلسي جنوبي الجزيرة أسسها الفنيقيون وسموها كادير وهو نفس الاسم البربري لمدينة اكدير بالمغرب والاصل سامـي ويقابله جـدار في العربية والمعنى الاول مايحيط بالشيء ليحفظـه ومنه صار «حصنا» و «مخـزنـا» استرجعها الاسبان سنـة 1262 وهي مقـابلـة لطنجـة .

وتوجهوا معنا الى المرسى فوجدنا فلوكة (1) معدة لركوبنا وفلايك أخرى لمن كان معنا فودعنا حاكم البلد واهلها وتوجهنا الى المركب فاذا به موقود من الشمع عدد كثير واخرجوا آلات لهوهم وطربهم وجميع من بالسفينة يعلن بنصر سيدنا ومولانا أمير المومنين فطلعنا الى السفينة وأدخلنا رئيسها الى الموضع المسمى بالقامرة (2) بعد ان احتفل فيها كل الاحتفال من أنواع الديباج والزينة بما لامزيد عليه فرجع من السفينة من صحبنا من أعيان سبتة واخذ الرئيس في حمل مخاطيف (3) المركب والاستعداد للسفر وحيث بقي لنصف الليل ثلاث ساعات اطلق القلع (4) وسافرنا فلما توسطنا البغاز (5) مجمع البحرين سكن الريح فبتنا طول ليلتنا ونحن نحاول ان نخرج من البغاز الى البحر الكبير فلا يمكننا ذلك لان البحر الكبير يدخل منه الماء الى البحر الصغير فيرد المراكب ولا تخرج منه الى البحر الكبير الا اذا كان ريح عاصف وتحرك مع ذلك ريح غربي فردنا الى سبتة فاقمنا بمرساها اربعة ايام ويوم الخامس تحرك ريح شرقي فتاهبنا وحيث مضى الثلث الاول من الليل سافرنا بريح طيبة ومن الغد وصلنا قالص بعد الظهر

---

1 – الفلوكة هي الزورق وأصلها من العربي الفصيح الفلك بالضم ثم السكون .

2 – القامرة كلمة اسبانية هي Cámera في اللغة القديمة ومنها الكلمة المغربية و Cámara اليوم وهي الحجرة والقاعة والمكان الرفيع في المنزل والمغاربة يخصصون هذه اللفظة للغرف الفاخرة في البواخر .

3 – المخاطيف جمع مخطاف وهو في اصطلاح المغاربة المرساة .

4 – شراع السفينة وفي الفصيح يقال قلع بالكسرة ثم السكون وجمعه قلوع وقلاع .

5 – البوغاز يكتب بالواو وهي كلمة تركية معناها في الاصل الحلق واستعيرت للمضيق اى مجرى الماء الضيق في البحر بين قطعتين من الارض كمضيق جبل طارق بين المغرب واسبانيا .

دخولنا مدينة قالص اعادها الله دار اسلام

وحيث أشرفنا على المرسى خرج صاحب المرسى الموكل بها في فلوكته ينظر المركب الوارد على عادتهم في كل من يرد عليهم من المراكب فلما وصل الينا عرفناه وعرفنا من قبل مولانا المنصور بالله لكونه كان أسيرا عنده فامتن عليه وسرحه وكان ممن له بال وشان عند قومه وهو أحد أحد الوزراء فرحب بنا وأظهر من الفرح بقدومنا ما أظهر ورجع في الحين الى حاكم قالص وأخبره بقدومنا عشية نائبا في السلام عن الحاكم ويقول أردناكم ان تبيتوا الليلة في المركب لان الليل قد أقبل ومن الغد ناتي اليكم بالفلايك وتدخلون المدينة ضحى لان الحاكم أراد ان يستعد لملاقاتكم كما أمره عظيمه فأجبناه الى ذلك لما رأينا من المشقة في النزول من المركب ليلا فبتنا في المركب وفي الغد ورد علينا صاحب المرسى بفلايكه بعد أن زينها فركبناها نحن واصحابنا وأخرج حينئذ صاحب المركب جميع مابه من المدافع وقصدنا المدينة واذا بهذه المرسى في غاية الكبر وفيها من المراكب في الوقت ما ينيف على الخمس مائة مركب وقد ذكر لى أن المراكب قليلة بها اليوم من اجل الحرب (I) الذى بين الانجليز والصبنيول وكل مركب من المراكب المذكورة طلع أهله على الاحبال وظهر المركب وجعلوا يرفعون اصواتهم بذكر مولانا المنصور بالله والدعاء له بالنصر أدام الله تعالى وجوده وعرفني بذلك بعض اصحابنا الذين لهم معرفة باللسان العجمي ، فلما وصلنا المدينة وجدنا على ساحل

I – كان السبب البعيد لهذه الحرب هو ان انكلترا كانت استولت على جبل طارق في جنوبي اسبانيا سنة 1704 وكان الاسبان يرون في الانكليز العدو الذي يجب القضاء عليه . لذلك كانوا يحالفون كل الدول المعادية لانكلترا . وهكذا ساعدوا الامير كان في حرب استقلالهم عسى ان يسترجعوا جبل طارق ولما كانت انكلترا في حرب مع فرنسا سنة 1797 بعد الثورة الفرنسية تحالفت اسبانيا مع فرانسا ضدها وهذه هي الحرب التي يشير اليها ابن عثمان هنا . وقد انهزمت فيها البحرية الاسبانية .

البحر الحاكم والقاضي وكل من له وظيف او خدمة عند سلطانهم والعامة رجالا ونساء حتى لم يمكننا المشي من كثرة الازدحام حتى أعيا الحاكم امرهم فأدخلنا موضعا بباب المرسى مشرفا على البحر فاستعد لسيرنا وقرب الاكداش لركوبنا حتى وصلنا دار نزولنا المعينة بأمر عظيمهم فاذا هي دار عظيمة في غاية الاتقان والجودة وقد احتفلوا فيها غاية الاحتفال ودخل معنا كافة أعيان البلد والحاكم الى الموضع الذى انزلونا به وورد قائد العسكر بخمسين من الشلطاظ (1) اوقفها بباب الدار للحراسة ودفع عامة الناس بأمر عظيمه ، فحينئذ أخذ الحاكم في السلام علينا ، وقد اظهر من الفرح والسرور بقدومنا ما تجاوز الحد وقال قد طال انتظارنا اياكم ورسل الطاغية تترادف بالتاكيد على القيام بحقوقكم وأقبل اهل المدينة للسلام علينا أفواجا والحاكم واقف يعرفنا بهم حتى سئمت . فلما أحسوا بذلك قالوا انك قد لقيت من السفر تعبا ونحن نخرج عنك لتستريح لهذا الموضع لملاقاة الناس فاسعفتهم جبرا لخواطرهم ففعلوا ذلك بقية يومهم ومن الغد كذلك وورد علينا الخزندار (2) الذي بيده الدخل والخرج وسلم علينا وقال ان عنده امرا من عند عظيمه أن يكون عند أمرنا فيما نامره به وينفذ جميع مئاربنا ، وكلما يظهرون من الفرح والبشاشة يقولون ان هذا قليل في جانب سيدنا ومولانا امير المومنين فأجبت الخزندار بأن الله تعالى أغنانا بسيدنا ومولانا فلا نتوقف على شيء والذي اريد منكم هو أن تعزموا ببعثنا الى عظيمكم حتى أنفذ اوامر سيدنا ومولانا فليس لي أرب في غير

---

1 – أي العساكر والكلمة اسبانية وهي فيها بالسين هكذا Soldado والكلمات الماخوذة قديما عن الاسبانية تنطق فيها دائما السين شينا لان ذلك كان نطق الاسبان أنفسهم وقد تطور في القرون الاخيرة . فقد كانوا يقولون شلية لما ينطقونه اليوم Silla وهي الكرسي .

2 – الخزندار كلمة تركية أصلها من العربية ومعناها «صاحب خزانة المال» وهو الامين في الاصطلاح المغربي

ذلك ، وورد علينا خليفة حاكم مدينة سنط مرية (I) بينهـ وبين قـاـص ثلاث ساعات وربع فسلم علينا نائبا عن صاحبه واعتذر عن عدم قدومه بألم أصابه منعه من القدوم علينا فبعثه نائبا عن صاحبه وبعث امره الى حاكم قالص يؤكد عليه بالقيام في أمورنا اجلالا وتعظيما لسيدنا أيده الله لان حاكم قالص عند كلمة حاكم سنط مرية لانه أكبر منه ويقال له القبطان (2) ويتصرف في عدة مدائن منها قالص وغيرها وقد بذل حاكم قالص المجهود في اكرامنا والبرور بنا والتنويه بقدر سيدنا ومولانا مما تجاوز الحد . ومن جملة اكرامه ايانا ان هيئوا دارا بالقرب منا للفرجة تسمى الكميدية (3) وطلبوا منا ان أتوجه اليها حتى انظرها فامتنعت من التوجه اليها وراودونا مرارا فأبيت فورد علينا نصراني له معرفه بنا لكونه كان أسيرا عند سيدنا ومولانا وله كلمة عند قومه وهو صاحب المرسى وأخوه وزير الهند فقال لي ان الحاكم وأهل البلد صنعوا هذه الفرجة بقصدك اكراما لك وتعظيما لسيدنا المنصور بالله وقد صرفوا عليها مالا كثيرا وليس هذا وقت صنعة هذه الفرجة وانما جعلت اليوم بسببك فلا يمكن لك الا ان تجيبهم وتسعفهم ، فبينما نحن كذلك اذ اقبل الحاكم والقاضي واعيان البلد يستدعوننا ، فما أمكنني الا ان توجهت معهم فاذا بدار عظيمة لها أربع طبقات ، وقد اوقدوا فيها من الشمع ما لا يعد ولا يحصى وأصحاب آلات الطرب والموسيقى في سفلي الدار وقد هيئوا لنا موضعا في احدى الطبقات مقابلا للموضع الذي يكون فيه لعبهم وطربهم وشاهدنا من العجب في تلك الدار مالا يمكن وصفه من أنواع التصاوير والبناآت والحيوانات التي تخيل للناظر كأنها قائمة الذات

I – سانطا مارية (اي القديسة مريم) وهو مرفأ مهم يسميه الاسبان Puerto de Santa Maria أو El Puerto مختصرا . وهو على الضفة اليمنى لوادي لك . بينه وبين قادس نحو أربعين كيلو ميترا .

2 – كلمة اسبانة Capitán ومعناها الرئيس وهي مشتقة من كلمة Caput اللاتينية أي الرأس ولها استعمالات عسكرية وادارية كثيرة في اللغة الاسبانية .

3 – كلمة اسبانية Comedia من معانيها المسرح وهو المقصود هنا .

ومـن آلات الطرب والرقص مالا يكيف فجلست معهم شيئا ما وانصرفت الى الدار التي نحن فيها ، ومن الغـد توجـه بنا أعيـان البلد الى مـوضع يقال له الطرى (1) وهو مثل الصومعة فطلعنا اليـه فـاذا فيه مـرآة عظيمة جعلوا لها قـوائـم موضوعـة عليهـا لانـه لا يقـدر ان يحملها واحـد بيده ومعهـا رجل موكل بها ساكن بالمنار المذكور بقصد ان يراقب المراكب التي تظهـر في البحر فيراهـا عـن بعد كـأنها أمـامـه فبنفس ما يرى مـركبـا عـدوا أو صديقـا يكتب بطـاقة مضمنها أنـه رأى مـركبـا مقبلا مـن الناحيـة الفلانية عـدد مدافعة كـذا والغالب أنـه يذكـر ان المركب من الجنس الفلانـي لكونـه لـه معـرفـة بذلك ويبعث الورقـة لصاحب المرسى ليكـون على بصيرة مـن أمـره فـأشرفنا على قالص من المنار المذكـور فـاذا هـو مدينة كبـيرة حسناء بناؤها كلـه بالحجـارة المنجورة ولسائـر دورهـا شبابيك مـن الحديـد وقـايـة لسراجيب (2) الزاج (3) داخلها وسككها في غايـة الاستقامة مرصفة بالحجارة

---

1 – Torre بالاسبانية وهو البرج وجمعه طريس .

2 – السراجيب جمع سرجب وهـذا النطـق عامي أمـا في كتب الادب والتاريـخ التى وردت فيها هـذه الكلمة فهي بالشين ومعناهـا النافـذة وأصلهـا من الفارسية جهـار جـوب ويظهر أنها غـير معروفـة في الشرق لانني رأيت الاستاذ عـز الديـن التنوخـي يقـول في نقد له لكتاب المغرب في حلى المغرب لابـن سعيد المغربي (مجلة المجمـع العلمي العربي المجلـد 30 الجـزء الاول ص. 169) هـذه العبارة «وهنـاك ألفاظ غـير بينة الدلالـة وكـان على النـاشر شرحهـا مثال لفظـة (شراجيب) الواردة في الصفحـة (14/293) (اكثر شراجيبهـا منقوشة مذهبة تخطف الابصـار) ، والشرجب في لغتنا الفصحى الطويـل ، وهـو أيضا نعت الفرس الجواد ، فالشراجيب غـير بينـة المراد» مـع أن دوزى ذكـر في ذيله على المعاجم العربية أن هذه الكلمة من العاميـة السوريـة وهي لا تزال مستعملة ولعلهـا سقطت اليـوم مـن الاستعمـال الشامـي. وللمعتمـد بـن عبـاد مـن قصيـدة وجههـا لابـى بكـر بـن عمـار

الاحـي أوطـاني بشلب أبـا بكـر وسلهن هل عهد الوصال كما أدري
وسلم على قصر الشراجيب من فتى له أبدا شـوق الى ذلك القصـر .

وفي قـلائـد العقيـان وصف رائـع لهذا القصر

3 – هو الزجـاج وقد اختصره المغاربة الى زاج وابـن عثمـان كثـير الاستعمال عند الكلام على الشؤون العاديـة للكلمات الجـاريـة على الاسـن .

على كبرها وفي جميع أزقتها المصابيح معلقة المسماة بالفنار (1) وتسرج بالليل وفيها من الحرف والصنائع ماشئت الا ان أزقتها منتنه الرائحه لان الماء المضاف الخارج من الكنف جار على وجه الارض في وسط الطريق حتى ينتهى الى البحر .

وكان مقامنا بقالص يومين لانه كان مطر غزير وفي اليوم الثالث تأهبنا للسفر فأخذ الحاكم يثبطنا خشية من كثرة الامطار وشدة البرد فأبيت فراودني على ذلك كثيرا فقلت لاراحة عندنا الا اذا نفذنا أمر مولانا وسيدنا فلما رأى تصميما على السفر اعتد لذلك غاية الاستعداد فأحضر الاكداش والبغال التي تكفي وكان ذلك يوم الثلاثاء ثاني عشر ذي الحجة سنة ثلاث وتسعين ومائة والف (2) فركبنا وسرنا فاذا بالمدينة كلها متأهبة لتشييعنا والحاكم وأعيان بلده فشيعونا ورجعوا وانصرفنا فلما خرجنا عن باب المدينة فاذا بحفير كبير جدا مبنيا بأوثق بناء وعليه قنطرة من خشب لها حركات وسلاسل ترفع وتوضع بها وحين خرجنا من المدينة اخرجوا عددا كثيرا من المدافع ومشينا في أرض والبحر عن يميننا وعن يسارنا مقدار ساعة عرض الارض المذكورة شأوفرس ، وربما يقرب البحر عن اليمين وعن الشمال حتى لايبقى الا الطريق المرور عليها فقالص حينئذ جزيرة في البحر ولها اتصال بالبر بهذا المقدار القليل فاذا رفعوا القنطرة المذكورة التي بالباب المتصل بالبر بقوا منقطعين وليس لهم باب غيره لان البحر محيط بها من جميع جهاتها ، وهذا المقدار القليل من البر المتصل بقالص كله خلجان يتخلله البحر والطريق المارة من قالص الى البر الكبير مصنوعة بالبناء المحكم مرتفعة عن الارض بنحو ثلاث قامات في عرض نحو

---

1 — الفنار في المغرب ما يعبر عنه بالفانوس بالمشرق وهو مشكاة تصنع من قصدير وجوانبها من الزجاج ويجعل بداخلها مادة منيرة غالبا الشمع والكلمة ماخوذة من الاسبانية Fanal وأصلها من اليونانية فانوس التى استعيرت لنفس المعنى بالمشرق .

2 — الموافق 21 دجمبر سنة 1779 ميلادية .

ثلاثين شبرا وأزيد وجعلوا للطريق المذكور أقواسا عن يمين المار وشماله لانه ربما يصل البحر اليها وقت هيجانه فاذا علاها يخرج من الاقواس المذكورة وكذا ماء المطر واستمرت الطريق المذكورة بالبناء كما ذكر الى مدينة ليزله ذى اليون (1) بينها وبين قالص ساعة بالسير الحثيث

وخولنا مدينة ليزله ذى اليون أعادها الله دار اسلام

فدخلناها فاذا هي مدينة صغيرة بهية المنظر بناؤها في غاية الاحكام والاتقان سككها منفسحة مرصفة في غاية النظافة واللطافة فتلقانا اهلها نساء ورجالا واظهروا من الفرح والسرور ما أظهروا ومشوا معنا مشيعين الى أن حرجنا عن مدينتهم ورجعوا ، ولما تجاوزنا المدينة بقليل اعترضنا زقاق من البحر عليه قنطرة بالبناء المحكم فعبرناها وسرنا الى مدينة يقال لها البويرط ذى الريال (2) وهي مدينة أصغر من مدينة ليزله ذى اليون المتقدمة وبقيت عن يميننا عن بعد مدينة تكلانة (3) وعن يسارنا الكراكة (4) وهي جزيرة في البحر محيطا بها من جميع جهاتها وفيها منجرة المراكب والسفن والزقاق الخارج من البحر الذي عليه قنطرة البناء المتقدمة مار الى ناحية مدينة تكلانة فخرج منه طرف الى ناحية تكلانة المذكورة والزقاق خارج الى

---

1 – بالاسبانية Isla de León وهي مدينة مرت بها احداث تاريخية سنة 1810 ابان حرب الاستقلال وقد كانت ملجأ للمجالس النيابية الاسبانية فلما تم الانتصار على نابليون أطلق عليها البرلمان الاسباني اسم سان فرنانده San Fernando الذي تحمله الان . ويقطنها اليوم اكثر من اربعين الفا من السكان . وهي تبعد عن قادس بخمسة عشر كيلو ميترا

2 – بالاسبانية : Puerto Real (اي المرسى الملكي) وهو محل اصطياف وسباحة بينه وبين قادس نحو ثلاثين كيلو ميترا

3 – بالاسبانية Chiclana وهي مدينة النور (خيطانوس) ولها شكل عجيب بدورها المبيضة بالجير وتبعد عن قادس بأربعة وعشرين كيلو ميترا .

4 – بالاسبانية La Carraca وقد وصفها ابن عثمان بتدقيق .

البحر ومن اجل ذلك سميت مدينة ليزلة ذي اليون لان معنى ليزله الجزيرة لان هذا الزقاق حاز ليزله ومدينة قالص وما بينهما الى البحر وتاتي المراكب الصغار من ناحية الكراكة وتطلع في الزقاق المذكور ويمرون تحت قنطرة البناء ويقصدون مدينة تكلانة فيحملون منها جميع الخضر والفواكه الى الكراكة وقالص وليزلة لان قالص ليس بها شجر ولا ثمر ولا خضر الا ما يجلب اليه حتى حجر البناء والجير يجلب اليه وكذا الماء يجلب اليه من مدينة البويرط ذى سنط مرية (1) الآتى ذكرها يحمل في المراكب في البحر وليس بقالص ماء يشرب الا ما يجتمع من ماء المطر ويجلب اليه من المدينة المذكورة ، وأما ماء الآبار فقد ذكر أنه اجاج ومع هذا فكل شيء موجود في قالص لانها بلاد كبيرة مقصودة للتجارة وجميع الصنائع والحرف

وسرنا قاصدين البورط ذى سنط مرية فتعرض لنا الوادى (2) المنحدر من مدينة خيرز (3) الآتي ذكرها فدخل في البحر وجعلوا عليه قنطرة من الخشب غريبة الشكل عديمة المثل مؤسسة على صوار جعلوها في وسط الماء عن يمين القنطرة ويسارها وجعلوا تحت القنطرة عدة مراكب مرساة بالمخاطيف والاحبال الغلاظ وضربوا عليه القنطرة وقد اخبرنى من له خبرة بذلك ان البحر اذا عظمت أمواجه وكثر هيجانه فيخشى ان يعلو القنطرة يطلقون الاحبال شيئا ما للمراكب المؤسسة عليها القنطرة فحيثما ازداد الماء في العلو يحمل

---

1 — بالاسبانية Puerto de Santa Maria (اي مرسى القديسة مريم) وهي مدينة يقطنها اكثر من ثلاثين الفا من السكان على الضفة اليمنى من وادى لك وهي تبعد اربعين كيلو ميترا عن قادس كما تقدم .

2 — هو وادي لك (Guadalete) وهو يأتي من أبعد من شريش أي من ناحية مدينة بني سليم (Grazalema).

3 — خيرز هو النطق الاسبانى لمدينة شريش وهي Jerez de la Frontera وبناحيتها وقعت المعركة الحاسمة بين طارق بن زياد القائد المغربي المظفر وآخر ملوك القوط سنة 711 م . وبعد هاتم فتح المسلمين للاندلس . وكانت أيام العرب مدينة مهمة ومركزا ثقافيا كبيرا . استرجعها الاسبان نهائيا سنة 1264 . وبينها وبين اشبيلية 97 كيلو ميترا جنوبا

المراكب، فيحملون القنطرة ، فالقنطرة تعلو بعلوه وتنحدر بانحداره ، وذلك في غايه الاتقان والاحكام والوثوق وهذا من الغريب وفي القنطرة المذكورة سلاسل من حديد مربوطة في صوارى عظام فيها جوائز تحمل القنطرة المذكورة اذا اراد بعض المذكورة التوجه في البحر في الوادي الى مدينة خيرز ترفع القنطرة بالسلاسل المذكورة ، وتجوز المراكب الى مدينة خيرز مع الوادي ويبقى بين الوادي وخيرز نحو ميل وترسى المراكب هنالك وتحمل المراكب من المدينة المذكورة الخضر والفواكه وغير ذلك وتاتي به الى قالص وتتوجه بالسلع من البحر الى المدينة المذكورة ولما عبرنا القنطرة قصدنا مدينة البوريط ذى سنط مرية فوصلنا على ثلاث ساعات من قالص وجميع البلاد التي بين قالص وهذه البلاد حجـن يتخللها البحر ولهم فيها ملاليح (I) لاستخراج الملح مقصور بيعها على عظيمهم لانها من الامور المقصورات عليه مثل عشبة طابة (2) وغيرها فلا يتعاطى فيها احد بيعا ولا شراء ، وقد رأينا عندهم من الملح في تلك المواضع ما يتخيله الناظر على البديهة اخبية لكثرته

مدينة سنط مرية أعادها الله دار اسلام

ولما قربنا من مدينة سنط مرية المذكورة خرج لملاقاتنا حاكمها وقاضيها واعيان البلد وخاصتها وعامتها وقد كان في ذلك اليوم من المطر الغزير ما غمر الارض وتجسموا مشقة الخروج لملاقاتنا اعتناء

I – جمع ملاح وهو في الاصطلاح المغربي معدن الملح في الجبال والاحواض التى يجمع فيها الماء على شاطىء البحر ليتبخر ويبقى الملح . والملاح يطلق كذلك على الحارات التى يسكنها اليهود في المدن المغربية والاصل في ذلك ان اول محل اتخذوه لذلك كان قرب معدن ملح .

2 – طابة وهي اختصار طاباقو Tabaco ويعنى بها النبات الذي يستعمل في التدخين والذي يسحق ويستنشق وقد عربت الكلمة الى تبغ بالمشرق واصلها من لغات هنود أميركا حيث رآها كريستوفوروس كولو مبو وصحبه ونقلوها الى أوربا ومن ثم عمت العالم بشرورها

وتعظيما لسيدنا ومولانا أعز الله به الاسلام فعرض لنا الحاكم في كدسه فاراد ان ينزل للسلام علينا فمنعته من أجل ما رأيت من كثرة الامطار والطين الذي كان في ذلك اليوم فاعتذر عن عدم قدومه علينا بقالص وأظهر من البشاشة والفرح ماتجاوز الحد وسأل هل حاكم قالص أدى ما يجب بحقوقكم ، فأجبته بانه قد فعل من البرور والاكرام شيئا كثيرا وما لحقه تقصير فقال بذلك أمره عظيمه أداء لبعض حق سيدنا ومولانا وهذا الحاكم المذكور هو عدو الله الذي حرك وتوجه الى الجزائر في البحر في سنة تسعة وثمانين ومائة والف (I) في خمسة وعشرين القا ، ونزل في البر بقرب الجزائر بنحو ميل فرد الله تعالى كيده في نحره وهزم اقبح هزيمة ونصر الله تعالى دينه ورجع مذموما مفلولا مدحورا بعد أن أنزل في البر آلات البناء والمدافع وشرع في بناء الحصن . وتوجهنا الى مدينة خيرز بعد أن شيعنا الحاكم المذكور واهل بلده وسرنا في أجنة (2) الزيتون والكروم مصاحبة لنا عن يسارنا ولهم معرفة بتربية الاشجار واتقان كبير في الغرس فجميع غروسهم بصفوف معتدلة مستوية وكذلك اجنة الكروم المسمى بالدالية الزحافة (3) عندهم منها شيء كثير وسرن في الاجنة المذكورة بقية يومنا الى أن اشرفنا على مدينة خيرز

I – سنة 1189 الهجرية ابتدات يوم 4 مارس 1775 وانتهت يوم 20 يبراير سنة 1776

2 – أجنة جمع عامي لجنان الذى يطلق فى الاصطلاح المغربى على المفرد أى جنة بمعنى بستان. ومن خصائص العربية المغربية اطلاق الجمع على المفرد فى كلمات كثيرة كرياض بمعنى روض وقبور بمعنى قبر وآفات بمعنى آفة كما تقدم

3 – الدالية هي الكرمة وهى لفظة مولدة اشتقت من التدلي لان العنب يتدلى من أعلى الرفوف التى تمتد عليها أغصان الكرم وفي الاصطلاح المغربى لا يلتفت الى الاشتقاق الاصلي فالدالية هي الكرمة مطلقا . فاذا كانت من النوع الذى لا تعلو سيقانه ويبقى لاصقا بالارض فانها تدعى الدالية الزحافة اى التى لا تستطيع الوقوف وانما تزحف

مدينة خيرز أعادها الله دار اسلام

ولما وصلنا اليها وجدنا أهلها قد خرجوا كبارا وصغارا لملاقاتنا ووجدنا حاكم البلد واعيانها في أكداشهم فنزلوا واظهروا من الفرح ما أظهروا وطلب منا الحاكم ان نركب في كدشه فتعللت له فأبى الا ان اركب فاسعفناه جبرا لخاطره وركب معنا وسرنا الى المدينة في ازدحام كثير وقد رأينا من المحبة في اهل هذه المدينة ما تمنينا نيم به الاسلام ولكن الله يهدي من يشاء لانه كان في ذلك اليوم مطر غزير وتحملوا مشقة وخرجوا لملاقاتنا نساء ورجالا مع كثرة الطين والوحل ولما دخلنا المدينة تلقانا اهل الطرب بآلات لهوهم وساروا معنا الى الدار المعدة لنزولنا فقال الحاكم قد بحثت في المدينة على دار لنزولكم فلم تقنعني دار وهذه داري هيأتها لنزولكم فرحا بكم وتعظيما لمرسلكم أدامه الله فجازيناه خيرا ودخلنا الدار ودخل معنا كافة أعيان البلد حتى استقر بنا المجلس وبعد العشاء اجتمع بالدار المذكورة نساء اعيان البلد والضامات (I) بقصد ان يسلمن علينا فأخبرني الحاكم بذلك فتلكأت عن الخروج اليهن لانه لحقنا من الركوب في الكدش مشقة من كثرة حركاته لعدم ايلافنا ذلك فالح علينا الحاكم فلم يمكنني الا اسعافه فخرجت فاذا بجمع كثير من النساء قد اظهرن زينتهن وتبرجن تبرج الجاهلية الاولى فأظهرن من الفرح والسرور والادب ما قضينا منه العجب وقابلناهن بما يناسب وانصرفن

ومدينة خيرز هذه من بقية مدن المسلمين رحمهم الله ، وسورها الذي كان على عهد المسلمين باق الى الآن الا ان النصارى أحدثوا ديارا كثيرة وأسواقا كبيرة خارجة عن السور مثل ما بداخله او أكثر

I – اى السيدات ومفرده ضامة Dama وابن عثمان يجمعها أحيانا على ضيم ومنه لعبة الضامة عند المغاربة وهي ماخوذة عن الاسبان

وليس للزيادة المذكورة سور وهي مدينة متوسطة . واهلها اهل حضرية ورفاهية الا ان طينها ضحضاح يؤذي نتنه في الحر ذوات الحس . بتنا فيها تلك الليلة ومن الغد سافرنا منها بعد ان شيعنا حاكمها وأعيانها ولما انفصلنا عنها سرنا في بساتينها واجنتها مايزيد على ساعة طولا وعرضا وجل غرسهم الزيتون والكروم المسمى بالدالية الزحافة . ولهم خبرة بأمور الغرس وتربية الاشجار فلما خرجنا من البساتين دخلنا في بلاد فسيحة الارجاء متسعة الانحاء بلاد الحرث والنسل تنبت الدوم وشجر الضرو وسرنا بقية يومنا كذلك الى ان اشرفنا على قرية الكبسات (1) فوصلناها على ثمان ساعات من خيرز بعد مشقة عظيمة من شدة الوحل

قرية الكبسات أعادها الله دار اسلام

ولما قربنا من المدينة المذكورة خرج اهلها خصوصا وعموما لملاقاتنا كغيرهم ممن تقدمهم ، فصعدنا الى القرية لانها على ربوة مرتفعة موافقة لاسمها لان الكبسة بلغة العجم هي الراس فسميت باسمه لعلوها فوجدنا اهلها هيئوا دارا لنزولنا هي أفضل دورهم وتكلفوا لها مقدرتهم وبتنا فيها ومن الغد توجهنا منها فوجدنا فيها من آثار المسلمين رحمهم الله برجا مستديرا به جدار وهو الى الآن مسمى عند النصارى ببرج المسلمين ، وقد جعلوا اليوم بازائه داخل السور المذكور سوق الجزارين ، وأهل هذه القرية اهل بداوة ، وحيث انفصلنا من القرية دخلنا أرضا متسعة منفسحة طولا وعرضا تسرح نظرك حيث شئت ، ووجدناها كلها محروثة وهي أشبه شيء ببلاد دكالة بأرض المغرب نباتها النبات المسمى بالخرشف وليس بها ماء اصلا الا الآبار او ماء الامطار الا ان

---

1 – بالاسباني Las Cabezas de San Juan وقد وصفها ابن عثمان بتدقيق وهي تبعد عن اشبيلية 61 كيلو مترا الا انها اليوم ليست على الجادة الكبرى التى تربط شريش باشبيلية وانما هى ستة كيلو ميترات عن يسار الطريق المؤدية الى اشبيلية فى اتجاه ابن عثمان .

مـاء آبـارهـا قريب لاكـآبار دكـالـة ، وقـد رأيت لهـم كيفيـة في استخراج المـاء مـن آبـارهم بأن يجعلـوا عمـودين على شفـير البـير ويجعلـون عليهما عمـودا آخـر ممتدا فـوقهما على شكـل عمـود الميـزان وفي رأسـه الـذي فـوق البـير الحبـل الذي فيه الدلو وفي رأسـه الآخـر خشبـة أثقـل مـن الدلو فـذا ارادوا نـزح المـاء مـن البـير جـذب الحبـل الـذي فيـه الـدلو حتى يصـل الـدلو المـاء وحـين يمتلـيء يطلـق الحبـل فيطلـع مـن غـير مشقـة ولا تعب ويسقي المـاشيـة في أقـرب زمـان .

وسرنا في البلاد المذكورة على الوصف المذكور فوصلنا قنطرة مبنية على خليـج خـارج من الوادى الكبير (1) المـار باشبيلية وذلك أنـه في وقت المطر يكثر المـاء في الوادى فيعظم حمله (2) فيخرج منه ذلك الخليـج فنصبت عليـه هـذه القنطرة ولهـا قوسان ومن فوقها برجـان بـرج في هـذه العـدوة وبرج في العـدوة الاخـرى وهي مـن عمـل المسلمين ومن بقيـة آثـارهم رحمهم الله ولا زال النصارى يسمونها بقنطرة المسلمـين الى الآن ووضـع النصارى على الخليج المذكـور بـازاء القنطرة داريـن والخليـج مار بينهما معدتـين لنزول المسافـرين ويسمونها بديار قنطرة المسلمين وبينها وبـين الكبسات ثـلاث سـعات وبقيت مدينة طريرة (3) عن يمينها بنحو ميل ومدشر فرتي (4) بتـاء مشوبـة بشـين عـن يسارنا وما بينهما من البلاد كلـه مغـروس بالزياتـين

---

1 – يسمى هكذا الى الان بالاسبانيـة : Guadalquivir .

2 – يقال فى الاستعمال المغربى حمل النهر أى ارتفعت مياهه بسبب الامطـار أو ذوبان الثلوج ومصدره الحمل والحملة

3 – بـالاسبانى Utrera ولـم يدخلها ابن عثمـان وهى على بعـد 14 كيلـو ميتـرا من اشبيليـة

4 – المدشر فى لغة الكتاب المغاربـة هو ما يطلق عليه العامة لفظة دشر يجمـع على دشورة ومعنـاه قريـة صغـيرة ، وأصل الكلمـة من الفصيح الجشر بفتحتـين القـوم يخـرجون بأهلهـم فى المرعى ويبيتون مكـانهم ولا ياوون الى البيوت . – وفى النطق المغربى كلما اجتمع جيـم مـع الزاى او الصاد او السـين او الشـين الا وينقلب دالا او جيمـا مصريـة فيقال داز بمعنى جـاز وديزة كما يقال له بمصر جيزة . ويقال الجص بالجيم المعقودة للجص وهكذا .

التي فيه زيتــون المدينتين فوصلنا دارا على ساعتين من العطرة المذكــورة معــدة لنزول المسافــرين يبيتون فيها ويقيلون ويجدون بها كمــا يــريــدونــه مــن الشعــير والتبــن ويتحكمون على اهــل الــدار كيف تمنوا في مــآكلهــم ومشربهم وكلمــا يامرونهم بــه يفعلونــه ويحضرونــه بــين أيديهم وحــين يريدون الانصراف من عندهم ياتيهم صاحب الدار او زوجته بزمام ماصير (1) عليهم في ماكلهم ومشربهم وفراشهم وعلف دوابهم وجميــع مصاريفهم ويعطــون ذلك من غير مــراجعة (2) وهكذا جميــع طرق بــلاد اصبــانيــة فــلا يحتــج المسافــر الى زاد ولا بنيــة وانما يصحب معه ما يصرفه فنزلنا بالدار المذكورة لــلاستراحة وأحضروا لنا الطعــام على عــادتهم وأتانا أهل تلك الدار بزيتون لــم نــر مثلــه كــأنه الجــوز حقيقــة وسرنا مــن الدار المذكــورة بقية يومنــا قاصدين مدينة اشبيلية في اجنــة (3) الــزياتين والكروم وكــل جنــن فيــه معصرة ودار غــالبــا والظــاهــر ان ذلك الزيتــون من بقية غــرس المسلمــين رحمهــم الله لان أثــر القدم بــاد عليــه وهــذه البــلاد التــي بــين الكبســات واشبيليــة كلها عــامــرة بعزائب الحــرث والمــاشية والغالب فــي غنــم بــلاد الانــدلسية (4) أنهــا ســود .

حضرة اشبيليــة أعــادهــا الله دار اسلام

ووصلنا مــدينة اشبيليــة بعد غــروب الشمس على عشر ساعات مــن الكبيسات فلما أشرفنا عليها وجــدنا أهلها خرجــوا لمــلاقاتنا بما ينيف على المــائتي كــدش وامــا الرجــالة فــلا يحصون عــددا نساء ورجــالا فتقــدم

---

1 – صير فى الاصطلاح المغربى معناه صرف والمصروف يقال له : الصائر

2 – يصف هنا نظــام الفنادق على نحو ما هو عليــه الان ولــم يكــن موجــودا اذاك بالمغــرب لانــه لم يكــن ينزل فى الفنادق الا اهل البوادى عند ما يدخلون المــدن فينــزلون بدوابهــم فى محــلات كانت تسمى ولا تــزال كذلك فنادق .

3 – أنظر التعليق السابق عــدد 2 ص. 29

4 – هــذا اسم ناحيــة جنوب اسبانيا الى الان عنــد الاسبان وهــو Andalucía

الينا نائب الحاكم فرحب بنا واظهر هو وجميع من خرج معه من الاعيان من الفرح والسرور مالا يكيف وقدم الينا كدش الحاكم لركوبنا وقال ان الحاكم واقف بالباب ينتظرك مع العسكر فتوجهنا الى المدينة فدخلناها ووجدنا الحاكم بعسكره ولم يدع صاحب لهو وطرب الا واحضره وتلقانا مع حشمه واظهر من التأسف على عدم قدومنا نهارا ما اظهر وادخلنا الدار التي اعد لنزولنا واوقد ببابها من الشمع مالا يحد ولا يحصى والعسكر واقف ببابها بطبولهم فاذا بدار بديعة الشكل غريبة المثل دار مملكة المسلمين العباديين رحمهم الله ذات الصنائع المتقنة والمرائي المستحسنة مفروشة كلها بالرخام الابيض ولها من سواري الرخام اربعة ومائة سارية اثنان وخمسون في أسقفها ومثلها في الطبقة العليا وبوسطها خصة ماء ترمي الماء في الجو بصنعة اكثر من قامة وفيها ثلاث قبب احداهن وهي التي عن يمين الداخل قبة كبيرة طولها ثلاثة وسبعون قدما وعرضها عشرون قدما وفي صدرها ثلاثة اقواس يدخل منها الى قبة اخرى مثل البهو (I) عندنا طوله اثنان وخمسون قدما في عرض اثنى عشر قدما ويقابلها قبة مثلها الا انها لا بهو لها وسقف القبتين المذكورتين بالصنعة المسماة بالبساط (2) في غاية الحسن والقبة الثالثة قبة مربعة ثلاثة وأربعون شبرا في كل ربع وسقفها بالتسطير (3)

I – البهو فى المنزل المغربى هو حجرة صغيرة بدون أبواب فى صدر حجرة كبيرة وهي فصيحة بمعنى البيت المقدم امام البيوت .

2 – البساط : قاعة فسيحة فى طابق علوى من المنزل المغربى فى ديار الاكابر له نوافذ تطل عادة على البساتين والرياض.

3 – التسطير هو تزويق يعتمد على الاشكال الهندسية التى تتخذ بمسطرة وذلك فى الخشب بالالوان وماء الذهب وهو التمويه فى سقوف القصور والدور الفخمة والمدارس ونحوها ، وله اشكال متنوعة لكل واحد اسمه الخاص مثل ما ذكر فى التعليق التالي والاسم العام للتزويق بالالوان هو قطع حديدة و العكرى أى تلصيق اوراق رقيقة من الذهب فوق الخشب حسب الشكل المرسوم وقطع ما زاد بآلة حديدية ثم صبغ قطع مجاورة بالالوان منها العكرى (اى الاحمر القانى) وهو الغالب لذلك اطلق على هذا العمل هذا التعبير

بالعمل المسمى نصف نار نجة (1) مموهة جميع صنائعها وهي ايضا معروسه بالرخام وفي كل ربع من أرباعها الثلاثة ثلاثة أقواس فاما الربعان اللذان عن اليمين وعن الشمال ففي كل واحد بهو طوله مثل القبة وعرضه تسعة عشر قدما والاقواس الثلاثة التي في صدر القبة يدخل منها الى قبة كبيرة مستطيلة وجميع حيطان القصر المذكور مع قببه مرقوم بالزليج (2) مقدار قامة بأبدع شكل واغرب وضع ومن فوق الزليج عمل الجباص (3) فأحسن ما شاء وجل عمل الجباص مكتوب فقد كتب فوق الزليج داخل القبب ودائرة القصر كله ببيتي شعر وهما (مجزو الرجز)

ياثقتي يا أملي أنت الرجا أنت الولي
أنت المجيب من دعا اختم بخير عملي

واستمر يكررها حتى دار بالقصر كله مع قببه وطول هذا القصر مائة وعشرة أقدام وعرضه خمسة وثمانون قدما ومكتوب في دفف القبتين المذكورتين بالنقش بخط حسن العز لله الملك لله الى غير ذلك مثل الحمد لله وما شاكل ذلك ومكتوب في دفتي القبة التي سقفها نصف نارنجة ففي احدى الدفتين «أمر السلطان المعظم المكرم عز نصره ملك قشتالة وليون (4) أدام الله سعده

---

1 – نصف نارنجة اى نصف برتقالة وهو عبارة عن زخرفة خاصة تاخذ هذا الشكل وتكون فى السقوف .

2 – الزليج هو الفسيفساء وأصله من التزديج جعل الشىء كالزجاج وقلبت الجيم دالا على القاعدة المقررة فى التعليق 4 ص. 32 وذلك لان الخزف الذى تتخذ منه قطع الفسيفساء يطلى قبل طبخه بمادة براقة كالزجاج ـ وأصل الكلمة الاسبانية Azulejos من الزليج لا العكس كما ذهب اليه دوزى فى ذيله

3 – الجباص هو الجباس أى الذى يصنع الزخارف الجبسية فى حيطان الديار الجميلة والقصور وفى اللغة المغربية تنطق الجيم فى هذه اللفظة معقودة

4 – هو الملك دون بيدرو (Don Pedro) الذى كان ينعت بالقاسى وقد ملك من سنة 1350 الى سنة 1369 . والذى انشأ هذا القصر هو الخليفة الموحدى أبو يعقوب يوسف بن عبد المومن بين سنتى 1171 و 1176 وكان تجديده على يد دون بيدز هذا بين سنتي 1364 و 1366

وأبقى أيمه بعمن هذه الابواب الجديدة للقبة السعيدة بما اجلب من العدة الرفيعة من خشب السرول المشهور الذي شاع ذكره في سائر البلاد المستعد لابواب المجالس والقصور» وفي الدفة الاخرى «صنعت بمدينة اشبيلية بنظر الموكل بأشغاله الناظر في بنائه واحواله المعلم يوسف الشرفي وصنعها المعلمون الطليطليون بتاريخ اربع واربعمائة والف بتاريخ الصفر (1) ووافق من تاريخ العرب سنة سبع وستين وسبعمائة (2) كمل التاريخ بحمد الله». وصنعة الدفف المذكورة بالتسطير الفائق وغير هذا من الكتابة العربية في هذا القصر شيء كثير من عمل الجباص والنقاش شعرا ونثرا، وهذا السلطان المذكور الذي امر بصنعة الدفتين هو نصراني يقال له بيطره (3) بن الهنش بن هرانده بن سانجه بن الهنش بن هرانده ملك قشتالة، وكان هذا الطاغية على عهد الامير محمد بن يوسف بن اسماعيل ابن فرج امير المسلمين بالاندلس احد ملوك بني نصر لان اشبيلية كانت بيد النصارى وقتئذ لانهم اخذوها من أيدي المسلمين في سنة ستة واربعين وستمائة (4) حاصر اشبيلية الطاغية فرناند سانطه الثالث (5) بن الفنش ابن سانجه وهو الذي ملك اشبيلية وقرطبة وأخذها من يد أمير المسلمين

---

1 – أنظر التعليق 2 ص. 37 بعده.

2 – سنة 767 الهجرية ابتدأت يوم 18 شتنبر 1365 وانتهت يوم 6 شتنبر 1366 من التاريخ الميلادى

3 – هو الذى ذكرناه في التعليق 4 ص. 35 السابق وهذه الاسماء بالاسبانية هي Herrando ; (Alfonso) Alhonso ; Pedro Sancho ; (Ferrando)

4 – سنة 646 الهجرية ابتدأت يوم 26 ابريل 1248 وانتهت يوم 15 ابريل 1249 من التاريخ الميلادى

5 – هو ملك قشتالة وليون ولد سنة 1199 م وتوفي باشبيلية سنة 1252 م بعد أن وحد بين مملكتى قشتالة وليون واشتهر بقسوته ضد المسلمين واليهود ومع ذلك يدعى الصالح، بل رفعته الكنيسة الى مقام القديسين أربعمائة سنة بعد وفاته، وهو الذى استرجع اكثر عواصم الاندلس الاسلامية الى حظيرة المسيحية

أبي عبد الله محمد (1) بن يوسف بن نصر بن أحمد بن محمد بن خميس بن عقيل الخزرجي الانصاري سلطان الاندلس وايالتها يلقب بالغالب بالله . وهو اول ملوك بني نصر كان آيـة من آيات الله تعالى في السلامة والجوهرية جـديـ ثغـريـا شهما عظيـم التجلد رافضا للدعة والراحـة موثرا للتقشف والاجتزاء باليسير متبلغا بالقليل ، بعيـدا من التصنـع شديد الحزم مرهـوب الاقـدام عظيم التشمـير يخصف النعل ويلبس الخشن ويؤثـر التبرى تملك اشبيليـة وقرطبة برهـة يسيرة ثـم خـرجتا عـن نظره في خبر طـويل فليراجعـه من أراده في مـواضعـه وكان أمر الله قدرا مقدورا ويؤيد كـون كتابـة الـدفتر للنصـارى أنها مـؤرخـة بتاريخ الصفـر والمسلمون لا يعرفون تاريخ الصفر ولا يـؤرخون بـه ولاغـرابة في كـون النصارى يكتبون بالخط العـربـي فالكتابـة على عهدهـم بالعربى كثيرة ، واعلـم ان تاريخ الصفر (2) المذكور هو

---

1 — حكم من سنة 1231 الى سنة 1272 وكـان يقال له الاحمـر لذلك تدعى دولتهم بنى الاحمـر ويطلق عليهم كـذلك اسـم بنى نصر نسبة لجـد أبى عبد الله نصر .

2 — هـذا التاريخ يعـرف عند المؤرخين الغـربيـين بتاريخ الاسبـن وهو كما ذكـر ابن عثمان يبتدىء ايام الامبراطور الرومانى الاول أوكطـافيـان الذى لقب بعد انتصاراتـه بأغسطوس وبـه سمى الشهر الذى نقـول لـه بالمغرب غشت وقـد ولد سنة 63 قبـل المسيح وتوفي سنة 13 للميـلاد ـ وأمـا قضية الصفر وتصفيح شواطىء نهـر روميـة بصفائح الصفر فلم اقف عليها عند مؤرخى الدولـة الرومـانيـة ولا شك انهـا صحيحـة لان المعلـومـات التاريخيـة وغيرها التى يوردهـا ابن عثمان كلها محققة مما يدل على انـه استقاهـا من مصادر وثيقة ولـم ار مـن الكتاب والعلماء العـرب فى ذلك العصر من كـان له اطلاعـه ومعـرفته بشؤون اوربـا مـن سائـر الـوجـوه .

ولعله وقع لـه وهم من سوء فهمـه أو من سوء فهم الراوى. لان الصفر وهـو النحاس له عـلاقـة بلفظة era الاسبانيـة ومعناهـا مبـدأ التواريخ وأصلها لا تيني بمعنى قطعـة مـن النحـاس وذلك أنهـم كانوا يسجلون اعمال الجنود فى قطـع نحاسية كـل سنة . وأخـذوا يقـولون : منذ «الآيـرا» الفلانية وقـع كـذا وكـذا . ويعثـر في الحفـريات الاثـريـة على قطع كثـيرة من هـذا النوع تفيد كثيرا في تاريخ الـرومـان وقـد وجـد منها بالمغـرب ما وضح قضايا تاريخية هامـة .

قبل تاريخ النصارى المسيحي بثمانية وثلاثين سنة والمراد بالصفر قيصر أحد القياصرة اسمه اكتبان (1) وقد ملك أكثر الدنيا وصفح نهر رومية (2) بصفائح الصفر فأرخت الروم (3) من ذلك العهد وهو امر ببناء المدن العظام بالاندلس فبنيت في مدته قرطبة واشبيلية وماردة (4) وسر قسطة (5) وقبر فرناند سانط المذكور بمسجد اشبيلية وهو عند النصارى كنيسة اليوم وذاته قائمة الذات الى الآن فاذا كان اليوم الموفي ثلاثين من مايه من حساب النصارى يخرجونه ويجعلون له عيدا ويمرون به الازقة ، وقد أحاط بهذا القصر دويرات ومساكن كثيرة وغرسة (6) من احدى جهاته فاما سفلى القصر فهو باق على حاله لا يبيت به أحد ولا يدخله الا القيم الذي يباشر القصر ويتفقد أحواله وفوقيه ساكن به الحاكم وكذا مساكنه العليا باقية على حالها ، وقد اخبرنا الحاكم أن عظيمه يؤكد عليه كثيرا في المحافظة على القصر المذكور وأن لا يحدث فيه شيئا الا اذا دعت الضرورة الى اصلاح او ما أشبهه

---

1 – اكتبان يعنى اوكطافيان اسم اغسطس قبل ان يتخذ هذا اللقب الامبراطوري

2 – رومية عند العرب هى ماصرنا نسميه الان رومة وهي عاصمة ايطاليا ونهرها اسمه Tevere

3 – يعنى هنا الرومان . ولفظة الروم تطلق عند العرب على مملكة بيزنطة خاصة

4 – ماردة مدينة بالاندلس (Mérida) أسسها الرومان سنة 25 بعد المسيح وسموها Emerita Augusta وكانت من أجمل مدنهم وأعظمها حتى أطلق عليها اسم رومية اسبانيا فتحها العرب فى زحفهم على الاندلس سنة 713م واسترجعها الاسبان سنة 1228م. ويخترقها النهر المسمى وادى يانة (Guadiana) وهي فى غربي اسبانيا قريبة من الحدود البرتغالية

5 – سرقسطة (Zaragoza) مدينة عظيمة بشمال اسبانيا من تاسيس قدماء الايبريين جدد بناءها الرومان وسموها Caesara Augusta وافتتحها العرب فى أول دخولهم للاندلس سنة 717 وبقيت تحت حكم المسلمين عدة قرون وصارت من عواصم العلم والادب الى أن استرجعها الاسبان سنة 1118 .

6 – الغرسة لفظة تستعمل فى شمال المغرب بمعنى بستان مغروس بالاشجار .

وقد كنا سمعنا قبل ان منارها يشبه منار الكتبيين من حضرة مراكش أمنها الله فبعثت الى حاكم البلد وتوجه معنا اليها هو وأعيان بلده فطلعنا الى المنار فاذا هو على هيئة منار الكتبيين يصعد اليه من غير مدارج ، وقد أخبرني غير واحد من النصارى ممن صعد اليه راكبا على فرسه وكذا الكتبية لامدارج لها ، ولما دخلنا باب المنار درنا في المنار في صعودنا اليه خمسة وثلاثين دورا وفيها من القبب في وسطها مثل صومعة الكتبيين قبب يسكنها النصارى القيمون عليها الموكلون بضرب النواقيس المعلقة بها لان فيها من النواقيس خمسة وعشرين منها ناقوس كبير ذكر لي أن زنتة مائة وخمسة وثمانون قنطارا والباقون دون ذلك الا أن الكفار الساكنين بالصومعة المذكورة قد أفسدوا داخلها بالبول والقذرات حتى لايمكن للانسان ان يطلع اليها الا ممسكا أنفه من شدة النتن طهر الله منهم البلاد وجعلهم فيئا وغنيمة للعباد فانا لله وانا اليه راجعون ، ولما صعدنا أعلى المنار أشرفنا على مدينة اشبيلية فاذا هي مدينة كبيرة بهية المنظر كثيرة الآثار مع ما فيها من البناءات الفائقة والمنارة الرائقة وسقف دورها كلها بالقرمود الابيض وكذا سائر مدن اصبانية التي رأينا أسست في بسيط من الارض وزادها حسنا وبهاء الوادي الكبير فانه مار بازائها بينه وبين سورها نحو الاربعين شبرا او نحو ذلك صار لها كالتاج حسنا ، وعلى ضفته في العدوة الاخرى مدينة صغيرة يقال لها طريانة (I) أكسبتها اشبيلية منظرا حسنا وجميع أرجاء هذه المدينة منفسحة وكلها مغروسة بالزياتين وهذا الوادي المذكور هو أعظم اودية الاندلس اذ جل الاودية تصب فيه وفيه تجتمع الاودية كلها وخرج الى البحر

I – طريانة (Triana) حي شعبى باشبيلية على الضفة اليمنى من الوادى الكبير وقد سمى به حى بفاس لا يزال يحمل هذا الاسم الى الان .

الكبير في مرسى سان لكار (1) وتطلع معه السفن من البحر الى اشبيلية بانواع التجارات والسلع الفاخرة وما أشبه ذلك ويحمل من اشبيلية الزيت الى جميع الآفاق والهند فاشبيلية بهذا الوادي الذي اجلب لها غرائب البحر فاقت جميع البلدان ولو اقتصرت على محاسنها البرية وفسيح ارجائها ومنظرها الانيق ونسيم انحائها لكفاها ذلك فخرا وعظمت به قدرا فكيف وقد جمعت بين الحالتين وبرزت في حلتين وبالقرب من هذه المدينة في العدوة الاخرى الشرف المطل عليها وهذا الاسم له قديما ولا زال مسمى به عند النصارى الى الآن (2) وانما سمى شرفا والله اعلم لاشرافه عليهما وليس له علو مفرط بل هو متوسط وكله ومغروس بالزياتين ما ينيف على ثمان ساعات وهو مقابل لربع من ارباع اشبيلية والوادي بينه وبينها وقد حضر لي في منظر اشبيلية واسوداد جبل الشرف لتكاثف اشجاره واشرافه عليها كأنه يرصدها والوادي الحائل بينهما المتردد بباب اشبيلية حين يطلع البحر يطلع وحين يرجع البحر يرجع فهو لذلك كالواله الحيران فأسست اشبيلية على شفيره ، فصار لذلك كأنه أخذ اشبيلية فتأسف الشرف واسود غيظا فقلت أبياتا ثلاثة وهي على لسان الوادي شعر (بسيط)

لي افتخار ومجد وبلوغ منا ففقت كل يمان صارم مرهف
عروس أندلس زفت الى عاشق متيم هايم ببابها دنف
قد حزت بالوصل منها بهجة ولقد اسود من غيظه تبت يد الشرف

وفي أحواز هذه المدينة من القرى والمداشر عدد كثير وعمارة كادت

---

1 – أي سان لوكار والاسم الاسباني San Lucar de Barrameda وكان ايام العرب يسمى شلوقة فحرفه الاسبان أولا الى Solucar ثم جعلوا منه اسم قديس San Lucar على ما حققه العلامة كايانكوس وهو مرسى ذو اهمية تجارية ومنه ابحر كريستوفوروس كولومبو عندما قصد أمريكا للمرة الثالثة.

2 – وهو بالاسبانية كذلك الى الان Aljarafe بالخاء عوض الشين لان الاسبانية ليس فيها حرف الشين وانما صوت الشين عندهم دائما بالتاء قبله اى تشا

تنصل وجميع سكانها يردون على المدينة المذكورة ومن أجل ذلك كثرت عماراتها وقد ذكر لي أن معاصر الزيتون التي تعصر زيتون اشبيليه ومع أضيف اليها زهاء ثلاثمائة ويكفيها افتخارا أنها مسماة عروس الاندلس وبالصومعة المذكورة مكانة (1) كلها من الحديد لها عشر قوائم في علو قامه أو أكثر ونواعيرها وحركاتها مركبة بين القوائم المذكورة وقد جعلوا لها قضيبا من الحديد في طول الرمح وغلظه مركب في المكانة بحركة وفي رأسه مطرقة ورأسه خارج من السقف من ثقب به مقابل لاحد النواقس فاذا وصلت الساعة يتحرك القضيب المذكور بحركة ويضرب في الناقوس عدد الساعات الماضية ضربا شديدا يسمع عن بعد وتحت المكانة فضاء تتحرك فيه ثقاقيل (2) المكانة ولها ثقل اطول من الرمح يتحرك في ذلك الفضاء ورأس هذا العمود الذي فيه الثقل مسمر في قطعة حديد ابيض كأنه بلور وفي أسفله ما يزيد على القنطار من الخفيف وهو الثقل فسألت عن الحديدة البيضاء المسمر فيها الثقل ولم اعلم انها حديدة فقال انه نصل سكين من سكاكين المسلمين ، فقلت وما القصد في ذلك فقال لصفاء حديدها وجودته وهذه المكانة احدى الغرائب وقد وجدت معها صانعها فأخبرني أنه مكث في خدمتها ثمان سنين وصير عليها من المال عشرة آلاف ريال وخمسمائة ريال (3)

وقد رأيت باشبيلية ايضا دارا كبيرة معدة لتعليم الصبيان علم البحر وخدمة المراكب وبها قيم معين من قبل الطاغية ويجتمع عنده في تلك الدار اليتامى المهملون وأبناء المستضعفين وكذا أولاد الاكابر يدفعهم آباؤهم

1 – المكانة هي الالة التى يعرف بها الوقت اى الساعة وتطلق على كل أنواع الساعات الكبيرة والصغيرة وأصل الكلمة من اليونانية وهي مكانون Magganon وعربت بمنكانة وذلك بحل ادغام الجيم المعقودة وتعويض الجيم الاولى بنون فحرفها المغاربة الى مكانة

2 – جمع ثقال وهو قطعة من حديد ثقيلة تعلق بسلسلة في الساعات الحائطية لتسيير حركاتها

3 – أي ما مقداره نحو عشرين مليونا من الفرنكات من سكة اليوم

الى تلك الدار يتعلمون فاول ما يتعلم الصبيان الكتابة والحساب في مكان مخصوص ، وبالدار المذكورة مكان آخر فيه سفينة بقلوعها وأحبالها وجميع اقامتها من مدافع وغير ذلك . فمن نجب من الصبيان في الكتابة والحساب ينتقل من تلك المرتبة الى المرتبة التي فيها السفينة ويتعلم فيها أمور البحر مباشرة وعندهم بالبيت المذكور كثير من الالآت التي يتوقفون عليها في البحر مثل القوس والبوصلة (1) وكورة العالم (2) وما اشبه ذلك ، ولما كنت بالموضع الذي فيه السفينة المذكورة أمر القيم الموكل بالصبيان المتعلمين ان يخدم كل واحد منهم خدمته المعين لها في السفينة ففي لحظة تعلق الصبيان بالسفينة وشدوا حبالها وأخرجوا قلوعها وعمروا مدافعها في اقرب مدة وبالدار المذكورة موضع متسع وبيت فيه مدفع صغير وجميع ما يتوقف عليه من الاقامة من البارود والكور (3) ويجعلون علامة في الجدار المقابل للمدفع ويتعلم الصبيان هنالك الرماية بالمدفع وقد اخبرنا القيم أنهم يتعلمون الرماية بالمدفع في السفن ، وقد اختبر صبيا أمامنا عمره اثنتى عشرة سنة فضرب بالمدفع المذكور فصادف العلامة ، وبالدار المذكورة موضع مستطيل فيه فرش الصبيان لنومهم بالليل فقد رأيت ماينيف على أربع مائة فراش ، ولما كنا بالدار المذكورة حضر وقت الغداء فأدخلونا موضعا وجدنا الصبيان مجتمعين فيه وفي ذلك الموضع سواري من الرخام في طول ذراع او نحوه وضعت عليها سرائر خشب عنده مع جدرات الموضع المذكور لتوضع عليها غداء الصبيان ولذلك الموضع

---

1 – البوصلة هى بيت الابرة وكان يقال لها أيضا حق القبلة أى الصندوق الصغير الذى بداخله الابرة المغناطسية التى تتجه دائما الى الشمال فتكون جهتها الاخرى متجهة نحو الجنوب وهى القبلة بالنسبة لاهل المدينة وأهل الشام . وبوصلة هي ترجمة حق الى الايطالية والايطاليون هم الذين أخذوا بيت الابرة عن العرب ونقلوه الى اوربا .

2 – يعنى الكرة التى ترسم عليها خريطة العالم .

3 – الكورة جمع كورة وهي القنبلة المستديرة التى تقذفها المدافع .

مطبخه وقد وجدت طباخها اخرج طنجيرا (1) كبيرا مملؤا لحما وجعل يعرقه في الاواني وقد فرق عليهم قبل ذلك الخبز فلما تأهبوا للاكل وقف نصراني بالباب وتكلم بكلام وأجابه الصبيان ، فسألت عن ذلك فقيل انه يامرهم ان يسموا الله تعالى وبالدار المذكورة بيت كبير فيه المال المعين لصاير (2) الدار لانه كلما يلزم الصبيان من مأكول ومشروب وملبوس كله من عند عظيمهم وقد عين المال المصروف على ذلك وبازاء ذلك الموضع موضع معد لكتاب الدار يحصون فيه الصائر

ومن غرائب اشبيلية الغرسة المجاورة للقصر الذي كنا نازلين فيه ففيها من العجائب ما يقصر عن وصفه اللسان فقد قسموها أقساما متعددة وطرقها معتدلة مستوية وفيها من التصاوير (3) مالا يحصى وحيث يطلقون الماء يخرج الماء من تلك التصاوير فمنها ما يخرج الماء من فمه ومنها ما يخرج عن قبله ومن ثدييه ومن رأسه كانه مرشة (4) وعلى اشكال مختلفة وقد رأيت صورة في أعلى سور الغرسة والصورة في يدها مزمار كأنه ينفخ فيه وحين أطلقوا الماء في الغرسة خرج الماء من المزمار الذي بيد الصورة المذكورة والجدار غاية في العلو من عمل المسلمين رحمهم الله وأغرب من ذلك أنه يطلق الماء فتفور الارض كلها أنابيب مقدار قامة وأكثر ويختلف الماء الذي يخرج من الارض في الهواء فما خرج من ناحية اليمين يصب في ناحية الشمال وما خرج من ناحية الشمال يصب في ناحية اليمين ولما دخلنا الغرسة المذكورة تبعنا خلق كثير غلبوا على البوابين وغيرهم حتى كادوا

---

1 – الطنجير هو الطنجرة الكبيرة والطنجرة لفظة تركية معناها قدر من نحاس .

2 – الصاير هو ما يصرف على تسيير منزل أو معمل أو حرث أو غير ذلك انظر التعليق 1 ص. 33 السابق .

3 – التصاوير جمع تصويرة أى صورة والمقصود بها هنا التماثيل

4 – المرشة من اثاث البيت تقدم للضيوف ليتطيبوا بماء الورد ونحوه بان يرشوا بها ايديهم ووجوههم وثيابهم . وهي فصيحة بكسر الميم .

يطؤوننا بأقدامهم فأشرت بذلك على الحاكم ليرد عنا عامة الناس فأوما الي بايماء طرفه فمشينا وتبعونا فطلع بنا الى مدارج عالية وغفل عن النصارى الذين اتبعونا حتى استكمل جمعهم وأشار على قيمي الغرسة أن يطلقوا الماء فبينما العامة ينظرون الغرسة ويتأملون محاسنها اذ فارت الارض كلها بالماء واطبقت عليهم من كل جانب والباب سد دونهم وراجوا وصاحوا ولم يجدوا مسلكا وحيثما هربوا يجدون الماء امامهم ومن فوقهم وعن يمينهم وعن شمالهم وأحيط بهم من كل جانب حتى صاروا يتقاطرون بالماء وحينئذ فتح لهم الباب وخرجوا للمدينة مضحكة يتبعهم الصبيان

ومن عجائب هذه الغرسة ان جدراتها مكسوة بشجر التين والنارنج مغروس في أصل الجدرات وربي على هيئة حتى صار لباسا للجدرات كأنه النبات المسمى عندنا بالمغرب باللواية (1) تنبت بزروب الاجنة وزاد الغرسة المذكورة اخضرار جدراتها بهاء وبهجة وبالعرصة (2) المذكورة شجر الريحان البستاني (3) يتصرفون فيه كيف شاؤوا فمنه مايربونه حتى يصير مثل الجدار متشابكا بعضه ببعض كانه بنيان مرصوص ومنه مايربونه مقدار شبر على وجه الارض فيلوف بعضه ببعض ويضعون منه توارق (4)

1 – اللواية كل نبات تطول أغصانه وتتلوى على الاشجار او الاعمدة وتطلع مع الجدران ونحوها . وتطلق فى الغالب على نوع له زهرات كالابواق الصغيرة .

2 – العرصة فى الاصطلاح المغربى بستان كبير فيه بناية للسكنى والمعنى فى الاصل : البقعة الواسعة بين الدور .

3 – الريحان عند المغاربة هو الاس ويسمى باللغة العلمية Myrtus Communis – أما المشارقة فانهم يطلقون لفظة الريحان على ما يسمى بالعربية وعند المغاربة الحبق – أما الريحان البستانى فهو نوع قصير منه

4 – جمع توريق وهو تزويق فى عمل الجبس والنقش على الخشب يتكون من أغصان وأوراق متداخلة متشابكة وقد شبه به ما يعمله البستانيون الاسبان في الحدائق من قص الاشجار بكيفية فنية ولهم براعة فى ذلك الى الان .

لاتدرك الا بالعلم وبالغرسه المذكورة موضع فيه الريحان على بعلمه (1) وربوه على شكل الحنشة التي تجعل للماء فيكثر دورانه بها وربما يدخل الرجل الى هذا الموضع الذي فيه الريحان ولا يدري من أين يخرج وقد دخل أمامنا قيم الغرسة واتبعناه وتلف واذكر بعد حين . الحاصل ان لهذا الجنس خبرة كبيرة بالفلاحة وتربية الاشجار

ومن عجائب اشبيلية القنطرة المضروبة على الوادي الكبير يسلك عليه الى مدينة طريانة لانها على شفير الوادي والجسر المذكور من الخشب موسس على سبعة مراكب ، والمراكب المذكورة مرساة في الوادي وعلى جانب القنطرة المذكورة برجان من كل عدوة خارج من كل برج حبل غليظ يقال له القمنة مربوطة هذه الاحبال على القنطرة ربطا محكما وباقيها في داخل الابراج فاذا كان وقت المطر وكثر الماء في الوادي وخشي ان يعلو الماء القنطرة يطلقون الحبال من الابراج فتجد القنطرة المجال فيحملها الماء فهي تعلو بعلو الماء وزيادته فاذا كثر الماء بعد ذلك وأطلقت القمن وانتهت ولم يبق منها شيء وخيف ان يعلو الماء القنطرة تحل أطراف القمن المربوطة في القنطرة وتبقى رؤوسها مربوطة في الابراج وتحل القنطرة نصفين ياتي الوادي بكل نصف الى ناحية ويكون العبور حينئذ بالزوارق والفلائك فاذا رجع الوادي ونقص منه الماء تربط القنطرة كما كانت ويكون العبور عليها وهذا من الغريب

وباشبيلية الماء الجاري في غالب ديارها وليس بالمدينة المذكورة عن آخرها بير واحدة وانما فيها الماء الجاري المجلوب اليها من عين بظاهر المدينة حمل ماؤها الى المدينة على نحو خمسمائة قوس من عمل المسلمين

---

1 – احتراز من الريحان البرى الذى ينبت بدون معالجة ولا يطول بخلاف المغروس فى البساتين التى يجعل حول « احواض » الازهار يحيط بها ويقص بكيفية مستوية .

رحمهم الله وللمدينه المذكورة السور والدور (1) من ثلاثة أرباعها والرابع الرابع ليس فيه الا السور استغنوا عن السور الثاني بالوادي الكبير لانه قريب من المدينة ومن تلك الناحية جدا وقد كان في القديم حين يكثر فيه ماء المطر يلحق سور المدينة فبنوا على حاشية الوادي بلاطات من تخوم الارض تمنع الماء من اللحوق الى سور المدينة ، وقد أخبرني حاكم هذه المدينة أنه فيما تقدم حمل هذا الوادي بكثرة الامطار حملا كبيرا فهدم سور المدينة وذهب بآلاف عديدة من أهل البلد .

وباشبيلية ديار كثيرة وعمارة متصلة خارجة عن السور وقد خرج من هذا الوادي الكبير خليج حين يكثر الماء في الوادي يمتليء ذلك الخليج فبنوه بالبناء المحكم ونصبوا عليه خمسة قناطر وصار هذا الخليج حصنا للمدينة من احدى جهاتها والوادي من جهة أخرى

وباشبيلية دار كبيرة مثل القصبة لها أربع حلق (2) لكبرها في حيطانها من السراجب والطيقان لادخال الضوء مائتان وخمسة وسبعون وفيها من المخازن الكبار مالا يعد يسمونها دار عشبة طابة لان نفع هذه العشبة مقصور على عظيمهم مثل الملح وغير ذلك من المسائل فلا يقدر احد ان يتعاطى فيها بيعا ولا شراء ومن ظهر عليه شيء من ذلك يعاقب العقوبة الكبيرة وربما ينفى الى سبتة او غيرها ويبقى بها سنين عديدة بالاجتهاد كما هي

---

1 – لبعض المدن المغربية سوران يحيطان بها الاول يلي بنايات المدينة مباشرة وبخارجه تتخذ البساتين والجنان وتحاط هي بدورها بسور ثان لحفظها يقال له الدور . ويسمى محل خارج باب سيدى ابى جيدة بفاس بين السور والدور .

2 – الحلق جمع حلقة وهى فى الاصطلاح المغربى عبارة عن الفضاء الذى تدخل منه الشمس والنور الى المنازل حيث ان الدار المغربية تبنى حجراتها وغرفها حول ساحة لا سقف لها فاذا طلعت الى سطح المنزل أمكنك ان تطل من الحلقة على وسط الدار ويبنى حائط قصير حول الحلقة للوقاية من السقوط وكثير من هذه الحلق تحفظ كذلك بقضبان من حديد على شكل شبابيك أفقية

عادتهم في اهل الجرائم ولقد رأيتهم يطبخون العشبه الخبيثه بالارحيه على شكل معاصر الزيتون فلم يمكنني عدة الارحيه وهم أي الارحيه مصطفون وكل رحى موكل به أصحابه يجعلون طابة اول مرة مقصوصه في الرحى الاولى ولهم الواح من الحديد يدفعون بها الى حجر الطحن ما لم يصله من العشبة المذكورة ويخرجون مادارت عليه الرحى بتلك الالواح ويضعونه في رحى اخرى ملاصقة لها وينقلون من تلك الرحى الى رحى اخرى وينقلون الى أرحية عديدة حتى يصل الغاية التي يغربل فيها الا انه لم أدر بكم يكتفى بذلك من الارحية لانه لايقدر احد ان يقف بذلك الموضع الا ان تكون له مخالطة بتلك العشبة الخبيثة وقد كادت ان تخرج أرواحنا في لحظة من كثرة الغبار فخرجت فارا بنفسي الا انه هنالك من الارحية عدد كثير لم يمكنني عده ومن الغرابيل كذلك عدد كثير والموكلون ندلك واقفون عند الميزان يزنون ويجعلون في الخناشي (1) وهم في تلك الدار في شغل شاغل ، ولقد اخبرني الحاكم ان في تلك الدار من الخدامين أكثر من الف ، فبعضهم يقطع العشبة وبعضهم يطحنها في الرحى الاولى وبعضهم في الثانية وبعضهم في الثالثة وأرحية متعددات على هذه الحالة كثيرة وبعضهم يغربل وبعضهم يزن وبعضهم يصنعون صنادق صغارا من القزدير (2) منهم من يسع رطلين وثلاثة وأكثر بقصد أن تجعل فيها طاباقوا (3) وتسافر لجميع البلدان ، ولقد ادخلنى القيم على تلك الدار مخازن كبيرة متعددات مملوءة من الارض الى السقف بالصنادق المذكورة مملوءة مما ذكر حتى سئمت وادخلني موضعا مملوءا دفاتر فيها حسابات الدار المذكورة واحصاء

---

1 – الخناشى جمع خنشة وهى وعاء من ثوب لحمل الدقيق والقمح وما شابههما والاصل من اللفظة العربية الخشاش للجوالق من مادة خش دخل فى الشىء وقد حل الادغام فى العامية وعوضت الشين الاولى بنون .

2 – القزدير معدن يلحم به وتتخذ منه آنية وفصيحه قصدير واللفظة من الدخيل

3 – انظر التعليق 2 ص. 28 قبله

داخلها وبه قوم موكلون باحصاء ذلك ، وبالدار المذكورة مخازن لوضع الاقامه لخدمه ذلك ، ولقد سألت القيم على الدار المذكورة كم يكون مدخول الطاغية في كل شهر من هذه العشبة فقال نحو الخمسة ملايين من الريال (1) بعد اسقاط اللوازم والخدامين وغيرهم والمليون هو عشرة مائة الف ريال واخبرني أن عنده في الدار المذكورة في الوقت الذي كنا فيها عشرون مليونا من أرطال طاباقوا بحساب ريالين للرطل فيجب فيها من الريال أربعون مليونا ، وما رأيت أشقى ولا أتعب من أهل هذه الدار كأهل النار «وجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قتره أولئك هم الكفرة الفجرة» لاكنني احتملت ذلك فملت الى أن أخبر خبرهم ، وأعرف عجرهم وبجرهم ، ورأيت أن لا تنييف ، على من ياتي الكنيف .

وباشبيلية دار السكة وهي في غاية الكبر وفيها قوم موكلون بها ساكنون فيها بديارهم متأهلين بأولادهم ولهم فيها من الالآت والنواعير والدواليب عدد كثير ولا كلفة عليهم في الخدمة لان جل خدمتهم بالحركات ولقد رأيت عند رجل من القيمين على دار السكة وهو بمنزلة الامين (2) عندنا ميزانا صغيرا يختبر به السكة ويعلم به المقدار الذي يزاد في السكة من النحاس وما رأيت اغرب من ذلك الميزان ، وقد وضع في احدى كفتيه مقدار جناح بعوضة من الكاغيط (3) ونزلت الكفة التي فيها الكاغيط الى الارض . وبالدار المذكورة بيت آخر فيه رجل مقابل لنقش الطوابع وحفرها واصلاحها وليس له شغل غير ذلك ، وهي دار كبيرة كل من يتوقف عليه

---

1 – الريال كما قدمنا كان يساوى الفى فرنك من سكتنا اليوم فيكون الدخل الشهرى على هذا عشرة ملايير وهو شيء كثير

2 – الامين أى المؤتمن على مال الدولة وقد كان هذا اللفظ في النظام الادارى المالى بالمغرب يطلق على الموكل بالخزينة وبكل ما يرجع للمال قبضا وصرفا لذلك كان هناك أمناء كثيرون كأمين الديوانة وأمين الصائر الخ . وكان وزير المالية يدعى أمين الامناء .

3 – الكاغيط هو الورق واللفظة تحريف للكلمة العربية الدخيلة كاغد بفتح الغين وهي فارسية الاصل .

شيء من أمور السكة ساكن فيها بداره مستوطن باولاده وهذا كله من شدة اعتنائهم بالامور

وباشبيلية دار معدة لصنع المدافع الكبار والمهارس وبها من الحركات والالات ما يقصر عنه الوصف ، وهذا كله مما يدل على ضخامة اشبيلية وتأثلها في الحضارة أعادها الله تعالى بمنه دار اسلام ولقد طلب منا جميع أهل الحرف المذكورة أن نقيم يوما أو يومين لنرى صنعهم وحرفهم فقلت لهم لا يمكننا المقام بموضع او نبلغ أمر مولانا امير المومنين وان قدر الله تعالى برجوعنا من عندكم نتدارك مافات ان شاء الله

وسافرنا من اشبيلية يوم الاثنين الثاني عشر من ذي الحجة سنة ثلاث وتسعين ومائة والف (I) بعد ان أقما بها يومين ، وتوجهنا منها فخرج جميع اهل البلد خصوصا وعموما لتشييعنا وخرج الحاكم فرجع اهل البلد وتوجه معنا الحاكم نحو ساعة وودعنا ورجع وقد رأينا من بشاشة اهل اشبيلية وترحيبهم امرا عظيما فنطلب الله تعالى ان يهديهم الى الصراط ألمستقيم ومنذ خرجنا من اشبيلية ونحن سائرون في الزيتون عن يميننا ويسارنا في ارض بسيطة ذات حجارة كثيرة ونباتها شجر الضرو والسكوم المعروف ببلدنا وما أشبه ذلك حتى اشرفنا على مدينة قرمونة (2)

مدينة قرمونة أعادها الله دار اسلام

فلما قربنا منها بنحو ساعة خرج أهلها وأعيانها لملاقاتنا وخرج خليفة الحاكم في كدشه ونزل منه وسلم علينا وادى سلام الحاكم نائبا

I — الموافق ليوم 20 دجنبر 1779 م .

2 — بالاسبانية Carmona واسمها اللاتيني القديم Carmo وهي مدينة فى الشمال الشرقى من اشبيلية بينها وبين استجة فى الطريق المؤدية الى قرطبة وتبعد عن اشبيلية 32 كيلو ميترا . وفيها اليوم من السكان نحو الثلاثين الفا وهى فوق كدية تشرف على مزارع خصبة ـ وقد كان لها ذكر أيام المسلمين وقد استرجعها الاسبان سنة 1247 ميلادية

عنه وقال انه واقف بباب الدار المعينة لنزولنا مع من بقي من الاعيان الذين ضعفت قواهم عن الخروج وطلب منا الركوب في كدش الحاكم لانه بعثه بقصد ذلك فأجبناه الى ماطلب على مقتضى قوانينهم واعراف بلدهم ودخلنا المدينة على ست ساعات من اشبيلية فاذا هي مدينة متوسطة الى الصغر اقرب وهي على ربوة مشرفة على بسيط من الارض وبها بقية آثار المسلمين رحمهم الله مثل السور والبنيان وقد احدثوا ديارا كثيرة خارجة عن سور البلدة لا سور لها كما هي عادتهم في جميع بلادهم ليس لها اسوار ولما وصلنا الدار المعينة لنزولنا وجدنا حاكم البلد ومن بقي من الاعيان وقوفا بالباب وقد اوقدوا من الشمع عددا كثيرا حتى استنارت أزقة المدينة وقد كنا دخلناها ليلا وأظهر الحاكم وأهل بلده من الفرح والترحيب بقدومنا ما اظهر وادخلنا دارا كبيرة اعتدوا فيها غاية الاستعداد من فرش وبسط وجميع الاقامة وكل ما يظهرون من ألفرح والاكرام يقولون هذا قليل في حق سيدنا ومولانا أمير المومنين ؛ وأهل هذه البلدة اهل فلاحة وحراثة وليس لهم تأصل كثير في الحضرية وفي ديارها بقية آثار المسلمين رحمهم الله في بعض حيطانها فبتنا بها في تلك الليلة ومن الغد خرجنا منها بعد ان شيعنا اهلها فانحدرنا منها في مسالك وعرة ذات احجار كبيرة كثيرة حتى ان جل اصحابنا نزلوا من الاكداش يمشون على ارجلهم لصعوبتها وقد رأيت النصارى شرعوا في تسويتها ، وأنزلوا الاقامة اليها لتمر بها الاكداش بسهولة لان لهم اعتناء كثيرا بتسوية الطرقات وصنع القناطر حتى انهم اذا رأوا مكانا يكثر فيه الطين يصنعون الطريق بوسطه ويبلطونها (1) بالتراب الاحرش (2) والجير والحجارة كما هو مشاهد في بلادهم كلها ، وحوز هذه البلاد

---

1 – بلط الارض فرشها بالبلاط وهو الحجارة التى توضع فوق الارض بالمنازل وبالطرقات ثم تسوى .

2 – الاحرش الذى فيه خشونة فلا تنزلق عليه عجلات العربات عند ما يتم رصف الطريق بالحجارة .

جيد وكله ارض فلاحه وحراثه وترابها أسود تيرس (1) من أفضل البلاد وكلها محروثة ودخلنا في غابة من الزيتون متصلة يميما وشمالا الى أن وصلنا دارا في الطريق معدة للضيوف على خمس ساعات ونصف من قرمونه وحولها مدشر فيه برج من بقية المسلمين رحمهم الله بالقرب من الدار المذكورة ووصلنا مدشرا جديدا احدث منذ ثمان سنين وأثر الحضارة لائح على دياره وأهله ومررنا بوسط المدشر المذكور في طريق مستقيمه بلاطا واحدة في غاية الاستقامة الى ان اشرفنا على مدينة اسيخة (2) على ساعتين وجلها عامر والديار على حاشية الطريق بين كل دار والاخرى نحو مائة خطوة نزائل على الطريق تانيسا للمسافرين وهذه البلاد كلها مغروسة بالزياتين متصلة منذ انفصلنا عن ارض حراثه قرمونه الى ان اشرفنا على اسيخة .

مدينة اسيخة أعادها الله دار اسلام

ولما أشرفنا عليها خرج اهلها لملاقاتنا واصحبوا معهم الخدامين وجميع ما عندهم من آلات اللهو والطرب وتقدم الينا جماعة من اعيانهم فسلموا علينا وقالوا انهم وردوا نائبين في السلام عن جميع بلدهم واصحبوا معهم كدشا لركوبنا فتعللت فقالوا لابد ان تركبه لاننا فرحون بقدومكم بل جميع بلاد اصبانية فرحون بخاطر سيدنا ومولانا وبرضاه عنهم . فركبنا وتوجهنا الى المدينة المذكورة فاذا هي مدينة متوسطة الى الكبر

---

1 – تيرس كلمة مغربية تطلق على التراب الجيد الصالح للزراعة وهو تراب لا تخالطه حجارة شديد السواد .

2 – اسمها الاسبانى Ecija والعرب يسمونها استجة من الاسم اللاتينى القديم Astigi وابن عثمان كما قدمنا يسمي كل الاعلام الجغرافية كما يلفظها الاسبان الا فى ما قل من المدن الكبيرة الشهيرة كاشبيلية وقرطبة وغرناطة ـ واستجة هذه فى جنوبى قرطبة بينهما 56 كيلو ميترا ولا تزال بها آثار عربية قيمة وهي على وادى شنيل

أقـرب فوصلنا الدار المعدة لنزولنا بين العشاءين واذا ببابها موقـود من الشمع ماصـير الليـل نهـارا ولـم يبق بالمدينة صاحب لهو ولا طرب الا وحضر بالباب المذكور واما النساء والصبيان فشيء لايحصى ولـما وصلنا البـاب المذكـور رفـع جميـع من حضره اصواتهم بذكـر مولانا امـير المومنـين ؛ فدخلنا الدار المذكـورة فـاذا بهم استعدوا فيها غـايـة الاستعداد من الفـرش وأنـواع الاقـامـة وأوقدوا فيها من الشمع مالا يحصى ، فجلسنا بالمـوضـع المعد لنـا وجلس معنا خلق كثير من الاعيـان وجعلوا ياتـون أفـواجـا افـواجـا ، فرادى وأزواجـا ، لـرؤيتنا والسلام علينا حتى امتلات الدار نساء ورجالا ، وبعـد ذلك بيسير وردوا بشيء كثير من الحلاوات فناولوها جميـع مـن حضر بالدار ، كل ذلك فـرحـا وترحيبا منهـم بنا ويذكرون انهـم ما فعلوا الا ما أمـرهـم بـه عظيمهم ويعتذرون في التقصير كلما بالغـوا في الاكـرام ، وورد علينا في ذلك الجمـع الخزندار الـذي على بيت المـال بتلك المدينـة وسلـم ورحب وقـال انـه عنـده امـر عظيمـه أن يكـون عند أمـرنا ببلده وان ينفذ جميـع ما أمرناه بـه كـل ذلك اعتنـاء بقـدر سيدنـا ومولانا فقلت «قـد علمنـا بهـذا ومـا انتـم عليـه من المحبـة في جـانب سيدنا ومولانا أمـير المومنـين ونحـن لانحتاج من فضل الله الى شـيء وقـد أغنانـا الله تعالى بسيدنا ومولانا» وقـد ورد علينا بتلك الليلـة الضامـات نساء الاكـابـر بقصد السـلام علينـا وأحضرن الموسيقى لان لهـم اعتناء كبـيرا بها واستعملوهـا بمحضرنا ورقصن الضامات كلهـن مـع اكـابر البلد نساء ورجـالا كـل ذلك اظهار لفرحهـم . وقد سألت أكـابر البلد هل بقي هناك أثـر من آثـار المسلمـين رحمهم الله فبحثـوا فوردوا بشيء قليل من سكـة المسلمين ودنانير وريـال صغير وفلـوس مكتـوب فـي بعضها آيات قـرءانية واسـم الجلالة واسم النبي صلى الله عليه وسلـم فتاقت نفسي لانقـاذ الاسـم الشريف مـن أيديهـم بمعـاوضة فأعطـوني بعض ذلك وامتنعوا من قبض العـوض لان مثل هـذه الامـور القديمـة ولا سيما أمـور المسلمـين لهـم اعتناء بهـا كبـير ولا يكادون يسمحـون بها بوجـه من الوجوه ويتوارثـونها سلفـا عـن خلف ، وقـد رأيت سكينا عند احـد نصارى اشبيلية

فراودته على بيعها وأعطيته فيها مائة مثقال (1) فامتنع وقد ذكر لي غيره أنهم لحقتهم قبل فاقة كبيرة فراودهم الغير على بيع السيف المذكور فامتنعوا وهؤلاء النصارى من شدة فرحهم بنا وردوا بتلك الدريهمات نحو العشرة على سبيل الهدية والمبالغة في الاكرام ، لعظمها عندهم ، وورد علينا نصراني من أعيان البلد فسلم علينا سلاما كثيرا وأظهر فرحا كبيرا ، وقال انني سمعت أنك تبحث عن بقية آثار المسلمين وأنا من اولاد قردناش واتى بي اليكم الشوق الى لقائكم والشوق الى نظركم ومعه أخته بنت صغيرة فنقضين العجب من ذلك ، ولكنهم غلبت عليهم الشقاوة والعياذ بالله ولا حول ولا قوة الا بالله ورأينا حجرا مكتوب عليه بسم الله الرحمن الرحيم امر بانشاء هذه السقاية السعيدة امير المومنين المؤيد بالله هشام بن الحكم تاريخها شهر المحرم من سنة سبع وستين وثلاثمائة (2)

ومن الغد خرجنا من المدينة المذكورة فاذا بها عمارة كبيرة امتلأت أزقتها وجميع سككها وسطوح دورها نساء ورجالا وخرج معنا أعيان البلد لتشييعنا وتأملت المدينة حينئذ فاذا أكثر حيطانها من بناء المسلمين رحمهم الله ، وأزقتها ضيقة على هيئتها التي تركها المسلمون عليها ، وانفصلنا عن المدينة المذكورة في ازدحام كبير لان لهم بشاشة وطلاقة ويظهرون من التودد نساء ورجالا مالا يوصف ، وفي نسائهم من الحسن الباهر والمعنى الزهي الزاهر ما اختصهم الله تعالى به دون سائر من رأينا من بلاد الاندلس ، حور مقصور عليهن الحور . وباب المدينة ملاصق لها الوادي المعروف بشنيل الجائي من حضرة غرناطة وعليه قنطرة مشيدة محكمة وهو للمدينة المذكورة كالسور من تلك الناحية وفي طرف القنطرة باب يحوز القنطرة الى المدينة وعلى الوادي من الارحية عدد كثير وهو بسيط من الارض له منظر زاهر وحسن باهر وأرجاء هذه البلاد منفسحة وكلها مزارع

---

1 – أي نحو 700 درهم من سكة المغرب الحالية

2 – شهر محرم سنة 367 موافق 19 غشت ـ 17 شتنبير سنة 977

محروثة عن آخرها لانها تيرس بلاد جيدة ولها من الزياتين مالا يعد ولا يحصى فمنذ خرجنا من هذه المدينة والزيتون مصاحب لنا الى ان وصلنا مدشر قرليطة (1) على ثلاث ساعات من المدينة في عرض غاية البصر ، وفي الزيتون المذكور من الديار مالا يعد لان كل جنان بداره والمعصرة في الغالب وقد مشينا بقية يومنا في عمارة متصلة وبتنا بالمدشر المذكور ، وورد علينا جميع سكانة للسلام نساء ورجالا وسيما الحضارة لائح عليهم فبحثت عليهم فاذا أكثرهم من أهل اشبيلية واسيخة لهم ديار بالمدشر المذكور وأجنات هنالك ويردون عليه بقصد الاستراحة والتنزه

ومن الغدسا فرنا من المدشر المذكور في عمارة متصلة وغابة متصل نباتها أخبرني القبطان كبير الخيل التي توجهت معنا من قالص الى مادريد ان هذه البلاد كانت مخوفة يقصدها اللصوص ويقطعون بها الطريق لا يسلكها احد الا بمخاطرة ومن اجل ذلك عمرها الطاغية بهذه الديار التي ترى عن يمين الطريق ويسارها ملاصقة لها وهؤلاء القوم الذين أنزل الطاغية على هذه الطريق يعطى كل واحد عددا من الغنم معلوما وعددا من الدجاج ويبتني له الدار ويعطيه الزرع وثورا للحرث ويحط عنه المغرم ثمان سنين حتى يستوطن ويتأهل وقد كانت هذه الغابة ملتفة غاية فعمد اليها الطاغية وحطب جلها ولم يبق بها الا شجر الكروش (2) وحطب ماعداه فلا يمكن لاحد من اللصوص ان يتستر فيها ، ولما

---

1 – بالاسبانية Carlotta وهي قرية صغيرة أسسها كارلوس الثالث بقصد التعمير الزراعى لتلك الناحية . وهي بين استجة وقرطبة وتبعد عن العاصمة الاموية 30 كيلو ميترا جنوبا .

2 – شجر الكروش عند المغاربة هو ما يسمى السنديان عند اهل الشام وهو المسمى بالفرنسية chêne-vert وأصل كلمة كروش من اللاتينية Quercus

خـرجنا مـن الغابـة المذكـورة اشرفنا على مـدينـة قـرطبة وسرنا في ارض شمـاريخ (1) كثيرة الطين لا يسلك منه الا بمشقة نحو ساعتـين

مـدينـة قـرطبـة أعـادهـا الله دار اسـلام

ووصلنا قرطبة (2) على خمس ساعات من المدشر المذكور وتلقان اهلهـ بظاهـرها نساء ورجـالا الى ان وصلنا المدينة فـاذا ببابها الوادي الكبـير المار باشبيلية وعليه قنطرة مـن عمل النصارى في غايـة الاتقـان لهـا ستة عشر قـوسا وقـد كانت قبل قنطرة المسلمـين رحمهم الله فهـدمهـا السيل وبنـى النصارى على أساسها القنطرة الموجـودة ، وفي الوادي المـذكور فلائك متعددات يعبر فيها أهل البلـد لان المدينـة امتدت مـع الـوادي والقنطرة قـريبة من طرفهـا الغربي فيبعـد على من هـو ساكـن بطرفهـا الشرقي أن ياتي الى القنطرة ليعبـر عليها فجعلت الفلائـك بسبب ذلك ، وهـذه المدينة مـدينـة كبـيرة حاضرة مـن الحواضر العظـام وهي دار ملك قـديـم للمسلمـين رحمهم الله وأثـر القـدم لائـح عليهـا ولا زالت حيطانهـا وأزقتهـا ضيقة على الحالة التي تركهـا المسلمـون عليها رحمهم الله تعـالى . ولمـا وصلنا الدار المعـدة لنزولنا وجدنـا ببابهـا من الخـلائق مالا يعـد ولا يحصى ولـم يبق صاحب لهـو ولا طرب الا وحضر بالباب المذكـور ومعهم جميـع الاعيان الذيـن ثقلـوا عـن الخروج للملاقـاة وحـين اشرفنا عليهم ضجـوا ضجيجا عظيما بـذكـر

---

1 – الشمراخ فى اللغـة هـو العثكـال وهـو العيـدان التي يكـون عليها التمـر فى النخيل وهو بمثابة عنقـود العنب فـى الكـرم ولاشك أنـه عبر بهـذه الكلمة عن شيء آخـر كانت تطلق عليـه هـذه اللفظـة فى عاميـة المغـرب فى وقته .

2 – هـذه العاصمة الجليلة لا تحتاج الى تعريف وانما نشير الى أنهـا تكتب بالاسبانيـة هكذا Córdoba وأنها بعـد جلاء المسلمين عـن الاندلس فقدت مقامهـا العظيـم وصارت مدينة صغيرة بالنسبة للعواصم الجديدة كمجريط وبرشلونة .

سيدنا ومولانا وأزال كـل واحد شمريره (1) عن رأسه وأظهروا من بشاشتهم وفـرحهم مالـم ينسبوا معه الى تقصـير وقـد اعتدوا في الدار التي نزلنا بهـا غايـة الاستعـداد بكثـرة الفـرش والبسط والاوانـي الفضيـة على مقتضى عوائدهم ، وورد علينا قـائد العسكـر بنحو خمسين من الشلظاظ بعلمهـم وطبولهم وأوقفهم في الباب ودخـل فسلم علينا وورد بعـده كبير البلد الـذي بيده الدخـل فسلم ورحب وقـال ان عظيمه امـره ، أن يكـون عند أمـرنـا ونهينا مـدة مقامنـا وان ينفذ كلما نامـره بـه فأجبناه بـأننا لانحتـاج الى شيء وان الله تعالى قـد أغنانـا بسيدنا ومولانا أمـير المـومنـين ولا أرب لنـا الا في رؤيـة المسجـد الجامـع فقال حبا وكـرامـة وغدا نتوجـه اليه فأصبحنا مقيمـين لاجـل رؤيتـه ، ولمـا قـرب الزوال وقـد كانوا أعلمـوا الـراهب القيم بأمره وغـيره من الفرائليـة (2) ، فتوجهت الى المسجد فما وصلنا اليـه الا بمشقـة عظيمـة من كثرة الازدحـام ، وحين دخلناه وجـدنا بـه مـن النساء والرجـال اكثر ممـا بخـارجـه ، ومشينا في ازدحـام كثـير لا يكاد الانسان يبصر ايـن يضع قدمـه ، فما وصلنا الى المحـراب الا بتعب كثير فما امكننى مـع اولئك القـوم رؤيـة ولا غـيرها وما كنا نفكـر الا كيف يكـون السبيل في خـروجنا فجعـل الحاكـم واصحاب شرطته يبعـدون النصارى عنا يمينـا وشمالا ليجعلوا لنا مسلكا للخـروج ، وحيث لـم تمكننا رؤيـة المسجـد في ذلك اليوم مـع كثرة الازدحـام خـرجنا منه بمشقة عظيمة وقال لنا الفرائلي القيـم عليه غـدا ايتنا و نغلق الباب ، ولا يدخل احـد غيرك فأقمنـا يـومـا آخـر فـورد علينا الفرائلي وقـال ان النصارى دمـرهم الله عندهـم في هـذا اليوم عيـد وقد كنت أظـن ان يجعلـوه في كنيسة اخـرى فما شعـرت الا وقد دخلـوا المسجد . وأظهـر من النكـد ما ظهر أثـره عليه فاتفق رأي الفرائليـة

---

1 – الشمريـر هو القبعـة وأصله من الاسبانى Sombrero .

2 – الفرائلية جمع عربى للفظة فـرايلي الاسبانيـة Fraile ومعنـاهـا الراهب المنتسب الى طريقة خاصة من جماعات الرهبان الـذيـن يسكنـون الاديـرة

على أن ناتي المسجد ليلا وبعد العشاء من تلك الليلة توجهنا الى المسجد المذكور فوجدنا العسكر ببابه يمنع النصارى من الدخول اليه . ودخلنا المسجد وقد أوفدوا به من الشمع مالا يعد كثرة فاذا هو من اعظم مساجد الدنيا واسع الفناء ضخم البناء . دلت مبانيه على عظم بانيه رحمهم الله تعالى فتقدمنا اولا الى المحراب فاذا هو ابدع من كل مبتدع وأبهى من كل مستنبط ومخترع ، وهو كله من الرخام الابيض في داخله سبع صفائح من الرخام في طول قامة وعرض ستة اشبار ونصف في الواحدة. ومن فوق الصفائح المذكورة ما نصه بسم الله الرحمن الرحيم ، حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين . أمر الامام المستنصر بالله عبد الله الحكم (1) أمير المومنين أصلحه الله بتشييد هذا المحراب بكسوته بالرخام رغبة في جزيل الثواب وكريم المئاب فتم على يد مولانا وحاجبه (2) جعفر بن عبد الرحمن رضي الله عنه بنظر محمد بن احمد ابن نصر وخالد بن هشام أصحاب شرطته (3) ومطرف بن عبد الرحمن الكاتب (4) في شهر ذى الحجة من سنة أربع وخمسين وثلاثمائة (5) ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى ، والى الله عاقبة الامور،» ومن فوق ذلك مكتوب مانصه بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها الذين ءامنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم الى تشكرون

---

1 – هو الخليفة الاموى الحكم الثانى بن عبد الرحمن الثالث حكم من سنة 350 (961م) الى 365 (976 م) .

2 – كانت الحجابة فى نظام الدولة الاموية بالاندلس كرئاسة الحكومة فى وقتنا والحاجب كان له المقام الاول فى الدولة

3 – كان لصاحب الشرطة عند الامويين مقام ممتاز كذلك وكان كالوزير .

4 – الكاتب فى اصطلاح الاندلسيين والمغاربة قديما هو الوزير الذى يشرف على اصدار الاوامر المكتوبة والاطلاع على المكاتبات وعرضها على الخليفة وعلى حاجبه .

5 – شهر ذى الحجة سنة 354 وافق 28 نومبر – 17 دجنبر سنة 965 ميلادية .

ومن فوق ذلك يا أيها الذين ءامنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وانتم مسلمون الى تهتدون . وهذه الكتابة كلها مرسومة في الرخام وقبة المحراب من رخامة واحدة في غاية الاغراب واللطافة وقد اغلقوا خمسة أقواس أمام المحراب وحصنوا بها المحراب مثل آفراق (I) ألذي يصنع ببلادنا قوسان من الخمسة المذكورة أغلقوهما بالبنايات وثلاثة أقواس التي بالوسط جعلوا لها شبابيك من الحديد وفي أحد الشبابيك باب يفتح ويدخل منه الى المحراب وعلى البراح الذي بين المحراب وشبابيك الحديد قبة في غاية الغرابة سقفها قبة من الحجر في صنعة لطيفة وتحتها مكتوب بذوب الذهب في غاية الشراقة ما نصه بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها الذين ءامنوا اركعوا واسجدوا الى قوله تعالى ليكون الرسول شهيدا عليكم . فخرجنا من المحراب وطفنا بالمسجد ، فأخذنا في عد سواريه فأتعبنا ذلك تعبا شديدا لان النصارى دمرهم الله أحدثوا بيوتا عديدة وكنائس كثيرة لضلالاتهم وكفرياتهم طهر الله منهم البلاد مقتطعة من المسجد فكنا نبتديء الحساب من رأس المسجد فتلقانا احدى الكانئس فنعد من ناحيتها الاخرى فتلقانا كنيسة أخرى فيقع لنا الغلط ، فلما رءانا الفرائلي القيم على المسجد المذكور لحقنا من ذلك تعب كثير أخرج دفترا من احدى كنائسه وأملى علينا تكسير المسجد المذكور كما هو محقق عنده فذكر أن عرضه نعني من المحراب الى الباب الذي يخرج منه الى الممر وهو الباب الذي حذاء الصومعة

I – افراق بالمد فى أوله والقاف المعقودة في آخره واصل استعماله الاول لحاجز من قماش تحاط به سرادقات الملوك عند نزولهم مدة السفر. ثم استعير للمقصورة التى تحيط بالمحراب والمنبر في المساجد التى يصلى فيها الخلفاء والكلمة بربرية أصلها عربي من فرق .

مائتنان واثنتان مــن البارات (1) بحساب النصارى في كــل بارة ثــلاثــه أقدام واختبرتها فــاذا هي كذلك منها مــائــة واحدى وثلاثــون بارة من المحــراب الى العنــزة ، (2) ومنهــا احــدى وسبعون بارة هــو الصحن من العنزة الى بــاب المسجد وطــوله من الجــدار الذي عــن يمين المستقبل الى الجــدار الذي عــن يساره مائتان وستون بارة في كــل بــارة ثــلاثــة أقــدام ، وعــدد ســواري المسجد سبعمائة واحدى وثلاثون سارية (3) على كــل ساريتــين قــوســان قــوس فــوق قوس كلهــا من الرخــام الاسود والابيض والاصفــر ومن سواري البنيــان اثنان وأربعــون أحدثها النصارى لعلــة اصلاح وعــدد الاقــواس التي في عــرض المسجد عن يمــين المستقبل الى يساره تسعة وعشرون ، وقد اقتطع الكفــار دمرهــم الله من المسجــد المذكــور ستة وخمسين بيتا في دائرته وثمانية عشر بيتا أخــرى في كل واحــدة طبلــة (4) مفرقــة في وسط المسجد أعــدوها لكفرهــم وضلالاتهم ومخازن لوضع صلبانهــم الذهبية والفضية والذخــائــر

---

1 – البارة تساوى 67 سنتيميترا وهي بالاسبانية vara وعليه فطــول المسجد 175 ميترا وعرضه 135 وهذه هي مقاييس مسجد قرطبة الى الان بالضبط مما يدل على دقة ابن عثمان فى تحقيقاته واطلاعه العميق على المصطلحات الاسبانية وكل شؤون اسبانيا الحضاريه.

2 – العنزة في الاصل نــوع عكــاز أطــول مــن العصــا وأقصر مــن الرمــح ولــه زج من اسفل واذا أراد صاحب عنــزة أن يصلــي في الفضاء يــركزهــا في الارض أمــامه حتى لا يتخطــاه أحــد لذلك أطلقت لفظة العنــزة على خشبة عريضة شيئا مــا وطولها نحــو القامــة ولها قاعدة مــن خشب غليظ وتوضع في المساجد أمــام الامــام اذا صلى صيفا في صحن المسجد فعندهــا ينتهــي مسقف المسجد لذلك قال المؤلف : من المحراب الى العنزة .

3 – هــذا العــدد أقل من الواقــع حيث أن مــؤلف دليــل اسبانيــا بديكــر الشهــير يقــول يقــدر عــدد أعمــدة مسجد قــرطبــة بستــين وثمانمائــة ص 370 من طبعــة سنة 1920 ويقول مؤلف الدليــل الازرق ان عــدد اعمــدة مسجــد قــرطبــة خمســون وثمانمائــة تقريبــا ص. 674 من طبعة سنة 1952

4 – الطبلة لفظة دخليــة يــراد بها مائــدة عــاليــة يــؤكــل عليهــا أو يكتب عليهــا وتسمى منضدة وهنــا يقصــد بها مــا يسميــه المسيحيون مذبحــا أى الموضع الذى يقيــم بــه الكهنــة القداس.

الجوهريـة من الاواني المرصعـة باليواقيت على اختلاف الوانهـا وأنواعهـا وقـد أدخلني الفرائلي قيم المسجد المذكـور الى جميع كنائسه وموضع كفرياته وأرانـا جميـع ما عنده من الصلبان والصور والتماثيل التي هـم لها عاكفون قبحهم الله وطهر منهم ذلك المسجد وعمـره بـذكره فالتفت في احـدى الكنائس فنظرت الصليب عليه صورة نبي الله عيسى عليه السلام في زعمهـم الفاسـد دمـرهم الله فلـم املك نفسي أن قلت لـه هـذا محض كـذب وافتراء لـم يقع بنبي الله شيء مـن هـذه المثلة بـل منعه الله تعـالى منهـم ورفعـه اليـه وما قتلوه وما صلبوه ولكـن شبه لهـم فـأخـذ في الجـدال والتصميـم على البـاطـل فخشيت ان أجـاريـه في الكـلام لايطلعني على أحـوال المسجـد المذكـور فأعرضت عنه وأخـذت في حديث آخـر مـع يقيني بـأنه لايقبل الحق ـلا تسمح نفسه بالدنيا التي جعـل تلك الخطـة التي بيده أحبولتـه لصيدها، وقـد رأيت عندهم في بعض الكنـائس مـن الاواني الفضيـة مالا يعـد ولا يحصى فمن ذلك منـارة من الفضة ذكـر أن زنتهـا تسعـة عشر ربعـا مـن الفضـة ثم ست حسك (1) من الفضة كأنهن سوارى من الرخام حقيقة وما يشاكل ذلك كثيرا ، وأبـواب المسجد المذكـور ستـة عشر بابـا وفي صحن المسجـد مـن شجـر النارنـج سبعـون وشجـرة زيتـونـة واحـدة ومـن شجـر السرو تسعة ومن النخيل ثلاثة وفي وسط الصحن أيضا صهاريج ماء لـه خصـة (2)

1 – حسك جمـع حسكة وهي في الاصطلاح المغربى الشمعدان سواء كانت لحمل شمعـة واحـدة أو أكثـر .

2 – الخصة وتجمع على خصص وخصات هي حـوض مـن رخـام أو حجـر مستديـر ومرتفـع عن مستوى الارض وفى وسطه أنبوب يتدفق منه المـاء وتكـون الخصة في القصور الكبـيرة والرياض الفسيحة وسط صهريج مستدير او مربـع او مستطيـل وربمـا اتخـذت فيه عـدة خصات اذا كـان كبـيرا

بوسطـه عالية عليه وفي أركـان الصهريـج المذكـور أربـع قبب صغار خارج من كـل واحـدة أنبـوب مـاء ، وبالصحن أيضا أربـع خصص على كل واحدة شباك من الحديـد محيط بها ولكـل واحـدة قفـل ، وقـد أحـدث النصارى بوسط المسجـد بـين المحـراب والعنـزة قبة كبـيرة اتخـذوهـا لصـلاتهـم وضلالتهم وفيها ءالات الموسيقى وهي أكبر الكنائس الذي أحـدثـوا في هـذا المسجد وهي في غـايـة العلو ولها شبابيك مموهـة وقـد دخلناها ورأينا جميع مابها من كفرياتهم أهلكهم الله ، وعنزة هـذا المسجد لم يكن مثلها في مساجـد الاسلام في علـو السمك والنقش الغريب ويقابلها الصومعة وهي بازاء بـاب من أبـواب المسجد يتركها الخارج عن يساره وليست غايـة في العلـو كمنار اشبيلية وطليطلـة وقـد ذكـر الفرائلي أن علوهـا مائتان وخمسة أقـدام وقد جعلـوا فيها من الاجـراس أي النواقيس ستـة عشر ، وقـد أحدث النصارى تحت سقف المسجد المذكور قبـوا مبيضا فسألت الفرائلي هل هكـذا وجدوا سقف المسجـد ، فذهب معي الى موضع بالمسجد ليس بـه قبو فـاذا بالسقف من الخشب على هيئة سقف مساجد الاسلام ، وقـال انما احدثـوا هـذا القبو لان المسجد غـايـة في ألكبـر وعلو السمك ، وقـد كان مظلما فـأحدث لـه هـذا القبـو ليستضيء المسجد ويكثر ضوءه بسبب ذلك نسأل الله تعالى أن يمحـو منه ظلمـات الكفـر ويضيئه بتلاوة كتابـه العزيـز ، ومن بديـع أثر هـذا المسجد وافـراط علـو جدراتـه ، أن جعلوا لـه خارج سـوره سواري مـن أصل السور غايـة في العظم والضخامـة ترصيصـا لبنـائـه واحكـامـا لـه ويدور بالمسجد المذكـور من خارجـه محيطـا بالسور والسواري المعينـة لـه بـلاط من أصل السـور في عـرض ثـلاثـة عشر قـدمـا من احدى جهاتها وأقـل من بعض الجهـات وعلو قـامـة وأكثر احتفـاظـا للمسجـد لافراط علو جـدراتـه وشهرة هـذا المسجد بذكـره الذي طبق الآفاق تغنـي عـن الاطنـاب في وصفـه ، وناهيك بمسجد ليس في معمـور الارض مثله الا المسجد الاقصى وقـد قيـل ان مسقف مسجـد قرطبة أكثر من مسقف المسجـد الاقصى

وأول مـن اختط هـذا المسجد العظيم الامـام عبـد الـرحمن الـداخـل (1) ابن معـاويـة بن هشام بـن عبد الملك بن مروان وسائر ملوك بني أمية مـن بعده زادوا في المسجد المذكـور كل على حساب ماقـدر له الى زمـان المنصور ابن ابي عـامر فقد زاد فيه زيادة كبيرة وكانت مدة الخدمـة في الـزيادة التـي رادها المنصور ثلاث سنين آخرها سنة أربـع وثمانين وثلاثمـائة (2)

وعلى وادي قـرطبة وهـو الوادي الكبـير مـن البساتين وأراضي الحراثة والعزائب (3) لنتاج الخيل ما اختصت بـه قـرطبة عـن غـيرها مـن سائـر البلاد الاندلسية لان خيل قـرطبة وعملها هي عند النصارى أشرف خيـل بلاد اصبانيـة عـن آخـرهـا ومـن أجـل ذلك منع طـواغيهم المتقدمـة أن ينزو أحـد حمـارا على فرس ومن ظهـر عليه شيء من ذلك يعاقب العقوبة الشديدة ولا زالوا على ذلك الى الآن ولقـد رأيت بقرطبـة دارا كبـيرة مـربوطـة فيها خيـل الطـاغية في غايـة الاتقـان وهـذه الدار هي بمنزلة الاسطبل مربوط فيها فحـول الخيل المعـدة للنـزوان وكل فـرس مكتوب اسمه في خشبة مسمرة أمـامـه ، وفي هـذه الـدار من الاسطبلات المعدة لربط الخيل كثـير والقيـم

1 – عبد الرحمن الداخل هو مؤسس الدولة الامويـة بالاندلس ويلقب بالداخل لانـه هـرب من العباسيـين بالمشرق وجـاء للمغـرب حيث قضى خمس سنوات يستعد للمـرور لاسبانيا والاستيـلاء عليها وقـد تـم لـه مـا أراد ودخلهـا منتصرا وأسس دولـة بلغت الحضارة فى عهـدها مقاما عظيما ، حكم 33 سنة اخـرهـا سنـة 788 م .

2 – سنة 384 ابتدأت يـوم 15 يبرايـر 994 وانتهت يوم 5 يبرايـر سنة 995 مـن التـاريخ الميـلادى

3 – عـزائب جمـع عزيب وهو فى الاصطلاح المغربى أرض الحـراثة فى الباديـة مـع مراعي المـاشية وأمـاكـن السكنى للفلاحـين القائمـين على العزيب وأحيـانـا سكنى صاحب العزيب نفسه. وأصل الكلمـة من أعزبت الابـل بعـدت فى المـرعى لا تـروح وأعـزب الرعـاة أصابوا العـازب أى الكـلا البعيـد ، والعزيب يكـون طبعا بعيـدا عـن المدينة ويقـول المشارقـة للعزيب عزبة ـ والعزاب عند المغاربة القائـم على العـزيب .

على هـذه الخيل والناظر في أحوالهـا ساكـن في الدار المـذكـورة بأولاده مستوطـن بها هـو وجميـع أصحابـه الذين يباشرون الخيـل على عـدد الخيل فكـل فـرس يقابله صاحبه ان صلح فلـه وان فسـد فعليـه وأمـا البغال فانمـا ينتجـونها ببلاد مانشة (I) كما سياتي ان شاء الله .

واهل قـرطبة أهل فـلاحة وحـراثـة وقرطبة على كبرهـا فيها ستـة عشر سقايـة للمـاء لان بلاد الاندلسية كلهـا قليلـة المـاء فلـم نر لهـم حرثـا على ساقية منذ دخلنا بلادهم وانمـا حـرثهم على البعل (2) الا ما يذكـر عـن غـرناطـة وعملها وأمـا القصبة المشهورة بقرطبة التي كان فيها سكنى ملوك بني أميـة فـلا زالت على حالها نعني أسوارها قائمـة وكذلك أبراجها غايـة في العلـو مقابلـة للمسجد الاعظـم الا أن البنـاءات التي بداخلها لـم يبق لها أثـر وهـذه القصبة هـي اليـوم معـدة لاحـراق اليهـود وفيهـا نصـارى ساكنون بقصد احـراق من يطلـع عليه في بلادهـم من اليهـود يعني اذا كان نصرانيا على ديـن النصرانية ثـم انـه رجـع الى ديـن اليهود في باطنه واطلع عليه فـانـه يحبس ويحصن عليه جميـع ما يملك حتى يبحثون في أمـره البحث التام فـان حققت عليه الدعـوى فانهـم يراودونه على أن يرجـع على ديـن النصرانية ويتوب ، فـان رجـع فانهـم يجعلـون له عـلامـة على كتفيـه يتميز بها حتى يعلم اهل البلد كلهـم أنـه كـان يهـوديـا في الباطـن وتاب ورجـع الى ديـن النصرانية وان صمم على ديـن اليهودية ولـم يرد الرجـوع الى ديـن النصارى فانهـم يحرقونـه ، وأمـا اذا اطلع على يهـودي مـؤصل فـي اليهوديـة فـانهم يحكمون عليه بحسب مايؤديـه اليه اجتهادهم وينفونـه

I – ننطـق بالاسبانية مـانتشـا (Mancha) وهـي ناحيـة منبسطـة وسط اسبانيا اشتهـرت فى الادب بروايـة سرفـا نطيس التى تقـع بهـا حـوادث بطلهـا دون كيخـوطـي دي لا مـا نتشـا

2 – البعل كلمة فصيحة وهى الارض التى لا تسقى بماء الانهـار او العيـون او نحـوهـا وانمـا تنتـج فقط بمـاء السماء . وبهذا المعنى تستعمل هـذه الكلمـة فى المغـرب فيقـال ارض بعليـة وارض سقـويـة .

من البلاد ولا يجبرونه على الدخول في دينهم وهذا الادب الذي يؤدبونه بحسب ما يحكمون به باجتهادهم وديوانهم (1) حيث دخل بلادهم مختفيا ومعلوم أنه لا يدخل بلاد اصبانية أحد من اليهود فلمخالفته لذلك توجه عليه الحكم ، وأما ان أراد يهودي الدخول في الظاهر فيمكن أن يعطوه الاذن في الدخول ان كان سببا قويا ويلزمونه من العسكر من لايفارقه الى أن يخرج من بلادهم والسبب في عدم دخول اليهود اصبانية هو أنهم لما كانوا فيها كانوا يقتلون الصبيان الصغار خفية فكل من قبضوه وخلوا به يقتلونه واطلع عليهم في ذلك مع ماهم معروفون به من الغش والتدليس واعطاء المعاملة بالربا فاتفق رأيهم وديوانهم على أن يخرجوهم من بلادهم وذلك في زمن فرناند الخامس ولهم الآن ديوان معلوم يسمونه الانكستيون (2) بقصد الفحص عن من يلمز باليهودية وان اطلع على أحد فيه شيء من ذلك فلا يمنعه أحد كائن من كان ولو كان الطاغية نفسه . ولما كنا

---

1 – الديوان هنا ديوان التفتيش (انظر التعليق بعده) ولفظة الديوان فى الاصل فارسية بمعنى مجتمع الاوراق ثم اطلقت على الدفتر الذى تسجل فيه عطايا الجيش ثم الجبايا ثم كل المسائل الادارية واستعير بعد ذلك للاشخاص الذين يجتمعون للتداول فى شؤون ادارية او سياسية او نحوها واستعير فى البلاد المغربية للمحل الذى تسجل فيه السلع الداخلة والخارجة والاداآت التى تدفع عنها وقد أخذه الغربيون بهذا المعنى فقال الاسبان Aduana والفرنسيون Douane – وزاد الغربيون معنى وهو الكرسى الوثير الذى قدروا أن اصحاب الديوان يجلسون عليه فقالوا Divan كما أن العرب استعملوا الديوان بمعنى السجل الذى تقيد فيه انتاجات الشعراء

2 – يعنى بالاسباني inquisición وهو نظام شديد كان اتخذه النصارى فى اوربا لمطاردة اصحاب العقائد المخالفة للمذهب الكاثوليكى الرسمى . وقد أذاقت دواوين التفتيش جميع انواع العذاب فى جل بلاد اوربا وخصوصا فى اسبانيا لكل من كان لا يرى رأى القسيسين والرهبان وقد أصاب اليهود من هذا الاضطهاد محن لا توصف وكذلك المسلمين باسبانيا بعد ما ارغموهم على اعتناق المسيحية

عند الطاغيــة في هــذه السنة وجدناهــم قــد قبضوا أحــدا من الاعيــان كان عــامــلا في اشبيلية قــد لمــز باليهوديــة وسجنوه في مــرسيــة منذ أربــع سنين ونحوهــا وأهل ديــوان الانكستيون مشتغلــون بالفحص عنه الى أن يقفــوا على حقيقة أمــره .

وبخارج القصبة المذكورة دكــان عال مستند على أحــد أبــراج القصبــة وعلى ذلك الدكــان قبــة معدة لبيعــة طــواغيهم ، اذا تولى أحــد ملك اصبانيه يجتمع اهل المــدينة كلها بذلك المكان أمام القصبة ويطلــع فــوق الدكان مــن هو معين للكلام ويعلــم بــأن فلانا هو الطاغية والمتولي أمر اصبانيــة ويبايعونه علــى عــادتهــم .

ومدينة قــرطبة في سفح جبــل مطــل عليها يقال له سرمرينــة (1) فيــه بساتين كثيرة من الزياتين وغيرها وكان يسمى قبل بالتاج لانه لما كن مطــلا على قــرطبة وهو مخضر بكثرة الاغصان والاشجــار صار لقرطبــة كــالتــاج وهذا الجبل أصله من بــلاد البرطقــال (2) واستمــر في بــلاد اصبانيــة الى ناحية القنت بلد بينهــا وبــين قرطخنة (3) سبع عشر ساعة .

وكــان مقامنا بقرطبة يومين وسافــرنا منها الى مدينة الكاربا (4) فوصلنا على خمس ساعات وبــين قرطبة والكــاربــا مــن الزياتــين شيء كثير وقــد

---

1 – Sierra Morena وهــي سلسلــة جبال تمتد فى جنوب اسبانيــا من الحــدود البرتغالية غــربا الى ناحية المــانتشا شرقــا اما الجبال التى تتصل بها وتمتد الى ألقنت فانها تحمل اسماء اخرى.

2 – يعنى بــلاد البرتغال ويقــال لاهلها عنــد المغــاربــة البردقيــز

3 - يكتب ابن عثمان الاعلام كمــا ينطقها الاسبــان ويعنى مــدينــة قــرطجنــة (Cartagena) وهــي علــى البحــر الابيض المتــوسط وتبعــد عــن مــرسيــة 48 كيلــوميتــرا. وهــي مــن تــأسيس الفينيقيــين . دخلها العــرب أول الفتــح واستمــرت بأيــديهــم خمســة قــرون

4 - El Carpio قــريــة على كــديــة وهي تبعد عــن قرطبة ثلاثــين كيلــو ميتــرا

مررنا فيها بين المدينتين بقرب من قرطبة بمدشر سكانه قائمون على عذير (1) خيل الطاغية وهذا المدشر على ضفة الوادي الكبير وعليه قنطرة محكمة فعبرناه مرة أخرى وسرنا وهو عن يسارنا والطريق على حاشيته الى أن بدت لنا مدينة الكاربا

مدينة الكاربا أعادها الله دار اسلام

ولما أشرفنا على مدينة الكاربا وجدناها مدينة صغيرة على ربوة من الارض مشرفة على الوادي الكبير وهي ذات أجنة وبساتين ، وتلقانا أهلها وأظهروا فرحا وبشرى وأنزلونا بدار هي افضل دورهم بعد أن احتفلوا فيها غاية الاحتفال ، وجاء للسلام علينا جميع الاعيان والضامات والاكابر وأحضروا ءلات الطرب والموسيقى ورقصن الضامات من اعيان البلد لان ذلك عندهم هو غاية الاكرام . فبتنا بها ومن الغد خرجنا منها فرأيت أمام المدينة بالوادي المذكور ثلاث نواعير لاخراج الماء من الوادي الى بعض بساتينهم في غاية الاتقان علو كل واحدة أربعة وعشرون ذراعا وقد بنوا على النواعير المذكورة بناء دايرا بها مثل الشادروان (2) علوه نحو اثنى عشر ذراعا وفصلوا بين كل ناعورة والاخرى بجدار وفتحوا في اصل الجدار المحيط

---

1 – العذير مراع متسعة تحاط بسياج وتربى فيها خيل الدولة ويكون عليها قيمون يهتمون بشؤونها . والاصل من الفصيح عذر الفرس بالعذار اى شده به والعذار هنا هو قسم اللجام الذى ينزل على خد الفرس . وفى ناحية الجديدة سجن شهير لانه ضم أيام الحماية عددا كبيرا من الوطنيين يدعى العذير ولكن بما ان الفرنسيين كانوا يكتبون العين الفا فقد ظن من لم يكن يعرف معنى العذير أنه العاذر غلطا.

2 – الشاذروان كلمة مولدة أصلها فارسي وتطلق على ما نسميه في المغرب «الخصة» وهي حوض من الماء يكون وسط الدور الكبير وتخرج من وسطه فوارة ماء، ويطلق هذا اللفظ كذلك على سياج يحيط ببناء ، ويطلق على قناة ماء بارزة، والكلمة غير مستعملة اليوم لا في العامية ولا في الفصحى .

بهن ثلاثه أبواب كل باب يدخل الماء الى ناعورة بحسب ما يكفيها بحيث لايفسدها وقت حمل الوادي وقد جعلوا في الوادي أمام المواضع التي تدخل الماء الى النواعير خشبا غلاظا مسمرة بمسامير بقصد ان كثر الماء في الوادي وأتى بشجر أو بهايم تمنعه الخشب المذكورة من أن يصل شيء من ذلك الى النواعير لئلا يفسدها وقد رأيت خارج المدينه المذكورة معصرة كبيرة لعصر الزيتون فيها معاصر متعددات على شكل معصر بلادنا وفيها معصرة أحدث النصارى صنعتها قريبا وذلك أنهم جعلوا صندوقا من الخشب قعره ضيق وأعلاه واسع وبأسفله خشبة أخرى على شكل القرمود وهو معلق فوق المعصرة ويجعلون فيه الزيتون ويسقط منه شيئا فشيئا ويدور عليه حجر المعصرة وذلك على شكل الرحى التي تطحن الزرع .

وهذه المدينة بجميع دورها ومنافعها وبساتينها وجميع ما احتوت عليه من المنافع هي ملك لاحد الاعيان من النصاوى

وسافرنا من المدينة المذكورة الى مدشر يقال له لرديه ذى الرى (I) والرى بلغة الصبنيول الوادى لان هذا المدشر على الوادى الكبير فوصلناه على ثلاث ساعات ونصف كلها بلاد جيدة كبيرة وهي المسماة عندنا بالشماريخ أشبه شيء ببلاد الاحياينة (2) ترابا وكدى وأهلها أهل فلاحة كثيرة ، ولما أشرفنا على هذا المدشر برز حاكمه لملاقاتنا مع أعيان قومه في أكداشهم فسلموا ورحبوا بنا وخرج أهل هذه القرية نساء ورجالا وصحبونا الى الدار المعدة لنزولنا فقد استعدوا فيها مثل استعداد الحواضر الكبار ولاهل هذه القرية طلاقة وبشاشة فبتنا عندهم ومن الغدسافرنا

I – لاشك أنه يعنى Villa del Rio وهي قرية مسورة تبعد عن اندوخر 25 كيلو ميترا

2 – الحياينة اسم قبيلة وناحية في شمالي فاس تجود بها زراعة القمح

وخـرج الحاكـم وأهـل بلده لتشييعنا فـوصلنـا مـدينة أنـدخـر (1) على أربـع سـاعـات

مـدينـة أنـدخـر أعـادهـا الله دار اسـلام

وهي مدينة صغيرة أسست في بسيط من الارض على شفير الوادي الكبـير المـار بقرطبـة واشبيلية محفوفـة بالزياتين وأرضها أرض حـراثة وزراعـة وكـذا الارض التي مررنا فيها اليوم المذكـور وعليها وعلى الوادي المذكـور قنطرة في غـايـة الاتقان والاحكـام وبوسطها بـرج ولها خمسة عشر قـوسا في غايـة الضخامـة وبـين كل قوسـين طـاق كبير بينه وبـين الارض أكثـر مـن قامـة فسألت عـن ذلك فقيل ان الوادي في وقت المطر ياتي بسيـل كثير يخشى منه على القنطرة على ضخامتهـا فجعلت هـذه الطيقـان معينـة لاخراج المـاء ، وقـد أخبـرنـي بعض أهـل البلـد أن الخشب الـذي تصنـع منـه المراكب باشبيلية يقطع من جبال اسكورة (2) وبيـاسة (3) ويلقى في الـوادى الكبير الى ان يصل اشبيلية لان رأس الوادي الكبير من تلك الناحية ، وقد ذكـر بعضهم ان القنطرة المذكورة هي مـن عمـل المسلمـين رحمهـم الله ، فسألت عـن ذلك أهل البلد فقـالوا لا علـم لهـم بشيء مـن ذلك ولا يعرفـون مـن بناهـا الا أنهـا قنطرة قديمـة وعلى قدمهـا لازالت في غايـة الصون ، ولمـا اشرفنا على المدينة المذكـورة بـرز اعيـان البلد في أكداشهم وعـامتهـم نساء ورجـالا ونزلوا عـن أكداشهم وسلموا علينا ، ورحبوا بقدومنا وقـدم الينـا

---

1 – مدينة أنـدوخـر Andújar مدينة قديمة لـم يكـن لها ذكـر كبير ايـام العـرب وهي مشهـورة بصناعـة الفخـار

2 – Sierra de Segura وهـي سلسلـة جـبـال تمتـد فـي شرقـي نـاحيـة جيـان .

3 – جبـال بيـاسة منسوبـة لمـدينة بياسة Baeza وهـي مدينـة بـين قرطبة وغرناطـة تبعـد عن جيـان 57 كيلـو ميترا وقـد نبـغ من ابنائهـا علمـاء وادبـاء كـانوا مرموقين ايـام العـرب بالاندلس وقـد استرجعهـا الاسبان سنة 1277 م .

كـــدش حاكمهم لركوبنا ولهـــم بشاشــــة كثيرة . ودخلنا المدينة فـــاذا بسورها من عمل المسلمين رحمهم الله لازال على حالــه وأحدث النصارى خارج السور بناءات كثيرة وديارا متعددة وجميـــع جدارات المدينة بل غالبها من عمل المسلمين رحمهم الله وأزقتها ضيقة ، وقـــد أخبرني بعض أعيان البلد أن مـــدينـــة اندخر القديمة ليست هـــذه وأنهـــا بالقـــرب منها على نحو ساعـــة وبها كـــان سكنى المسلمين رحمهم الله أول مـــرة فلمـــا خـــرجوا منهـــا وسكنها النصارى ورجـــع المسلمـــون اليها بعد ذلك وانتزعوهـــا من أيدي النصارى هدموهـــا وأحدثـــوا اندخـــر الموجـــودة الآن وبهـــا أثـــر كثير للمسلمـــين ، وقد دخلت كنيسة لهـــم كانت مسجدا للمسلمين لازال على حالـــه في بنائـــه وسقفه سوى ما أحدثـــوا فيه من صلبانهـــم وموضع صلواتهم أهلكهـــم الله تعالى وطهـــر منهـــم البـــلاد ، وقـــد ركبنـــا عشية ذلك اليوم وركب معنـــا الحاكـــم وأرانا جميـــع المدينـــة داخلها وخارجهـــا ، وأطلعنا بـــرجا كبـــيرا مـــن عمل المسلمـــين رحمهم الله لازال على حـــاله من علو السمك وضخامـــة البناء . ولاهل هـــذه البلاد اعتناء بالسواقي (I) يستخرجون منها الماء للخضر وما أشبه ذلك من الغرس الرقيق ، وامـــا الزيتون فكلـــه على البعـــل كسائـــر زيتـــون بـــلاد الاندلس .

ومن جملة فرح أهل هذه البلدة بنا وكثرة بشاشتهم بقدومنا ، أن ورد علينا الحاكم وأعيان بلده ومعهم الموسيقى وجميع الضامات نساء الاكابر بقصد السلام علينا وتانيسا لنا بالموسيقى والـــرقص ، وذلك هـــو عندهـــم الغايـــة في الاكرام فلـــم أجـــد بدا مـــن مساعفتهـــم والنظر الى ما يفعلون جبـــرا لخواطرهم فدخلوا علينا وتقـــدم الحاكـــم وعـــرف بمن قـــدم معه من الاكابـــر والضامات ، وأجلس اصحاب الموسيقى في زاويـــة المكان الـــذي كنابـــه ، وورد بشيء كثـــير مـــن أنـــواع الحلاوي ، فناول جميـــع من حضر مبالغة في الاكـــرام وبعد ذلك أخـــذ أصحـــاب الموسيقى في استعمالها فأول من تقـــدم الى الرقص الحاكـــم وضامـــة

I – السواقى جمع ساقيـــة وهي فصيحـــة بمعنى النهر الصغـــير الا انهـــا في الاصطلاح المغـــربـــى عبـــارة عـــن قنـــاة تتخـــذ لنقـــل المـــاء من نهر كبير أو صغير لسقي الحقـــول والبساتين ونحوها.

هي أكبر الضيم فرقصا هنيئة وجلس الحاكم وبقيت الضامة بصدد الرقص وتقدم أحد من الاعيان ورقص معها وجلست الضامة ، ونهضت ضامة أخرى وكملت الرقص مع الرجل الثاني ونهض نصراني آخر الى الرقص وكمل معها الرقص ودارت النوبة على هذه الكيفية كل امرأة يرقص معها رجلان وكل رجل ترقص معه امرأتان وحيث يتقدم الرجل الى الرقص مع من يريد يزيل شمريره ويبايع (1) الى المرأة وتتأخر المرأة شيئا ما وتحتبي على ركبها ولا تصل الى الارض وحيث يكمل معها الرقص يفعلان مثل فعلهما الاول من ازالة شمريره وجثيها على ركبها . وبقوا على ذلك الى أن قلت لهم قد تعبتم ونحن مسافرون ودافعناهم وانصرفت عنهم .

ولما كانوا يستعملون الموسيقى جاءت ضامة من الاكابر وقالت الى الترجمان اسئل فلانا هل يعرف الرجل الذي ورد عليه بالدينار المكتوب بخط المسلمين بمدينة اسيخة فأخبرني فقلت نعم فقالت أنا أخته ونحن من أولاد قردناش وأمي بنت برقاش وأظهرت من التودد والمحبة شيئا كثيرا وأتى رجل آخر وهو من أعيان البلد الذين تلقونا لما سمعنى أتكلم معها فقال وأنا ايضا من اولاد بريس وأمي بنت برقاش فقلت لهم ان اخوانكم في بلادنا لهم وجاهة وهم عندنا من الاعيان فهلا لحقتم بهم فقال ما وجدنا الى ذلك سبيلا ، وقد ذكر لنا كثيرا من قبائل (2) أهل الاندلس الذين نعرفهم في بلادنا مثل تطوان والرباط وهم أهل رفاهية وسعة في الدنيا قد غلبت عليهم الشقاوة وخاضوا بحار الضلالة وربوا في بحبوحة الكفر والعياذ بالله ولا حول ولا قوة الا بالله .

وسافرنا من مدينة أندخر ، بعد ان راودنا أهلها على المقام عندهم للاستراحة فأبينا وخرج الحاكم وأعيان بلده لتشييعنا وودعونا ورجعوا.

---

1 – بايع في الاصطلاح المغربى انحنى راكعا أمام الملك أو من ينوب عنه اظهارا للولاء .

2 – القبائل هنا بمعنى العائلات وهو اصطلاح بعض المدن المغربية .

ولما انفصلنا على المدينة بنحو ساعتين افترقنا على الوادي الكبير فتركناه عن يميننا وسرنا في جبل سيرا مرينة في غابة متصلة أشجارها وقد كانت قبل تاريخه مخوفة يقصدها اللصوص ويقطعون الطريق بها ، فجعل بها الطاغية عمارة كبيرة بقصد حراسة الطريق ، وبه من الزيتون شيء كثير وتعرض لنا في وسط هذا الجبل الوادى المسمى بالرنبرار (1) وعليه قنطرة صغيرة فيها ثلاثة أقواس من عمل النصارى ، وقد كانت قبل من عمل المسلمين فهدمها السيل وبنوا على أساسها وماء هذا الوادي غاية في العذوبة وينتهي الى الوادي الكبير اذ جميع أودية الاندلس تجتمع في الوادى الكبير فوصلنا قرية بيرن (2) على خمس ساعات

قرية بيرن أعادها الله دار اسلام

فلما قربنا منها خرج أهلها لملاقاتنا وأظهروا من الفرح والبشاشة ما أظهر غيرهم ، وأعدوا لنزولنا دار حاكمهم وقد وجدنا بهذه القرية كثيرا من بقية المسلمين رحمهم الله فمنهم من انتسب الينا وعرف بنفسه وأظهر من الميل الينا ما قضينا منه العجب ، وقد ورد علينا خليفة الحاكم هو وأخته وانتسب لنا وقال انهم من بقية المسلمين ولازمنا بقية يومنا والليلة بعده من كثرة محبته في المسلمين وقد ذكر لنا أنه عنده خمر معتقة وهذا فصل الشتاء وأنا آتيكم بها الساعة تشربونها لمحبتي فيكم ظنا منه أن المسلمين يشربون الخمر وهذه مبالغة عندهم في الاكرام ، وقد رأينا من محبة هذا النصراني ما ظهر أثره عليه لاكنهم ربوا في بحبوحة الكفر واضطجعوا في مراقد الضلالة وكان أمر الله قدرا مقدورا

---

1 – يعني النهر المسمى الرومبلار El Rumblar وهو يصب في الوادى الكبير في الضفة اليمنى .

2 – يعنى با يلن Bailén وهي مدينة صغيرة بينها وبين أندوخر 27 كيلو ميترا

فنسأله سبحانه أن يحسن عاقبتنا في الامور كلها وقد ورد علينا أهل هذه الفرية ليلا بالموسيقى ومعهم الضامات بقصد السلام علينا ، وأخذوا في استعمال الموسيقى والرقص نساء ورجالا كما قدمنا ومن الغد سافرنا من القرية المذكورة فوصلنا قرية لريل كرلينة (I) على اربع ساعات

قرية لريل كرلينة أعادها الله دار اسلام

وهي قرية كبيرة بناء دورها حسن وأهلها أهل بشاشة ، وبها من السواقي لاستخرج الماء للخضر وما أشبهها شيء كثير ولهذه القرية منظر حسن أسس منذ اثنتى عشرة سنة بأمر هذا الطاغية . وهذه البلاد التي سرنا فيها من قرية بيرن الى هذه القرية كانت كلها غابة متكاثفة يقصدها اللصوص فلا يمر بها الا من كانت له عصبية فعمد الطاغية اليها وخففها بأن حطب جميع الشجر الذي كان بها ولم يترك الا شجر الكروش وأنزل فيها عمارة كثيرة متصلة فهي اليوم بلاد امن يسلكها الرجل والمرأة والقوي والضعيف ولا يتكلم معه احد . وقد تلقانا أهل هذه القرية احسن ملاقاة وانزلونا بدار هي أحسن دورهم اعتدوا فيها مثل ما استعد أهل الحواضر . وهذه القرية اسسها الطاغية أيضا منذ اثنتى عشرة سنة ولاهلها حضرية وأتوا أيضا ليلا بالموسيقى نساء ورجالا كما فعل غيرهم ، وذلك عندهم اكرام تام لاغاية فوقه وجميع ما بجبل سيرامرينة من القرى والمداشر كلها محدثة بأمر الطاغية بقصد حراسة الطريق لان هذا الجبل كان مخوفا فأنزل فيه هذه المداشر والقرى والديار متفرقات به تانيسا للمسافرين وسنته في ذلك انيبني المدشر

I — La Carolina واليوم لا يزاد على اسمها لا ريال أى الملكية كما كان الامر ايام ابن عثمان على ما يظهر حيث يسميها La Real Carolina وهي مدينة صغيرة بينها وبين بايلن عشرون كيلو ميترا.

وينزل به من يسكنه ويشتري له الارض للحراثة ويعطي كل واحد غنما ودجاجا وبقرة وثورا للحرث ويسقط عنه المغرم ثمان سنين حتى يستوطنوا ، وبعد ذلك يلزمهم ما يلزم غيرهم من الرعية

ومن الغد سافرنا من القرية المذكورة الى قرية سنط كروزد مديلة (1) فوصلناها على عشر ساعات منها مسيرة ساعتين من حساب بلاد الاندلسية والحد الفاصل بين الاندلسية وبلاد مانشة واد يقال له الري دمكين (2) ومنذ قطعنا الوادي المذكور ونحن متوجهون في طريق في جبل سيرامرينة المذكور فتحها الطاغية في أمنع ما يكون في هذا الجبل بالمعاول والخدمة ساكنون بأولادهم بقصد الخدمة والموضع الذي يفرغون من خدمته يرحلون منه وذلك مسيرة ثلاث ساعات في أمنع مايكون في الجبل أحدث طريقا مستوية في عرض نحو الخمسين شبرا ومهما عرضت شعبة في الجبل يبتنيها من قعرها الى ان تستوي مع الطريق ، وان عرض له جبل يفتح فيه الطريق وان كان وادي يجعل عليه القنطرة حتى صارت تمر عليها الاكداش والكراريط كما تمر في السهل ولا زالت الخدمة بها الى الآن فقد وجدنا كثيرا من قناطرها لم يكملوا وقد كانت الطريق قبل من جهة أخرى يتركها المار الى مادريد عن يساره ، وكانت فيها صعوبة وربما ينزل المسافرون عن أكداشهم ، بل وعن دوابهم فأحدث الطاغية هذه الطريق تمر فيها الاكداش كما تمر في السهل ولهم اعتناء كبير بالطرقات واصلاحها وجعل القناطر على الاودية ، بل وعلى الشعاب ومن وادي الري ذى مكن المذكور تسمى تلك البلاد مانشة وبها من العزائب لنتاج البغال مالا يحصى كثرة ، وبغالها فارهة مثل البغال الشاميين وجميعهم بقصد الاكداش لان غالبهم لايمر الا في الاكداش حضرا وسفرا وللبغال عندهم

---

1 -- اسمها الاسباني Santa Cruz de Mudela وهي تبعد عن لاكارولينة 53 كيلو ميترا

2 -- هذا النهر لم أتحقق اسمه بالاسباني ولعله حرف تحريفا كبيرا

ثمـن كثير فقيمة البغلـة ثـلاثمـائة ريال أو نحوهـا لكثـرة احتياجهم الى البغال للاكداش فـالكـدش الواحـد تجـره سبعـة بغال وستة ومن أجـل ذلك كثرت قيمتهم لان الاكداش لايحصون كثرة ، وسافـرنا من قريـة سنط كرز المذكورة الى قريـة منسنارس دلمنت (I) على سبع ساعات

قـريـة منسنـارس أعـادهـا الله دار اسـلام

وهي قـريـة كبيرة وهذه البلاد التي مررنا بهـا اليوم المذكـور كلهـا من حساب مانشة ، وبـلاد مانشة المذكورة متسعـة الارجـاء فسيحـة الانحاء ، ذات حجـارة كثيرة وتـرابها أحمـر عاريـة من النبات الا ماكـان من العشب اليابسة مثل الشيح وما أشبهـه الا أنـه بها مـن أجنة الكروم الدالية المسمى بـالزحـافة شيء كثير عـن يسار المـار ويمينه ما مـلأ الفضاء وكله بصفوف مستويـة في غايـة الاستقامـة والبلاد المذكـورة مـع كثرة حجارتهـا كلهـا محـروثـة ويزعم أهلها ان الزرع يصلح بها كثيرا ويغـرسون ايضا في بـلاد مـانشة المذكـورة الزعفران الكثير الذي يجلب لجميـع البلاد وقـد رأيت منه شيئا كثـيرا وهـذه البلاد لامـاء فيها اصلا الا ماكـان من الآبار وربمـا تـوجـد عـين في بعض المواضع

وفي هـذا المدشر الدار المعـدة لنزول المسافـريـن وكـذا جميـع بـلاد اصبانية على هـذه الحالـة فـلا يمر المسافـر ساعتين أو ثـلاثـة الا ويجـد الدار المعـدة لنزول المسافـر ومن أجل ذلك فـلا يصحب المسافر زادا ولا بنية وانمـا يصحب معه مايصرفه فقط يقيـل حيث شاء وحيث ما أراد فيبيت فيجد العلف والتبن لدوابـه ويقترح على اهل الدار ما أراد من الطعام ويتحكـم كيف شـاء ويهيئون لـه الفراش والمكان ، وكلمـا يـريد يحضرونـه لـه عاجـلا

I – Manzanares del Monte لكـن اليـوم تسمى مـانسـا نـريس فقط بـدون نسبة للجبـل وهـي مدينـة صغـيرة بينهـا وبين مجـريط 174 كيلو ميتـرا

وحيث يريد الانصراف من عندهم تاتيه امرأة الوكيل على الدار وتدفع له زمام ما وجب عليه في المأكل والمشرب والمكان والعراش والعلف وغير ذلك فلا يمكنه الا ان يدفع مارسم فيه من غير مناقشة . وكذلك عندهم ديار متعددات في الطريق فيها خيل البريد فاذا كان أمر مهم ياتي به السفير (1) راكبا على فرسه مثلا من قالص فحيث يقرب من احدى الديار المذكورات ينفخ في ءالة تسمى البوق فيسمعه صاحب الدار فيسرج له فرسا وبنفس وصوله ينزل عن فرسه وان أراد ان يشرب او يأكل ماخف يناوله ويركب الفرس الآخر ويستمر على هذا العمل في الديار المعدة في الطريق فيقطع المسافة التي بين قالص ومادريد في ثلاثة أيام أو أربعة مسيرة مائة ساعة وكلما وصل الى بلد ينزل فيها البراوات (2) التي لاهلها التي حمل معه وينزلهم في الدار المعدة للبراوات ويسمونها دار الرقاس (3) وكل بلد من بلاد اصبانية فيها دار معدة للبراوات فكل من أراد ان يكتب براءة ويبعثها الى بلد يكتبها ويختمها ويدفعها

---

1 – هذا التعبير بالسفير عمن يتولى نقل الرسائل من بلد الى بلد (وهو الرقاص في الاصطلاح المغربى) لم أره عند غير ابن عثمان ولعله اشتقه من السفر لان الرقاص يسافر ضرورة للقيام بماموريته.

2 – البراوات جمع برا أي رسالة ولعل الاصل فى المكتوب الذى يتبرأ به كاتبه من شيء ثم عمم لكل رسالة تكتب مطلقا

3 – الرقاص يكتب وينطق بالصاد لا بالسين ومعناه المكلف بنقل الرسائل من بلد الى بلد والكلمة قديمة مستعملة بالاقل من ايام الموحدين حيث انا نجدها عند ابن صاحب الصلاة في تاريخه «المن بالامامة» (مخطوط الخزانة البدلانية باكسفورد فى انجلترا ورقة 15 وقد اعد الاستاذ عبد الهادى التازي للنشر هذا الجزء الفريد الموجود من كتاب المن بالامامة مع بحث عن المؤلف وكتابه وتعاليق مفيدة) . والكلمة من الرقص بمعنى الخبب وهو السرعة وذلك أن الرقاص وكان يمشي على قدميه كان يضرب به المثل فى السير السريع . ونقول بالمغرب الى الان للخادمة فى المنزل ترقص أي تقوم بتحضير الاوانى للطعام والشراب ومناولة ما يحتاج اليه من ذلك

في دار البراوات ولكل دار من الدور المذكورة أمناء ووكلاء فحيث تجتمع المكاتب كلها يحضر الوكلاء ويميزون مكاتب كل بلد على حدتها ويدفعهم للسفير مميزة مكاتب كل بلد ويسافر ، ومهما وصل مدينة ينزل فيها مكاتبها في الدار المعدة لذلك ويوم ورود السفير معلوم في سائر المدن فيقصد الناس الدار المعلومة وكل من وجد براءة له يدفع عليها جعلا معلوما وياخذها فيتحصل من ذلك مال عظيم تخرج منه المصارف واللوازم وما فضل فهو للطاغية فيجمع في بيت المال وأما الرقاس فليس له شيء من ذلك لان راتبه من بيت المال وهو ينفق على نفسه في الطريق وحيث يبدل السفير فرسه من احدى الديار وياخذ فرسا آخر يرد صاحب الدار الثانية الفرس التي قبله وهكذا كل دار ياخذ منها فرسا ويترك فرسه بها يرده صاحب الدار الى صاحبه للدار التي قبله .

ومن قرية منسنارس المذكورة وصلنا قرية ارنسية على سبع ساعات ، وهذه البلاد كلها من حساب مانشة من تراب وحجر ونبات وبها من العزائب لنتاج البغال مالا يعد ولايحصى يزعمون أنها تصلح في تلك الارض وفيها بين قرية منسنارس وقرية ارنسية دار معدة للمسافرين وفيها بير يزعمون ان ماء البير المذكور من وادي يقال له واديانة مجيؤه من ناحية بلنسية وغار تحت الارض مسيرة سبع ساعات وخرج على وجه الارض في جبل ساكطينة عن يسار المار الى مادريد وسألت عن حقيقة ذلك ومن لهم بأن الوادي الخارج من جبل ساكطينة هو الوادي الغائر فأخبرونا أنهم يلقون في البير المذكور في دار المسافرين تبنا مثلا او ما أشبهه ويتعرضون له فيأتى به الوادي المذكور وفي وقت المطر ياتي هذا الوادي بسيل كثير فيسيح في أرض قبل ان يغور فصارت مروجا على جادة الطريق ، فضربوا عليها قنطرة عدد

أقواسها ثمانية وستون قوسا يسمونها قنطرة بلرطه (1) اضافوها الى مدشر مسمى بذلك الاسم قريبا منها

قرية أرنسية أعادها الله دار اسلام

ولما قربنا من قرية ارنسية (2) برز أهلها لملاقاتنا جميعا في أكداشهم ومن لم يستطع الركوب في الكدش خرج على رجليه وأظهروا من الفرح بقدومنا ما أظهروا وقرب الينا كدش حاكمهم بقصد ان نركبه كما هي عادتهم فتعللت لهم بزكام أصابني في البلد المذكورة وكذا أصحابنا كلهم بنفس مادخلنا بلاد مانشة أصابهم الزكام ووجع الراس لان ريح هذه البلاد عاصف وقرها لايصفه واصف وقد أرانا أهل هذه القرية حمرا معدة للنزو على اناث الخيل وذكر ان قيمة الحمار الف ريال (3) الى خمس عشرة مائة ريال وما بين ذلك فاستعظمت ذلك ، فقالوا ان البغال ثمنها كثير فان ثمن البغلة يبلغ اربعمائة ريال وثلاثمائة ريال ومن أجل ذلك كثرت قيمة الحمر الفحول وهذه الحمر اعظم من البغال الشاميين وبتنا بالقرية المذكورة ، ومن الغد سافرنا منها الى قرية طمبلك (4) فوصلناها على سبع ساعات كل هذه البلاد من

---

1 – بلرطة بالاسبانية Villarta de San Juan قرية صغيرة على نهر خيكويلة

2 – ارنسية Herencia قرية صغيرة ليست على الطريق الكبيرة اليوم القاصدة لمجريط وانما هي عن اليمين تبعد عن الطريق 12 كيلو ميترا

3 – وحق له ان يستعظم ذلك لان قيمة الريال بعملة اليوم الفان من الفرنكات فيتراوح ثمن الحمار ما بين مليونين وثلاثة ملايين من الفرنكات والبغلة يكون ثمنها ما بين 600.000 و 800.000 من الفرنكات .

4 – بالاسبانية Tembleque وهي قرية صغيرة ومنها تبتدىء بلاد المانتشة التى تمتد جنوبا وشرقا

حساب مانشة ترابا وحجارة ونباتا ، ومع كثرة حجارتها فهي كثيرة الحرث ، وفيها من أجنة الكروم الزحافية مالا يحصى كثرة وكلها بصفوف مستوية وكذلك بها من فدادين الزعفران شيء كثير ، وليس في بلاد مانشة عن آخرها شجر غير ماذكر الا ماقل من شجر الزيتون بقرب بعض القرى والمداشر وبتنا بالقرية المذكورة ومن الغد توجهنا منها فوصلنا مدينة لوردية (1) على ساعة ونصف .

قرية لوردية أعادها الله دار اسلام

ولما دخلناها ومررنا بوسطها تلقانا أهلها وفرحوا بنا وشيعونا الى أن خرجنا قريتهم ، وبخارج هذه القرية دار مبنية عن يمين المار الى مادريد يذكر النصارى أن اليهود فيما تقدم قتلوا صبيا من أبناء النصارى في ذلك المكان فعثر عليه ، فبنوا هنالك دارا وكنيسة ودفنوا فيها الصبي ، وبحثوا عن اليهود فاحرقوهم ، وقد كان اليهود قبل أن يخرجوا من اصبانية كثيرا ما يقتلون الصبيان اذا خلوا بهم فذكر بعضهم ان هذا الفعل هو السبب في عدم دخول اليهود بلاد اصبانية . ولما سافرنا ساعتين ونصف من طمبلك خرجنا من بلاد مانشة ودخلنا بلاد قشتالة لنويبة (2) ومعناها الجديدة وهي ذات زياتين كثيرة وشجر زيتونها اعظم من شجر زيتون الاندلسية وفي البلاد المذكورة من أجنة العنب ما لا يحصى ، ومررنا في أثناء ذلك بقرية لوص باريوص (3) عن يسارنا

---

1 – بالاسبانية اسمها La Guardia وهي قرية صغيرة كذلك .

2 – هي Castilla la Nueva وقد وصفها ابن عثمان بانها بلاد الزيتون والعنب وكان العرب اذا أطلقوا لفظة قشتالة يعنون بها بالخصوص قشتالة القديمة وهي بلاد زراعة القمح

3 – هذه القرية تسمى في الحقيقة ضوس باريوس هكذا Dos Barrios أي الحيان لا الاحياء التي تؤديه لفظة لوص باريوس كما قال . وهي كذلك من القرى الصغيرة في طريق مجريط .

والطريق ملاصقة لها وبينها وبين قرية أوكانيه (1) ساعه وهي قريه تمر الطريق بوسطها وتلقانا أهلها على بعد راكبين على خيولهم وفيها من أكابرهم وصناديدهم وبطارقتهم عدد كثير وفيهم بشاشة كثيرة وأظهروا من الفرح بقدومنا مالا يكيف وطلبوا منا أن نبيت عندهم فقد عزمنا على المبيت في ران خويز (2) فراودنا على ان ننزل عندهم سعه للاستراحة ، وقد كان في ذلك اليوم مطر غزير فتعللنا بذلك فجازيناهم خيرا وتوجهوا معنا الى أن شيعونا خارج بلادهم ، ومن هذه القرية مررنا في طريق جديدة ولا زالت الخدمة بها الى أن وصلنا مدينة ران خويز على ثمان ساعات من مدينة طمبلك المتقدمة

مدينة ران خويز أعادها الله دار اسلام

وهذه المدينة ، مدينة صغيرة ذات أجنات وبساتين وأزهار ورياحين لها منظر حسن ، وغيض ذات أغصان وقنن ، وفيها من الفواكه ماليس في غيرها وللطاغية فيها متنزهات ومتصيدات محميات جمعت وحوشا كثيرة ولا يروعهم احد ولا يقر بهم وانما يصطادهم الطاغية وحده ، وهذه المدينة مؤسسة على شفير الوادي المسمى بأنطاخوا المار بحضرة طليطلة وقد ظهرت لنا طليطلة عن يسارنا لما أشرفنا على ران خويز على بعد وهي على نشز من الارض ، وهذه المدينة ، هي عند الطاغية بقصد التنزه والاصطياد ياتيها بعد صيامهم فيقيم بها الى متم ينيه ولما دخلنا المدينة المذكورة ورد حاكمها للسلام علينا ورحب كثيرا وأتانا

---

1 – بالاسبانية Ocaña وهي مدينة قديمة مرت بها أحداث تاريخية وهي تبعد عن مجريط 62 كيلو ميترا

2 – تسمى في الحقيقة أرا نخويس Aranjuez ، وهي مدينة وكانت أحد متنزهات ملوك اسبانيا وبها قصور وبساتين جميلة وهي على نهر تاجه (وينطقه الاسبان اليوم طاخو). وهي تبعد عن مجريط 47 كيلو ميترا.

بطبقين كبيرين أحدهما فيه التفاح والآخر فيه الاجاص وذلك في شهر يناير ما رأيت اجاصا مثل ذلك كأنه الباذنجال ، وهذه الفاكهة من أجنة الطاغية التي بتلك المدينة وهي الى نظر الحاكم أتانا بذلك على سبيل الاكرام تبعا لامر عظيمه حيث بعث أمره الى جميع ايالته التي مررنا بها أن يفرحوا بنا ويحسنوا ملقانا ، ويكرموا منوانا ، اعتناء بسيدنا ومولانا أمير المومنين وذكر لنا الحاكم المذكور أنه عنده مخازن متعددة مملوءة من الفاكهة المذكورة وكل يوم يبعث الى الطاغية شيئا منها أيام السنة كلها حتى تظهر الفاكهة الجديدة .

وعند الطاغية مواضع أخرى مثل لرانخة (1) ولسكريال (2) والبارد (3) معدة للاصطياد لانه مولع به كثيرا فجل مقامه في المواضع المذكورة يتقلب فيها ، وأما مادريد فمقامه بها قليل . وبتنا تلك الليلة بران خويز ومن الغد سافرنا منها فوجدنا وادي انطاخوا ملاصقا لها ، وقد جعلوا عليه مواضع متسعات يتردد فيها النصارى عشية كما هي عادتهم وقد احتفلوا في تلك المواضع غاية الاحتفال بشبابك مصبغة في غاية الحسن وكذا الطرقات التي تاتي الى تلك المواضع المذكورة كلها بالشبابك

---

1 – يعنى لاكرانخا La Granja وهي كما ذكر ابن عثمان من المتنزهات الملكية باسبانيا وهي فى شمالى مجريط تبعد عن شقوبية 12 كيلو ميترا وسياتى لابن عثمان وصف ممتع لقصر لاكرنخا وبساتينه وجد اوله وصهاريجه (انظر ص 85 ـ 87)

2 – الاسكوريال El Escorial مدينة بها دير مشهور توجد به خزانة مخطوطات عربية سنتكلم عليها من بعد . والاسكوريال يبعد عن مجريط 48 كيلوميترا.

3 – بالاسباني يسمى هذا المتنزه El Pardo وهو قريب من غابة باحواز مجريط به قصر جميل وجنان ورياض بديعة وهو يبعد عن العاصمة 14 كيلوميترا.

يمينا وشمالا ومحيط بذلك كله شجر النشم والصفصاف في غاية التجريد والعلو مغروس بقصد أن يستظل به من يمر بالمواضع المذكورة وبطرقات المدينة وعبرنا الوادي المذكور على قنطرة من الخشب مضروبة على مراكب مرساة في الوادي . وسرنا في طريق جديدة مستوية أحدثها الطاغية مغروس عن يمينها وشمالها الشجر المذكور بحيث لاينال المار بها في الصيف حر وانما يمر في الظل بقية يومه . ولما جاوزنا المدينة بنحو ساعة تعرض لنا وادى خرمة (1) وقد اختنط مع وادى انطاخوا بالقرب من ران خويز ومر الى طليطلة وخرج الى البحر الكبير من بلاد البرطقال (2) فعبرنا الوادى المذكور على قنطرة جديدة فى غاية الاتقان والاحكام عدد أقواسها خمسة وعشرون قوسا كأنها من حجر واحد ابتناها الطاغية ورسم على كل من يعبر عليها جعلا معلوما على الاكداش والقراريط والبغال والحمير والرجالة (3) كل له قدر معلوم ويجمع المستفاد القيم على ذلك وهو بازاء القنطرة في بيت من الخشب وان حدث في القنطرة مايوجب اصلاحا يصلح من المستفاد المذكور والفاضل يبقى موفورا للطاغية وتوجهنا في الطريق المذكورة على الوصف المذكور من غرس الاشجار يمينا وشمالا فان عرضت شعبة تجعل عليها قنطرة أو كدية تفتح فيها الطريق ، وعند رأس كل ساعة تجد حجرا قائما في طول ثلاثة أذرع أو نحوها مكتوب فيه الساعة الاولى وفي الثاني وهكذا الى مادريد مسيرة ست ساعات ولا زالت الخدمة بهذه الطريق الى الآن وفيما بين هذه المدينة ومادريد مدائن أخرى ومداشر

---

1 — بالاسبانى Rio Jarama وهو من روافد نهر تاجه.

2 — انظر التعليق السابق 2 ص. 65 .

3 — الرجالة فصيحة لجمع راجل أى الذى لا مركوب له ويمشى على قدميه .

لا تحصى والتي بازاء الطريـق مدينة بال دمور (1) ثـم مـدينـة بنط (2) ثـم مدينة بلبرد (3) ثـم مدينة خطـاف (4)

ولمـا أشرفنا على مادريد ظهـرت لنا على ربـوة من الارض ولمـا قربنـا منها خـرج لمـلاقاتنا قيـم الدار المعـدة لنزولنا راكبـا في كدشه فترجـل منه وأهدى من السلام والترحيب شيئا كثيرا وقـال انـه خـرج لملاقـاتنـا بأمـر عظيمه وهـذا الكدش هـو للطـاغيـة وبعثه لركوبكـم والطـاغية هـو الآن بمدينة بارد (5) وليس في مادريد وبـين المدينتين نحـو ساعـة ونصف وهـذه المـدينة احدى المدائـن التي يخـرج اليهـا الطـاغيـة بقصد التنزه والاصطياد فركبنا في الكدش الذي بعث الطاغيـة وقصدنا المدينـة فـاذا بظاهـر المدينة من الاكـداش التي خـرج أصحـابها لملاقاتنـا مالا يعـد وأمـا ألرجـالة فشيء لا يحصى نساء ورجـالا وصبيانا وكلهـم يعلنون بـذكـر سيدنا ومولانا أمـير المومنـين زاد الله تعالى بـه الاسلام عـزا وابقـاه للمسلمـين حـرزا . وحيث لـم يمكننا السـير من كثـرة الازدحـام تقـدم الشلطاض وهـو العسكـر بخيلهـم أمـامنـا وسيوفهـم مسلولـة لان ذلك عندهـم مـن تمـام الاعتنـاء وأخـذوا يفرجـون لنا الطريـق فسلكناهـا بمشقـة عظيمـه من كثرة الازدحام

---

1 – بالاسبانـي Valdemoro وهـي مدينة قديمـة لم تبق لهـا أهميـة اليـوم وهي تبعـد عـن مجريط 26 كيلوميتـرا.

2 – بالاسبانى Pinto قرية بها قصر محصن قديم بينها وبين مجريط 20 كيلوميتـرا

3 – بالاسبانى Villaverde على بعد تسعة كيلوميترات مـن العاصمـة الاسبانية وهي ليست على الطريق كما قـال وانمـا تبعـد عنها كيلو ميتريـن ، وبهـا كنيسة مـن آثـار المـدجنـين اى العرب الذيـن أرغموا على اعتنـاق المسيحيـة .

4 – بالاسبـانى Getafe مـدينة صغيرة بها آثـار مسيحيـة وهى تبعد عـن مجـريط فى طريـق طليطلـة 13 كيلوميتـرا

5 – El Pardo متنزه لملـوك اسبانيا فى شمالى مجريط يبعـد عنها 14 كيلومترا. وبـه قصر لايزال قائمـا الى الآن وهو من اجمل آثـار اسبانيـا ، وبه متحف للصور الزيتية والزرابى الحائطية الثمينة .

فلما وصلنا المدينة وجدنا ببابها الوادي المسمى بمنسنارس وعليه قنطرة لها تسعة أقواس وهي في غاية الاتقان والاحكام والضخامة عرض هذه القنطرة نحو مائة شبر ويسمونها قنطرة طليطلة وكذا باب مدينة مادريد الذي بازاء القنطرة يسمونه باب طليطلة لكون المسافرين الى طليطلة يمرون بها

مدينة مادريد (1) أعادها الله دار اسلام

هذه المدينة كبيرة غاية في الكبر وضخامة البناء حاضرة الحواضر ببلاد اصبانيةوبنى على ربوة وببابها وادي مانسنارس زادها حسنا وبهاء وبهجة وسناء ، وقد غرسوا على جانب الوادي الذي من ناحية المدينة أشجارا كثيرة مثل النشم وما أشبهه في غاية العلو بصفوف معتدلة يتفيئون ظلالها عشية وقت خروجهم يترددون على حاشيه الوادي المذكور على أكداشهم ومن لم يكن عنده كدش يخرج على رجليه ، ولما دخلنا المدينة المذكورة وجدنا بها من الخلائق أضعاف من تلقانا بخارجها فسرنا في سكك متسعة وديار مرتفعة فجل ديارها لها ست طبقات وخمس طبقات لكل دار سراجيب مفتحة للازقة مغلقة بالزاج (2) عليها شبابيك الحديد وأسواقها عامرة مشحونة بأهل الحرف والصنائع والتجارة والبضائع وجل باعتها النساء . ولما وصلنا الدار المعدة لنزولنا وجدنا ببابها

---

1 – مدينة مادريد هي عاصمة اسبانيا وقد كانت ايام المسلمين قرية صغيرة تنزلها قبيلة بربرية ، تدعى بنى مجريط . ومن هذا اللفظ اشتق اسمها الحالى واليها ينسب العالم الرياضى الفلكي الكيماوى العربى الشهير أبو القاسم مسلمة المجريطى من رجال القرن الرابع .

2 – انظر التعليق 3 ص. 24 ونزيد هنا ان هذه اللفظة العامية المغربية لا علاقة لها بلفظة الزاج الفصيحة التى اصلها من الفارسى زاك وهى تطلق على ملح يستعمل فى تركيب مادة يصبغ بها

عـددا كثـيرا مـن عسكـرهـم يسمونه الشلطاظ بـأسلحتهـم وطبولهـم وعلمهـم ، ودخلنـا الدار فـاذا هي دار عظيمـة كبـيرة في غايـة الكبـر وهي بقـرب دار الطـاغية وقـد تكلفوا لها غايـة التكلف بـأنواع الفـرش والبسط وحيطانهـا كلهـا مكسوة بـأنواع الديباج المرصع بالذهب وفيها مـن أنواع الاقـامـة والاواني الفضيـة مالا يعـد ولا يحصى : فمـن الحسك المعـدة للشمع خمسمائـة كلها مـن الفضة وليقس مـالـم يقـل . فلمـا استقـر بنا المجلس أتانـا الفيـم المذكـور فأعـاد السلام وذكـر لنا أن الطاغيـة في مدينـة البارد المذكـورة قبل وأنـه أمـره بالمقـام في هـذه الدار ينتظرنا فـاذا قـدمنـا ينوب عنه في السلام علينا وان يقوم على ساق في وظائفنا وان يفعـل معنا كـل ما يفعله مع الطـاغية أن لـو كـان حاضرا فقابلناه بمـا ينبغي ويجب أن يقـابـل به

وكـان دخولنا مدينـة مادريـد عشية يـوم الاربعـاء رابـع المحـرم الحرام فـاتح سنة أربـع وتسعين ومـائـة والف (1) وأقمنا هنالك اثنى عشر يـومـا وفي خـلال المدة المذكـورة كـان يتردد الينـا صاحب الدار القـائـم بـأمورها مـن عند الطـاغيـة ويسلـم علينا من عنده ويقـول ان الطـاغيـة يـريـد ان تكـونوا في بـلاده فـرحـين منشرحـين ، فقـد تكلفـوا في ضيافتنـا المـدة المذكـورة غـاية ، وعادة الطـاغيـة فيمن يـرد عليه مـن وفـود الملوك ان يضيفـه ثـلاثـة ايام ونحـن من شدة اعتنـائـه بسيدنا ومولانا أمـير المومنين أكـرم منوانا واحسن ضيافتنا اثنى عشر يـوما التي قبـل المـلاقـاة ، وقـد ذكـر لنا جميـع أعيـان اصبانيـة وأكابـر دولتـه ان ذلك خصوصية لنـا وتعظيـم لشاننـا لانـه كـان بالدار ماينيف على المـائتين من النصارى منهم نحـو المـائة من العسكـر يظلـون ويبيتون بالدار ، ومـن الغـد تاتي طـائفة أخرى يسمونها الوردية (2) ، ومعناها الحـراس بمزامـر وطبـول فيخلفون

---

1 – الموافـق ليـوم 12 ينايـر سنة 1780 ويلاحظ ان يوم الاربعـاء كان فى الواقع خامس محـرم

2 – بالاسبـانى La Guardia

الطائفة الاولى ، وحين يريدون الانصراف ياتينا قواد الطائفتين فالمنصرفون يأخذون الاذن في الانصراف والمقيمون يعلموننا بأنهم مقيمون بالباب عند أمرنا ، ومن الغد كذلك يفعلون ومن الطباخين والفراشين شيء كثير ، وكان في تلك الدار مهرجان عظيم

وفي اليوم العاشر من مقامنا تلاقينا مع الوزير الاعظم الذي عليه مدار جميع أمور الطاغية فسلم علينا وأظهر من الفرح ما أظهر ، وقال ان الطاغية يريد ملاقاتكم اليوم الفلاني وسأبعث اليكم كاغيدا (1) مرسوم فيه كيفية ذلك ، وفي الليلة التي صبيحتها تكون الملاقاة بعث الينا الوزير المذكور كاغدا ذكر فيه كيفية الملاقاة وبعد ملاقاة الرى (2) ملاقاة ولده الملقب بالبرنسبي (3) وهو المتعين للملك بعد أبيه وبعده أولاده واخوانه لنكون على بصيرة وفي يوم الاحد الذى هو يوم الملاقاة صبحوا عن اذن الطاغية بباب الدار التي نحن فيها أكداشا متعددة أحدها لركوبنا وهو للطاغية نفسه والآخرون لاصحابنا وسرنا لان الراي كان خارجا عن مدينة مادريد في مدينة صغيرة يقال لها البارد بينها وبين مادريد ساعة ونصف كما ذكرنا قبل وسرنا حثيثا وفي نصف الطريق وجدنا ستة بغال خلفوا البغال التي كانت في الكدش وساروا على سيرهم الاول فوصلنا المدينة المذكورة على ساعة واحدة والطريق التي بين مادريد والبارد في غاية الاستقامة ، والاشجار عن يمين الطريق ويسارها مقصود منها الظل لاغير ، ووادي مانسنارس مار مع الطريق عن يسار المار وهنالك من الحيوانات الوحشية مالا بعد ولا يقر بهم أحد ولا يروعهم لان تلك الاماكن كلها هي حمى حماها الطاغية فلا

---

1 – يعنى ورقة واللفظة العامية هى كاغيط كما تقدم ص 48 تعليق 3

2 – اى الملك El Rey وهذه اللفظة هي المستعملة فى لعب الاوراق (الرى) عندنا

3 – اى الامير El Príncipe .

يصطاد بها غيره ، وكذلك من مادريد الى البارد الفنارات (1) من الزجاج عن اليمين وعن الشمال مرتفعة على أعمدة من الخشب مصبغة فتسرج كلها بالليل من المغرب الى الصباح ، ولما وصلنا المدينة المذكورة دخلنا دار الوزير اولا فسلم علينا وجلسنا عنده هنيئة فورد علينا احد الاعيان من خاصة الطاغية ملقب بالكند (2) فسلم علينا وقال ان الراي في انتظاركم فمشينا من دار الوزير نعني من داخلها في طريق مستطيلة متصل بعضها ببعض الى ان وصلنا الدار التي فيها الطاغية فدخلنا الباب الاول فوجدنا به جماعة من أعيانهم فوقفوا وأزالوا الشمرير عن رؤوسهم ورحبوا بنا ودخلنا بابا آخر فوجدنا به جماعة كثيرة اعلى مرتبة من الاولين فسلموا وأظهروا من الفرح ما أظهروا ودخلنا بابا آخر فوجدنا به جماعة أخرى وفعلوا مثل مافعل من تقدمهم ثم دخلنا قبة فوجدنا الطاغية واقفا ببابها وعن يمينه طبلة مكسية بالديباج وحوله الوزراء وأعيان دولته وخاصته ، فأزال الشمرير عن رأسه فدنوت منه وسلمت عليه بما هو مطلوب شرعا فهش وأظهر من الانشراح والفرح شيئا كثيرا وقال كيف كان سيدنا أمير المومنين فقلت هو بخير لله الحمد طالبا من الله الاعانة على القيام بحقوق الخلائق الذي أمره الله تعالى به وهو بعد ذلك يسلم عليك لانك لست عنده كغيرك من عظماء الروم لميلك الى جانبه وسعيك في تنفيذ مآربه ، فقال أنا عند كلمته مستجلب لخاطره وكل مايريد عندنا نسرع لقضائه فأخرجت الكتاب السلطاني المولوي ووضعته على رأسي وقبلته ودفعته اليه فقبضه مني بكلتا يديه وقال هذا وزيري يتكلم معك في جميع الامور . وانصرفنا عنه وبقي واقفا مكانه حتى خرجنا عن الباب ودخلنا قبة أخرى فوجدنا بها ولده البرنسبي

---

1 – انظر التعليق السابق 1 ص. 25 .

2 – الكند بالاسباني Conde وهو لقب شرف ياتي بعد لقب ماركيز وقبل لقب بارون وكان العرب يقولون بالاندلس قديما قومس وهي أصل الكلمة الحديثة .



صورة رمزية تمثل استقبال كارلوس الثالث لسفير المغربي محمد ابن عثمان ، ويظهر بينهما الترجمان الشامي القصري [illegible] والصورة محفوظة في القصر الذي كان يدعى «بقصر الديوانه» بمدينة برشلونة

المفقدم الذكر فسلمنا عليه وفعل مثل مافعل والده وأرونا بعد جميع أولاده الا امرأة البرنسيبى لم تخرج لملاقاتنا لمرض منعها فعمد أولادها الصغار نائبين عنها في السلام ، وقد أظهروا من الفرح بنا مالا يكيف

فمن غدا مضافا لارباب الصدور تصدر (I)

والطاغية المذكور رجل قصير أبيض أزرق العينين طويل الانف الغاية قد خرج من الكهولة عمره خمس وستون سنة وبه ارتعاش كثير الا انه لازال مولعا كثيرا بالصيد وركوب الخيل في الحر والقر ومن اجل ذلك لايالف مادريد ولا يدخلها الا قليلا ، وذلك أنه يقيم بالبارد المتقدم الذكر من سابع يناير الى أن يصوم صيامهم وحين تبقى من أيام صيامهم سبعة أيام ياتي الى مادريد فيكمل بها صيامهم وتمضي ثلاثة أيام بعد العيد ويتوجه الى ران خويز ويقيم بها بقصد الاصطياد والتنزه الى عتم يونيه ومنها يرجع الى مادريد فيقيم بها نحو العشرين يوما ويتوجه الى لرانخة ويقيم بها الى سادس أكتبر ويتوجه الى نسكريال ويقيم بها الى ان يدخل دجنبر وياتي الى مادريد فيقيم بها ثمانية أيام ويتوجه الى ران خويز فيقيم بها ثمانية ايام ويرجع الى مادريد فيقيم بها الى سادس يناير وعلى هذه الحالة مستمر سائر ايامه يتقلب في الاماكن المذكورة لانه عنده بها أجنات وبساتين ومتنزهات و آجام محميات فيها الوحوش لا يروعهم أحد ولا يصيدهم الا الطاغية ، فحيث يريد الاصطياد في حمى بينه وبينه نحو ثمان ساعات مثلا ، تتقدم البغال أمامه عند رأس كل ساعة يقف الخدمة بستة من البغال وعدد من الخيل وحين يركب في كدشه يمر كالبرق والخيل أمامه مغيرة في شدة عدوها وحيث يصل الى الساعة الاولى يطلقون البغال التي كانت في الكدش

I – مثل يجرى على السنة ادباء المغرب ، وهو من بيتين هما

عليك بأرباب الصدور فمن غدا   مضافا لارباب الصدور تصدرا
واياك أن ترضى بصحبة ساقط   فتنحط قدرا عن علاك وتحقرا

ويربطون البغال التي كانت هنالك وتبقى الخيل التي أتت معه ويمر على سيره الاول ، ومهما سار ساعة يترك بها الخيل التي أتت معه والبغال التي كانت تجر به الكدش ويصحب معه آخرين فيقطع مسافة ثمان ساعات في ساعتين . وهذه السنة التي كنا عندهم فيها كان الطاغية في مدينة البارد في وقته المعلوم كما ذكر ووصل وقت وروده على مادريد وذلك قبل عيدهم بسبعة أيام ولم يقدم عليها وذلك بسبب امرأة ولده البرنسبي كانت حاملا وولدت وكانت ملازمة للفراش فبقي في البارد مقيما عليها حتى برئت حتى مضت الايام التي من عادته ان يكون فيها في مادريد فمر الى ران خويز من البارد ولم يدخل الى مادريد .

والبرنسبي ولد الطاغية المذكور لم يكن عنده ولد ذكر وانما كان عنده الاناث وقد كان هو وأبوه في كرب عظيم من ذلك من شدة حرصهم على الدنيا وضنهم بالملكة فيحبون ان يتوارثوها ، ولما كنا بمادريد وكانت المرأة المذكورة حاملا وقرب وضعها بعث الينا الطاغية مع وزيره وقال ان امرأة ولدي حامل وقد قرب وضعها فاذا وضعت حملها يعلمك الوزير وتقدم علينا لرؤية المولود ، فقلت لهم نفعل ذلك ان شاء الله ويكون المولود ذكرا فاتفق ان ولدت ذكرا وبعد ثلاثة أيام وردت علينا الخيل عند طلوع الفجر مغيرة من عنده تعلمنا بأنه تزايد ولد ذكر عند ولد الطاغية وان الراي يستدعيكم للقدوم عليه فركبنا وقدمنا عليه فوجدناه في غاية الفرح واظهر من الانشراح والتيامن بقدومنا عليه من عند سيدنا ومولانا امير المومنين شيئا كثيرا وأخرج الينا الولد فرأيناه ، وكان ذلك اليوم في مادريد وكذا اليومان بعده من أعظم الاعياد عندهم لم يخدم فيها أحد من أهل الحرف ولم تفتح دكان لبيع ولا شراء ، وانما في لهو وطرب وفي الليل يوقدون من الشمع في سراجيب الديار مالا يحصى .

ولنرجع الى ذكر التعريف بهذا الطاغية فانه من جنس الفرانصيص (I)

I – يعنى الفرنسيين



صورة الملك كرلوس الثالث

وليس من نسل ملـوك اصبانية الاولين الذيـن كـانوا يتحاربـون مع المسلمين رحمهم الله لما كانوا بالاندلس واسمه كارلوس طرسير ومعنـاه الثالث من اسم كارلوس الذين ملكوا اصبانية وأما من جهـة نسبه فهـو الاول من قلب كنط وهو اول ملك من الفرانصيص ملك اصبانية بـن دلفين (1) ابـن لويـز الرابع عشر من ملوك الفرنصيص وقد ولي ملك اصبانية قبل الفرانصيص خمسه أمـلاك كلهـم من جنس الفلانضيص وهـم كارلوس سكوند بن فلب اكوارط ابن فلب طرسير بن فلب سكوند بـن كارلوس كنط ولنذكر اولا سبب تملك الفلانضيس ثـم سبب تملك الفرانصيص اصبانيـة من بعدهـم وذلك ان طـاغية من الطـواعي الاصبنيوليـين يقـال لـه فـرناند كاطليك الخامس وهو مـدفون بغرناطـة أعادهـا الله دار اسلام كان ملك اصبانية ومـات ولـم يخلف ولـدا ذكـرا فملكت بعـده زوجته زابيـل وهى بنت ملك راغـون وهي دار ملك في هـذه العدوة فـأقامت في ملكها سنين فكانت تخـرج وترحـل وتركب الفـرس وتتصرف تصرف الرجـال وفي عهدهـا عثر بعض رؤساء البحـر على بـلاد من الهنـد ورأى أهلـه فوضى بمنزلـة الدواب ولا عـدة لهـم وانما عدتهم العيدان يركبون فيها حجـر الزناد ويقتلون بها فحـين رآهـم على تلك الحالة وعـرف ماهـم فيه من الغـرة والبـلادة رجـع الى الملكـة وخبـرهـا بـذلك فجهـزت لـه مراكب واصحبته مـدافـع وخويلة فقصد البلاد المذكـورة ونزلها فحـاربـه اهل تلك البلاد فغلب عليهـم وملكهـم وقبض على ملكهـم ولـم يزالوا يملكون في الهند (2) بلدانا كثيرة واقاليـم متسعـة يجلبـون كـل سنة منها مايغنيهـم وبمحصول هـذه البلاد ومنفعتها وكثرة الامـوال التي تجلب منها صار هـذا الجنس الاصبنيولي اكثر النصارى مـالا وأقـوى دخـلا وكان للملكة زابيل المـذكـورة بنت من فـرنـاند المذكـور زوجتهـا من قند فلانضيس يقـال لـه فلب الموص والموص عندهـم هـو الشاب الحسن اذ كان يضرب بـه

1 – دلفين ليس علما وانمـا هو في اصطلاح الفرنسيين لقب ولي العهد
2 – يقصد هنـا بالهنـد اميريكـا

المثل عندهم في عصره بحسنه وجماله فصار بسبب ذلك علما عليه ، ولما ماتت الملكة زابيل وكانت ابنتها المذكورة من الملك فرناند متزوجة في فلانضيس بعثوا اليها لترث ملك سلفها على مقتضى عوائدهم في وراثة الملك فقدمت ببعلها فلب الموص ولها معه ولد صغير يقال له كارلوس كينط ويعنون به خامس اسم كارلوس باعتبار من تقدم من نسبه الخبيث ممن سمي بهذا الاسم والا فهو اول ملك ملك اصبانية يسمى بهذا الاسم فملكت ابنة فرناند ملك اصبانية مع بعلها ونشأ ولدها كارلوس كينط هذا طاغية داهية من دواهي الكفرة دمرهم الله ذا باس ومكر ودهاء لم يوطن نفسه منذ نشأ وترعرع على دعة ولا راحة الى ان ملك وسافر وحرك (I) وساق الجيوش والمحال برا وبحرا فلقد حسبوا سفراته البحرية فكانت تنيف على العشرين وهو الذي تقدم الى الجزائر بعمارة كبيرة من السفائن تنبف على ثلاثمائة وحمل فيها آلات البناء واقامته من حجر وجير وحدمة وأرسى عليها ليلا فلم يرعهم حين اصبح الصباح الا وبرج مطل عليهم في غاية التوثيق والتحصين وقد نصب عليه المدافع وصار يهدم بذلك جدراتهم ويخرب ديارهم وهم في غاية الضيق وقد اشرف على اخذهم فأبى الله سبحانه الا نصرة دينه القويم ليظهره على الدين كله فهاج البحر وتلاطمت امواجه فغرق جميع مراكبه التي قدم بها فلم ينج الطاغية الا بسبعة مراكب بعد مشقة عظيمة فهنالك ذكروا انه نزع التاج عن راسه ورمى به في البحر وقال من اراد ان يعمل التاج على رأسه فليتقدم الى

I — حرك في الاستعمال المغربي معناه قاد الجيوش لتفقد البلاد او لفتح معقل أو اخماد ثورة او لحرب . والحركة هي هذا العمل وتطلق على الجيش نفسه فيقال وصلت الحركة الى المحل الفلاني

الجزائر ويأخذها وكارلوس كينط (1) المذكور هو الذى حاصر تونس في سفرته هذه ، وملك الحلقة المعروفة عندهم بالمرسى وبقيت بأيدي النصارى دمرهم الله ماينيف على الخمسين سنة فيما قيل الى ان ورد جيش ملك القسطنطية العظمى ، وقدم معهم السلطان المرحوم الذي اكرمه الله تعالى بتلك العزة والعظمة مولاى عبد الملك (2) ابن محمد الشيخ كما هو معروف في غير هذا والبرج الذي بنى الطاغية المذكور هو في ربوة مطل على الجزائر عن يمين الخارج من باب عزون . وقد دوخ هذا الطاغية جميع البلاد الاندلسية وفرانصية ولامانية وبلنسية وغيرها من البلاد وكان يلقب بالانبرطور وكان له ولد يسمى فلب سكوند ومعناه الثاني من هذا الاسم باعتبار جده القادم من فلنضيس فسلم اليه والده كارلوس كينط المملكة وترهب ودخل كينط الفرايلية وصار من جملتهم وزعم أنه زهد في الدنيا ولما ولي فلب سكوند المملكة كان من أخبث

---

1 - كارلوس كينطو أى الخامس هو الامبراطور الالماني الشهير الذى ساد أوربا فى القرن السادس عشر وكانت له حروب مع ملوك عصره خصوصا ملك فرانسا فرانسوا الاول والخليفة العثماني والمعلومات التى أعطاها عنه ابن عثمان كلها صحيحة مما يؤكد مرة اخرى ان مصادره كان موثوقا بها . ولد كارلوس الخامس سنة 1500 وتوفى سنة 1558 فى الدير الذى انقطع فيه بعد تنازله عن الملك . والموقعة التى يشير اليها كان تاريخها سنة 1553

2 - مولاى عبد الملك السعدى الملك المناضل الذى قاوم البرتغال وتوفى اثر مرض أصابه ايام موقعة المخازن التى انتصر فيها المغاربة انتصارا حاسما على الحملة الصليبية المسيحية التى قادها ملك البرتغال دون سبستيان وقتل فيها غريقا هو ومحمد المسلوخ ابن اخى مولاى عبد الملك وذلك يوم 4 غشت سنة 1578 وتعرف هذه الموقعة عند الاوربيين بموقعة الملوك الثلاثة .

أما الموقعة التى شارك فيها مولاى عبد الملك مع جيوش المسلمين فى تونس فهي المعروفة في التاريخ بموقعة حلق الوادى وقد كتب فيها كذلك النصر للمسلمين وقد وقعت سنة 1574 (انظر بحثنا عنها المنشور فى مجلة آفاق العدد الثالث).

طواغي الكفرة فحرك الى البلدان وساق الجيوش وحاصر قاعدة (1) من قواعد مدن الفرانصيص ونصب عليها المدافع ليهدمها وكانت بالمدينة المحاصرة كنيسة تنسب الى راهب يسمى لرينس الريال (2) حالت بين المدينة ورماية المدافع فحين طال حصاره لها لم يجد بدا من هدم الكنيسة ليصيب المدينة ويهدمها فنذر أن يبني كنيسة أخرى أعظم منها وينسبها الى الراهب لرينس المذكور فنصب المدافع تجاه الكنيسة وهدمها وأصاب المدينة وحين رجع بنى الكنيسة التي التزم بناءها وهي المسماة عندهم بالاسكريال وسياتي الكلام على الاسكريال ووصفه بعد هذا ان شاء الله ، ولما مات فلب سكوند ورث مملكته ولده فلب طرسير وهو الثالث من اسمه وهو الذي صير مادريد حضرة مملكة لان أسلافه كانت حاضرة مملكتهم بلد يقال لها البيادليد بينها وبين مادريد ثلاثة أيام ولم تكن مادريد قبل في الحضارة والعمارة وأنواع الحرف والتجارة مثل ماهي عليه اليوم . فلما أن صارت دار ملك كثرت عمارتها وكثر قصادها وصارت من الحضارة بمكان ذات أزقة منفسحة مرصفة بالحجارة وعمارة متصلة حتى أنهم ذكروا ان البلاصة الكبيرة وهي السوق الكبير التي بوسط المدينة فيها من السكان زهاء خمسة عشر الفا

وفي عهد فلب طرسير المذكور خرج من بقي بالاندلس من بقايا المسلمين

---

1 – هذه القاعدة هي سان كانتان Saint-Quentin في شمالي فرانسا وقد حاصرتها جيوش ملك اسبانيا سنة 1557 واستولت عليهما بعد ان دمرت المدافع كثيرا من مبانيها خصوصا كنيسة القديس لوران (لورينسه فى النطق الاسبانى) فنذر الملك فيليبى الثانى أن يبنى لهذا القديس كنيسة أعظم وافخم وهذا أصل دير الاسكوريال

2 – اسم الراهب هو القديس لوران الذى تحكى أسطورة أنه عذب بجعله على مشوى سنة 258م لذلك جعل دير الاسكوريال المنسوب اليه على شكل مشوى – وأما لفظة ريال فهي صفة الدير ومعناها الملكى فهو الدير الملكى للقديس لورينسه صاحب الاسكوريال Real monasterio de San Lorenzo del Escorial

باشارة وزيره وذلك أنهم زعموا ان ملك الترك لذلك العهد كتب الى الوزير المذكور يحضه على أن يتسبب في احراج من بقي بهذه العدوة من بقايا المسلمين المتغلب عليهم ، ويتخذ بذلك يدا عنده فأشار الوزير على مخدومه باخراج البقايا من الاندلس لانهم بينهم وبين دينهم عهد قليل وما زالوا الى الآن في قيد الحياة وعددهم كثير ولا نامن من ثورتهم مرة اخرى لانهم ثاروا اولا على عهد فلب سكوند والد هذا الطاغية فالاولى ان يجلوا من هذه البلاد ويعبر بهم البحر ويتفرقوا في البلاد البربرية فقبل الطاغية من وزيره ما أشار به عليه وأمر بجمعهم وعبروهم البحر الا من تنصر بغرضه .

ولما مات فلب طيرسير وعجل الله بروحه الى سقر ، تولى المملكة بعده ولده فلب كوارط وهو الرابع من اسمه ، ولما مات فلب كوارط ترك أولادا كثيرين وكلهم أولاد زنى ليس لهم حظ في المملكة لانهم أبناء زنى وكانت له امرأة بنت عم الانبرطورد لمانية (1) خطبها لاحد أولاده فلما قرب وصولها الى مادريد مات وماتت زوجته هو ولم يكن له معها أولاد فتزوج ابنة الامبرطور المخطوبة لولده فولد معها ولدا اسمه كارلوس سكوند وهو الثاني من هذا الاسم الخبيث فهو الذي ورث ملك أبيه فلب كوارط وباقي اخوانه اولاد الزنى ترهب جلهم وكانت له أختان احداهما متزوجة عند طاغية الفرانصيص لويز الرابع عشر والاخرى متزوجة عند لنبرطورد لمانية . ولما مات كارلوس سكوند لم يترك عقبا يرث ملكه وكان لاخته التي عند الفرانصيص ولد يسمى دلفين ولاخته التي عند لنبرطور ولد يسمى كارلوس فنهض كارلوس

---

1 — يعنى المانيا وكثيرا ما يسقط المغاربة الهمزة من أول الكلمات الغربية الدخيلة . والعلائق العائلية بين هؤلاء الملوك المذكورين كلها صحيحة وكذلك كل الوقائع التاريخية التى آلت بالملك الى كارلوس الثالث الذى وفد ابن عثمان سفيرا اليه.

ابن لنبرطوز الى طلب ملك خاله أخي أمه وأما دلفين ولد أخته التي عند الفرانصيص فقد تعين عليه ملك فرانصية بعد موت أبيه فلا يمكن أن يتركه وياتي الى اصبانية ، وكان له ولد يقال له فلب كنط فورد على اصبانية نيرث ملك خال أبيه فوقعت بينه وبين كارلوس ولد الانبرطور ولد خالة أبيه محاربة (1) كبيرة طالت بينهما نحو ثمان عشرة سنة حتى مات الانبرطور وتعين ملك لمانية على كارلوس المذكور فورث ملك لامانية ، وخلصت مملكة اصبانية لفلب كنط وهو الذي أنشأ مدينة لرانخة ومتنزهه بها الذي ليس في الوجود مثله كما سياتي بيانه ان شاء الله ، وأما ابوه دلفين فقد مات في حياة أبيه ومن أجل ذلك يلغزون به فيقولون أيما رجل أبوه ملك وولده ملك وهو لم يكن ملكا وكان تملك فلب كنط مملكته اصبانية بعد موت كارلوس سكوند وذلك في تاريخ سبع مائة والف (2) من المسيح ، وكان له من الاولاد الذكور ستة لويزو فرناند من امرأة ، ثم كارلوس وفلب ولويز وثلاث بنات احداهن عند طاغية البرطقيز (3) وهي موجودة الى الان والاخرى عند طاغية سردانية (4) في الحياة أيضا والاخرى أيضا عند ولد سلطان الفرانصيص . فلما بلغ فلب كنط في المملكة ستا وعشرين سنة سلمها لولده لويز الاول وبقي هو متفرغا للصيد وغيره فبقي ولده لويز في المملكة ما يقرب من سنة ومات عن غير عقب فرجع كنط الى المملكة باتفاق بين الاصبنيول فبقي في المملكة الى

---

1 – هذه الحرب تعرف فى التاريخ بحرب الوراثة وقعت للاسباب التى ذكر المؤلف وذلك من سنة 1701 الى سنة 1714 فهى دون المدة التى اشار اليها

2 – ابتدأت سنة 1700 الميلادية يوم الجمعة 10 رجب سنة 1111 هـ . وانتهت يوم الجمعة 20 رجب سنة 1112 من التاريخ الهجرى – وقد استمر ملك فليبى الخامس الى سنة 1746 .

3 – أى ملك البرتغاليين .

4 – جزيرة فى البحر الابيض المتوسط تابعة اليوم للجمهورية الايطالية

ان توفي سنة ست وأربعين وسبع عشرة مائة (1) بتاريخ المسيح وتولى من بعده ولده فرناند وهو السادس من هذا الاسم لكونه أكبر اخوانه وتوفي سنة سبع وخمسين وسبع عشرة مائة (2) ولم يترك ولدا يرث ملكه فولي المملكة اخوه كارلوس طرسير الطاغية الموجود اليوم وقد كان قبل لما كان اخوه ملكا سلطانا في نابل (3) ولما مات اخوه تولى مملكة اصبانية وجعل ولده في نابل . واخوان الطاغية الاخرون احدهم فلب ومات وفلب الاخر هو الان دوكي ذي بارمة (4) من بلاد لطالية ولويز هو في الحياة أيضا بينه وبين الطاغية وحشة بسبب تزوجه امرأة من أطراف الناس وليست من أبناء الملوك ، لانه نهاه عن أخذها فعلقها ولم يبال بقول أخيه .

وللطاغية المذكور من الاولاد أربعة كارلوس وهو الاكبر منهم عمره نحو الثلاثين سنة وهو الذي يرث ملك أبيه ان بقي بعده والذي يليه فرناند ، وهو طاغية في نابل ثم كابريد ثم طونى وابنة واحدة عجوز اسمها مارية طريسة .

ولما تلاقينا مع الطاغية كما تقدم ودفعنا له الكتاب الامامي المؤيد العلوي الهاشمي أعطاه الترجمان الذي هو عنده لينقله من العربية الى العجمية وهذا الترجمان رجل نصراني (5) من ناحية المشرق يتكلم

---

1 – ابتدأت سنة 1746 يوم 8 حجة 1158 وانتهت يوم 17 حجة 1159 من التاريخ الهجرى .

2 – ابتدأت سنة 1757 يوم 9 ربيع الثانى 1170 وانتهت يوم 19 ربيع الثانى 1171 من التاريخ الهجرى .

3 – كانت مملكة نابلى مستقلة قبل أن يتم توحيد ايطاليا فى القرن الماضى على يد السياسى الايطالى الشهير كافور.

4 – مدينة بارمة بايطالية كانت امارة مستقلة تداولتها الممالك الاوربية حسب قواعد الوراثة عندهم حتى تم ضمها للمملكة الايطالية عند توحيدها وكان ذلك سنة 1860 .

5 – كان اسم هذا الترجمان قاصرى Casiri واصله من نصارى الشام وهو أول من اشتغل فى المخطوطات العربية الموجودة بدير الاسكوريال ووضع لها فهرسا

باللغة المشرقية ويعرف جميع الالسن العجمية على اختلافها ويعرف السرياني والفارسي والعبراني واللسان العربي وكذالك يعرف الخطوط كلها فترجم له الكتاب الشريف ، وقرأه الطاغية وعرف مضمنه وما أشار به اليه سيدنا أمير المومنين من تسريح أسارى المسلمين باشارة لطيفة تضمنتها الصدقة المبعوثة من عند سيدنا ومولانا صحبتنا اليهم واختبار احوالهم مع وظائف غير ذلك ألزمهم اياها سيدنا ومولانا أمير المومنين فتلقى الامر المطاع بالانقياد وأخذ يدبر ما يتلقى به أمر سيدنا ومولانا

وفي خلال مقامنا بمدريد كان يسأل عن أحوالنا ويبحث عنا هل نحن فرحون في بلده ويبعث لنا أكابر دولته لتأنيسنا والسلام علينا وأمر جميع وزرائه بالورود علينا وكذا امر جميع من عنده من وفود طواغي الكفرة ويسمونهم لنبشدريس (I) وقد وردوا جميعا للسلام علينا مثل لنباشدور الفرانصيص وباشدور نابل وهاؤلاء لهم خصوصية عند الطاغية وتميز عن غيرهم من سائر لنباشدورس من أجناس النصارى ويسمونهم لنبشدورس ذى فميلية (2) المعنى القرباء اليه لان نباشدور افرانصية من جنسه وانباشدور نابل من اهل مملكته الاولى ومملكة ولده من بعده وورد علينا باشدور بلنسية وباشدور مالطة وانباشدورس دانية ونباشدور الباب ويسمى النونسي (3) الى غير ذلك من النباشدورريس وهولاء يردون بقصد المقام بديارهم وسائط بين ملوكهم وبين الطاغية فيما يعرض لاحدهما عند الاخر فيقيم أحدهم العشرة أعوام او نحوها وياتي من يخلفه ويتوجه هو الا جنس اللنجليز فقد وجدت لنباشدور سافر من اصبانية بسبب

I – هذه الكلمة معناها السفراء وهي محرفة لانها فى الاسبانى تنطق هكذا (امبخاضوريس) . وتكتب هكذا Embajadores .

2 – أي سفراء العائلة : وقد ترجمها بالقرباء لان المؤدى واحد .

3 – Nuncio بالاسبانى وهو سفير البابا

الحرب (1) التي وقعت بين اصبنيول واللنجليز وسبب ذلك هو أن اهل ماركة (2) وهي رعية اللنجليز وبالمدخول الذي كان يتحصل له منهم قوي على سائر أجناس النصارى فذكر أنه شدد عليهم في المكوس وكثرة اللوازم وبعث لهم مركبا مملوا من الشاء والزمهم ان يعطوا فيه أكثر مما هو معتدد فامتنعوا وطلبوا منه أن يقبل منهم المال الذي اراد منهم ولا يخرق عليهم عادة فأبى الا نفوذ أمره فأظهروا الخلاف عليه والاستقلال برأيهم وجعل الفرانصيص يمدهم بما يتوقفون عليه في محاربة اللنجليز يريد بذلك أن يختل حاله ويضعف أمره لانه كان اقوى اجناس النصارى في البحر وكان له الظهور عليهم وأعياهم أمره لما اشتد كلبه ولما احس اللنجليز بأن الفرانصيص يعين أهل ماركة على خلافه ومحاربته نهاه عن ذلك فقال ليس بيني وبينهم كلام فكان يمدهم سرا فوقعت بين اللنجليز والفرانصيص حروب كثيرة ولما استعرت الحرب بينهما جعل اللنجليز كل من يلقاه في البحر من مراكب اجناس النصارى يبحث فيه ومن أين ورد والى اين هو متوجه وما حمل في مركبه . وكان من جملة المراكب التي كان يوذيها اللنجليز بالبحث فيها مراكب الصبنيول فكاتبه طاغية الصبنيول أن يترك عنه مراكب رعيته ولا يؤذيها لان هذا الفعل غير جار على قوانين الصلح فأبى الا تماديا على فعله فوقعت الحرب بينهما بسبب هذا وجرد الصبنيول محلة كبيرة أنزلها في مقابلة جبل طارق من ناحية البر وجرد عسكرا آخر وبعثه في المراكب في البحر وحاصروا جبل طارق ليلا يدخل اليه أحد قوتا او ميرة او ما أشبه ذلك ولهم في حصاره الان نحو العشرة اشهر ولا زال مجدا في تجريد العساكر وبعثها الى

1 – هذه الحروب هي التى نتجت عن حرب استقلال الولايات المتحدة وقد شرحها باختصار لكنه يطابق الواقع .

2 – أي أمريكا واللهجة المغربية كثيرا ما تحذف الهمزة اذا كانت فى أول الكلمة خصوصا فى الاعلام الاجنبية انظر التعليق قبله 1 ص. 93 .

الجبل المذكور وعنده مع اللنجليز حرب اعظم من ذلك في بلاد الهند والفرانصيص مع الصبنيول على محاربة اللنجليز

وقد بالغ هذا الطاغية في اكرامنا وتعظيمنا كل ذلك تعظيما لسيدنا ومولانا امير المومنين اعز الله ببقائه الدين فلم يبق متنزه ولا متصيد الا وأرانا اياه وأمر جميع أكابر دولته باكرامنا فكانوا يتسابقون لذلك لعلمهم أنهم يستجلبون بذلك اليهم خاطر طاغيتهم .

وقد بعث الطاغية الينا احد خاصته فأدخلنا دار الطاغية بنفسه التي بها سكناه في مادريد وقد أحدث بناءها أبوه فلب كنط واحترقت وأخذ في اعادتها ومات وخدم فيها ولده فرناند الذي ملك بعده ومات وكملها كارلوس الطاغية اليوم ولا زال في الزيادة فيها الى الان وهي في غاية الحسن وبهاء المنظر وعلو السمك وكلها من الحجارة المنحوتة التي تشبه الرخام وكذا سقفها كله من الحجارة خشية من النار لانه كثيرا ما تضطرم النار بديار مادريد من كثرة الخشب فتجد الدار قائمة من الخشب أول مرة بجدراتها وسقفها مفصلة فيها مساكنها وقد جعلوا القرمود بأعلى سقفها وهي لم تبن وبعد ذلك ياتي البناؤون فيبنون على ذلك الخشب القائم ومن أجل ذلك يكثر عندهم الحريق وبهذا السبب لم يجعل الطاغية بهذه الدار خشبة واحدة وليس فيها الا البنيان ولها طبقات متعددات وطيقان بعددها في جهاتها الاربع ماينيف على الثلاثمائة وكلها بالزجاج وشبابك الحديد وفي أسفل هذه الدار من المخازن والاهرية على قدر مساحتها ولها شبابيك من حديد على وجه الارض لادخال الضوء وقد أرانا قيم الدار جميع مابها من القبب والمنزهات (1) البديعة

---

1 – المنزهات جمع منزه ويطلق فى المغرب على قاعة فسيحة فى علوى البيت لها نوافذ على البساتين والكلمة اسم مكان من نزه المكان كفرح كان لائقا للنزهة . والجمع الجارى على الالسنة هو منازه وربما كان جمع المؤنث السالم المذكور هنا مستعملا أيام ابن عثمان .

الشكـل الا أن أشكـال أبنيتهم ليست كأبنية بلدنـا فجميـع قبب هـذه الدار على كبرهـا وكثرة عـددها يـدخـل اليهـا من باب واحـد كـل قبـة تنفـذ الى الاخـرى وقـد أرانـا بهـا عـدة مكانات التي تستعمـل الموسيقى فقد رأيت في مكانـة صورة طائر صغير يسمونه الكناليـوا (1) لـه حـركـات يتحـرك بها ويستعمل الموسيقى بفيـه وبازائـه بنت بيدهـا اوراق الغنـا وهي تضرب بيدهـا على أوزان الالحـان التي يستعمـل الطائر ، وصورة اخرى بيدهـا الالـة المسمـاة عندنا بالشبابة (2) فينفخ فيها ويضع أصابعـه على ثقب الشبابـة ويرفعها على حسب نغمـات الموسيقى ، ومكانـة أخـرى فيها صورة امـرأة في يدهـا الالة المسماة قطارة (3) أقرب شبها من العود ، وشابان أحدهمـا عـن يمينهـا والاخر عـن شمالها بيد كل شبابة وحين يحرك حركتها تستعمل الموسيقى المـرأة بعودهـا ويدهـا تضرب في الاوتار وأصحاب الشبابة كـل واحـد يرفـع شبابته الى فيه فـلا يشك الناظر ان الغناء الـذي يسمع هـو من استعمـال الصور فتأملت ذلك فرأيت المـرأة تضرب الاوتار بيدهـا واليد الاخـرى لاتجس أصابعهـا الاوتار فقلت لاصحاب الدار هـذه النغمـات التي تسمع من هـذه المكـانات ليست من عمل الصور التي أريتمونا قالـوا

---

1 – الكناليو تحـريف للكلمة الاسبانية Canario (كنـاريـو) وهـو اسـم طـائر مغـرد من انـواع البلابـل أصفر اللون اصلـه من الجزر الخالدات التي يسميها الاسبـان كنـاريـاس Canarias وهي في المحيط الاطلسي غـرب المغـرب وهـذا الطائر يسمى اليـوم كنـار ـ ويحـرف كـذلك الى كلايلـوص (مـن الجمع الاسبـانى Canarios) واسم هـذه الجـزرة مشتـق مـن كلمـة Canis (كنيس) اللاتينيـة بمعنى كلب لان الاوربيـين وجـدوا بها عند احتلالها كلابا كبارا فسموهـا بـذلك

2 – الشبابـة مزمار مـن قصب يتسلى بـه الـرعـاة بـالخصـوص ويخرجون منـه أصواتا ونغمـا رقيقة مشجيـة . واسمه الشائع النيرة . وقـد ذكر صاحب أقـرب الموارد لفظة الشبـابـة قائلا عنهـا . « نـوع من المـزمـار مولدة » .

3 – بالاسبانية Guitarra وتسمى اليوم بالعـربية قيثـارة والمغاربـة يقـولـون كيتـارة .

ومـن ايـن لك هـذا ؟ فقلت لهـم لو كـان كما ذكـرتم لكانت المرأة تجس أصابـع يدهـا الاوتـار فـلا يمكـن ان تختلف النغـم الا بذلك ، فقالـوا هو كذلك وفتحوا حينئذ المكانة فاذا حركات وقنانيط (1) وأجعـاب لكـل نغـم ومنهـا يسمع ذلك وكفانا الله بهـرجتهـم

وبمادريـد من البساتـين والاجنات ماتجـاوز الحـد في اللطـافـة فمن ذلك مـوضع يقـال لها الرطير (2) وهو موضـع فيـه بستان كبير غـايـة في الكبـر بهي المنظر فيـه طرق مستقيمـة مغـروس على جـانبهـا أشجـار صاعـدة في الجـو مقصود منهـا الظـل فقط ، وفيه من أشجـار الفاكهـة شيء كثير ، وبالبستان المذكـور دار ملوكهـم المتقـدمـة من لـدن فلب كوارط وهو الـذي بنـى الـدار المذكـورة وأدخلنـا القيـم اليهـا وأرانا جميـع قببهـا ومنزهاتهـا وهي مشرفـة على البستان المذكـور وقـد رأيت في بـراح أمـام الدار ساريـة مربعـة علوهـا نحـو العشرة أشبار فوقهـا صورة فـرس عظيم من النحـاس راكبة عليه صورة فلب كوارط من النحـاس ايضا وبيده عصى تكون بيد ملوكهم يسمونها البسطون (3) والفرس واقف على رجليه الاخريـين رافعـا يـديـه الاوليـين فقضيت العجب من وقـوف الفـرس علـى رجليـه الاخريـين مـع ثقلـه لانـه اخبرني القيـم على ذلك ان زنـة الفـرس بسرجه والصورة الراكبة عليه مائـة وخمسون قنطـارا فـأمعنت النظر فـاذا في وسط سبيب الفـرس عمـود من النحاس من أصل الفـرس داخل في الساريـة مبني

---

1 — جمع قنوط بتشديد النـون وهـو القصبـة التى تلـوى عليهـا الخيوط واصلهـا من الاسبانى Canuto أى ما بـين عقدتين فـى قصبة من لفظة Caña قصبة ويسميها المغاربة جعبة أمـا القنوط بالمعنى المغربى فيقال له بـالاسبانى Bobina .

2 — El Retiro اسم بستان كبير فسيح من متنزهات مجريط الى الان.

3 — Bastón بالاسبانية ويعنى بـه الصولجان وان كان فى الحقيقـة لا تطلق لفظة بسطون الا على عصا القيادة التى يحملها القـواد العسكريون ونحوهم أمـا صولجان الملك فيسمى عنـدهـم Cetro

عليه وهو الذي جذب الفرس من ورائه حتى ارتفعت يداه وهذا العمود لا يراه بديهة الا من تأمل وكذا في رجليه الاخريين فضيبان من النحاس غليظان عند منتهى ساق الفرس في الموضع المسمى بالمشعر ادخلوا في السارية وبنوا على الجميع وبسبب ذلك بقي الفرس واقفا لا يتحرك وقد وقفت في رحلة الفقيه سيدي محمد الوزير (1) رحمه الله الى اصبانيه أنهم كانوا يجعلون في الفرس المذكور حركات تصوت مثل صهيل الفرس فاذا أرادوا أن ينزو فرس على فرس ياتون بها أمام الصورة ويحركون الحركات ويسمع للصورة صهيل مثل الفرس لعل الانثى تاتي بفرس على شكله فسألت عن ذلك فلم أقف على أثر شيء لعل تلك الحركة بطلت قديما ولم يدركها الموجودون اليوم وبمادريد أيضا بدار خارج عن المدينة صورة فرس من النحاس أخرى فوق سارية عريضة وعلى الفرس صورة زعموا أنها صورة فلب كوارط أيضا رافعا يديه وكاسرا احدى رجليه وصنعة الفرسين واحدة ، وفي البستان المذكور صهريج كبير يجتمع فيه ماء المطر جلب اليه من ناحية القلعة (2) قرية بينها وبين مادريد ست ساعات جلبه فلب كوارط بالبناء وجعل له الصهريج

---

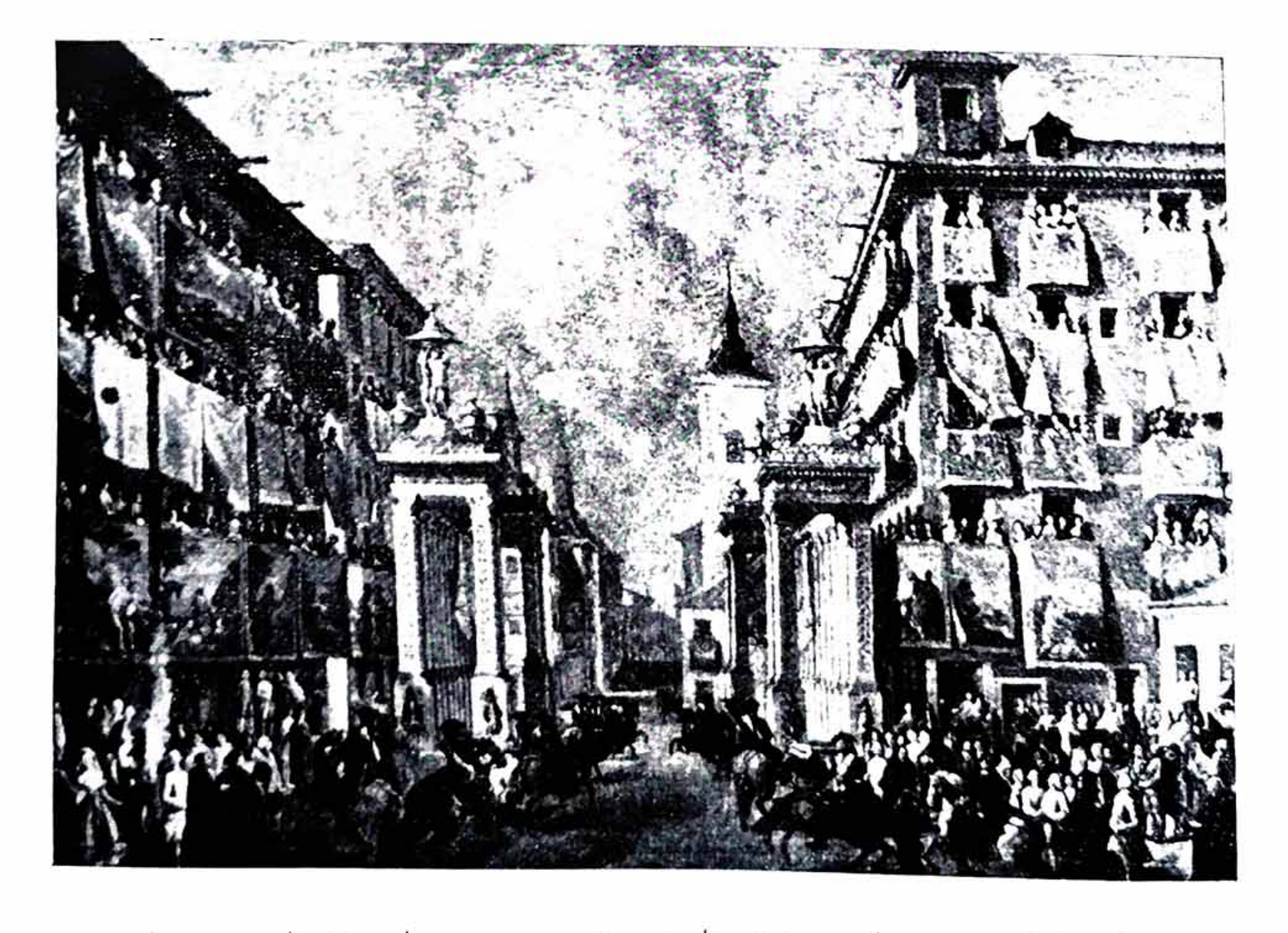
1 — مما يلاحظ أن ابن عثمان فى هذه الرحلة لا يعتمد الا على مشاهداته وما أخذه مشافهة عن العلماء الاسبانيين الذين التقى بهم فهو اذن لا ينقل عن كتاب مطلقا الا ماكان من هذه الاشارة الخاطفة الى رحلة الوزير فى افتكاك الاسير لابى عبد الله محمد بن عبد الوهاب الوزير الغسانى من اهل فاس وقد كان سبقه الى السفارة عن المولى اسماعيل الى ملك اسبانيا كارلوس الثانى لافتكاك الاسارى والمطالبة بالمخطوطات العربية وذلك سنة 1101 (1690 م) توفى ابو عبد الله الوزير بفاس سنة 1119 هـ (1707 ـ 1708) وقد نشرت رحلته بتطوان .

2 — تسمى بالاسبانية Alcalá de Henares تمييزا لها عن قرى أخرى ومدن تسمى القلعة كذلك مثل Alcalá de los Gazules, Alcalá La Real وغيرهما وقلعة هناريس هذه تبعد عن مجريط نحو ثلاثين كيلو ميترا

المذكور وفيه فلايك وطيور كثيرة وربما يجمد في فصل الشتاء من شدة القر فيمر عليه النصارى على أرجلهم ، وهنالك أقوام اذا جمد هذا الصهريج يجعلون في نعالهم حديدة ويرفع أحدهم احدى رجليه ويمر الرجل الاخرى على الماء الجامد فيمر كالبرق ولا يقدر أن يملك نفسه فاذا أراد أن يقف يقصد في مشيه احدى حافتي الوادي شيئا فشيئا وتنشب الحديدة التي في نعله في الارض ويقف حينئذ ليستريح ويصلح من شانه ويجدد السير ومثل هذا كثير في بلاد فلا نضيس على ما يحكى فيسافرون بالمكاتب من بلاد الى أخرى فيصلونها في أقرب مدة أسرع ما يكون

وفيما بين الرطير ومادريد موضع متسع مستطيل مغروس في جانبه الشجر بصفوف معتدلة مقصود منها الظل وقد وكل به أقوام يرشونه زمن المصيف ويسوونه ويخرج الى ذلك الموضع كل يوم الاكابر مع ضاماتهم في الاكداش وياتي الوزراء وأبناء الطاغية فيترددون هنالك الى المغرب وينصرف كل واحد حيث شاء وموضع بوسط موضع الاكداش يترددون فيه الرجالة لان الاكداش يمرون مع طريق ويرجعون مع أخرى ليلا يتصادموا والرجالة موضعهم في الوسط ، وفي الموضع المذكور عدة من الشلطاظ راكبين على خيولهم مجردين سيوفهم بقصد حراسة ذلك المكان بحيث لايدخل الاكداش في موضع الرجالة ولا العكس وليلا يقع شنئان بين أحد لانه يجتمع هنالك من النصارى في كل عشية مالا يمكن عده وليكون سير الاكداش متتابعا يمرون مع طريق ويرجعون مع أخرى وعندهم مواضع اخرى معدة لما ذكر غير هذا المكان ويسمون معليم هذا الباصيار (I) ففيه تلفت الاعمار وهووا من شفا جرف هار الى بحبوحة النار وبيس القرار .

I – هذا الفعل Pasear (أى تفسح) واما المصدر فهو Paseo . أى التفسح .



الشارع الرئيسي لمدريد في عهد زيارة السفير ابن عثمان ويظهر في الشارع انتظار السكان مرور الملك كارلوس الثالث

وبمادريد أيضا دار كبيرة في غاية الاتقان عليها قيم من قبل الطاغيه مجموع في هذه الدار من أنواع الغرائب البرية والبحرية والمعادن الذهبية والحجرية مالا يمكن وصفه وفيها من أنواع معادن الحجارة الثمينة عدد كثير فمنه ماهو مخدوم استنارت شرقته وصفت جوهريته على اختلاف انواعه من أحمر وأخضر وأصفر ويمانط (1) الى غير ذلك من الالوان وكل حجر حذاءه طرف من معدنه الاصلي ومن أنواع الحجارة نوع يسمونه عين الهريتلون ضياؤه كما تتلون عين الهر في الظلام وبالدار المذكورة المعادن التي منها هذه اليواقيت باقية على اصل معدنيتها وهنالك معدن الرخام على اختلاف أنواعه وألوانه ، فقد رأيت في بعض صفائح الرخام المذكور صورة الاشجار وذلك من الحجر نفسه وفي بعضها ما يشاكل صور الديار على أشكال صور دور النصارى فسألت القيم هل هده الصور مستعملة باليد فقال انها من اصل الحجر نفسه فأكدت عليه في ذلك فقال هو ما ذكرت وما أنزل هذا في هذه الدار الا لغرابته وقد رأيت بها قصبة طولها أربعون ذراعا ونصف وفي دائرة غلظها شبران ذكر القيم أنها من بلاد الهند وبالدار المذكورة حمار من بلاد الهند جلده مخطط خط أبيض وخط أسود في عرض الاصبعين وفيها صبيان لاحدهما رأسان وذات واحدة وللاخر رأس واحد وأربعة ايد وأربعة أرجل وفيها شاة واحدة لها راسان وشاة اخرى لها راس وذاتان ، وفيها حيوان آخر له عين واحدة في جبهة رأسه مثل رأس الكلب وهو أخنس وفيها كلب له رأسان في ذات واحدة ، وفيها من الحيات في طول جوائز الخشب ، وحيوانات البحر مالا يعد ومن

---

1 – اليمانط هو ما نسميه كذلك الديمانض وهو الالماس بالعربية وديمانض من الاسبانية Diamante واصل الكلمتين العربية والافرنجية من كلمة يونانية هي أدماس حرفها اللاتينيون الى ادمانتم ومنها Diamante والعرب الى ألماس . وكثير من الكتاب العرب يكتبونها «ماس» غلطا ظنا منهم ان ال هي للتعريف والحقيقة أنها أصلية .

الطيور الغريبة أشكالها شيء كثير وفي هذه الدار من العجب العجاب ، مالا يسعه كتاب ، والحيوانات المذكورات موتى الا انهم جعلوا لها الكافور وجمعوها بهذه الدار لغرابتها ورايت بها قشر فكرون (1) اكبر ما يكون من القصع وكلب له ستة أرجل وخنزير له ثمانية ارجل وخنزير آخر ذكر القيم أنهم وزنوا لحمه فوجدوه أربعين ربعا وحشوا جلده تبنا وشاة لها لسانان ورأيت بها أبالا (2) ابيض وهذا من الغريب الحاصل عجائب هذه الدار لاتحصى ولا زالوا يجمعون فيها كل غريب ظهر في البر وفي البحر ويجلبونه اليها من الاقاليم البعيدة وقد رأيت بمادريد أيضا في موضع آخر للطاغية عنده فيه الطيور الطائر المسمى بالببغا عمره مائة سنة وطائر آخر أغبر ذكروا أنه من السودان عمره ثمانون سنة وقد كان لوالدة الطاغية وما زال الى الآن .

ومن عجائب مادريد أيضا الدار التي ينسج فيها الزرابي والحياطي (3) التي تعلق على الجدرات وقد رأيت ذلك بالدار التي كنا نازلين بها ، فجدراتها

---

1 – يعني السلحفاة والكلمة بربرية افكرون يجمع على افكران ومنه ابو فكران اسم قرية بين مكناس والحاجب ولكن العامية المغربية تجمع الفكرون جمعا عربيا فكارن

2 – فى طرة بهامش المخطوط 2542 واحد الابابيل – والابال كلمة لا وجود لها لا فى العربية الفصحى ولا فى العامية وانما احذها ابن عثمان من الاسم الذى يطلقه المغاربة على طائر ابيض يلازم الانهار وهو طير ابابيلا حيث توهموا ان المقصود بقوله تعالى فى سورة الفيل (105/3) طير بعينه مع ان أبابيل فى السورة الكريمة معناها جماعات كثيرة متتابعة من أبلت الابل كثرت وقد اورد دوزى فى كتابه «ذيل المعاجم العربية» ج 2 ص.79 لفظة طير أبابيل لكن بمعنى Huppe أى هدهد ولعل هذا معناها فى الشام لانه نقلها عن مؤلف مشرقى .

3 – جمع حيطى ويراد به فى المغرب ستائر من قماش رفيع موشى تعلق على الحيطان . ومقصوده هنا الزرابى التى تسدل للزينة فى القصور ومنازل الكبراء وهى منسوجة وتمثل مناظر جميلة مأخوذة عادة عن لوحات مشاهير الرسامين وتدعى بالفرنسية Tapisserie

كلها مكسية بذلك ، وفيها من الصور ما يقصر عنه الوصف من بني آدم على اختلاف ألوانهم وأشكالهم وثيابهم وهيئاتهم من ضاحك وعابس ومشتغل بعمل ومهتم بفعل ، وهذا في غاية الغرابة وأما الحيوانات البرية والبحرية والكتابة والتشجير (1) والتوريق (2) فقد ظهر ان لاغرابة فيه بالنسبة لما ذكر ، وقد كنت أظن ذلك من عمل الطبع المسمى عند النصارى بالباصمة (3) حتى أروني الدار التي ينسج فيها ماذكر فاذا هي احدى عجائب الدنيا

وبمادريد ايضا من الاكداش مالا يعد كثرة بحيث أنه لا ينقطع دوي الاكداش في سائر أزقتها نهارا وليلا الى ان يجوز نصف الليل وقد أخبرني من له خبرة بذلك أنه قدر عدد الاكداش نحو العشرة آلاف والغالب على أن كل كدش يجذبه ستة بغال وقد علمت أن عدد البغال من هذه الحيثية كثير وقد رسم الطاغية على كل بغلة من بغال الاكداش جعلا عن كل شهر وعين لقبض ماذكر أقواما أمناء على ذلك فيتحصل من ذلك مال كبير يصرف منه في اصلاح أزقة المدينة وترصيفها بالحجارة والفاضل يبقى محفوظا الى ان تدعو ضرورة اليه لان أزقة مادريد على كبرها وسعتها كلها مرصفة بالحجار ومهما يظهر في بعض الطرقات حجر مقلع يرده من حينه الموكلون بذلك ، ولقد أخبرني

---

1 — التشجير هو ما يمتاز به الفن عند المسلمين سواء في النقش على الخشب أو التزويق في الجبس وفي الالواح وكذلك في الزرابي وكل ذلك يرجع الى تصوير أغصان الاشجار ملتفتة ومتلوية بعضها على بعض

2 — التوريق كذلك وهو تصوير أوراق الاشجار على اختلاف انواعها واشكالها

3 — أظن انه يعني بهذه الكلمة لفظة Imprimación وقد تحرفت له الى باصمة والمقصود بها جعل مادة الصبغة فوق الثياب والالواح التي يراد تزويقها وهي مشتقة من لفظة الطبع كما ذكره . ويقال لها بالفرنسية imprimure وهي اصطلاح فني في كلتا اللغتين .

من لـــه معرفـــة بمادريـــد أنهـــم قدروا قيمة كل حجـــر من الحجر المرصفة بـــه مادريـــد بجميـــع المصاريف فكان عشر ريال كبـــير

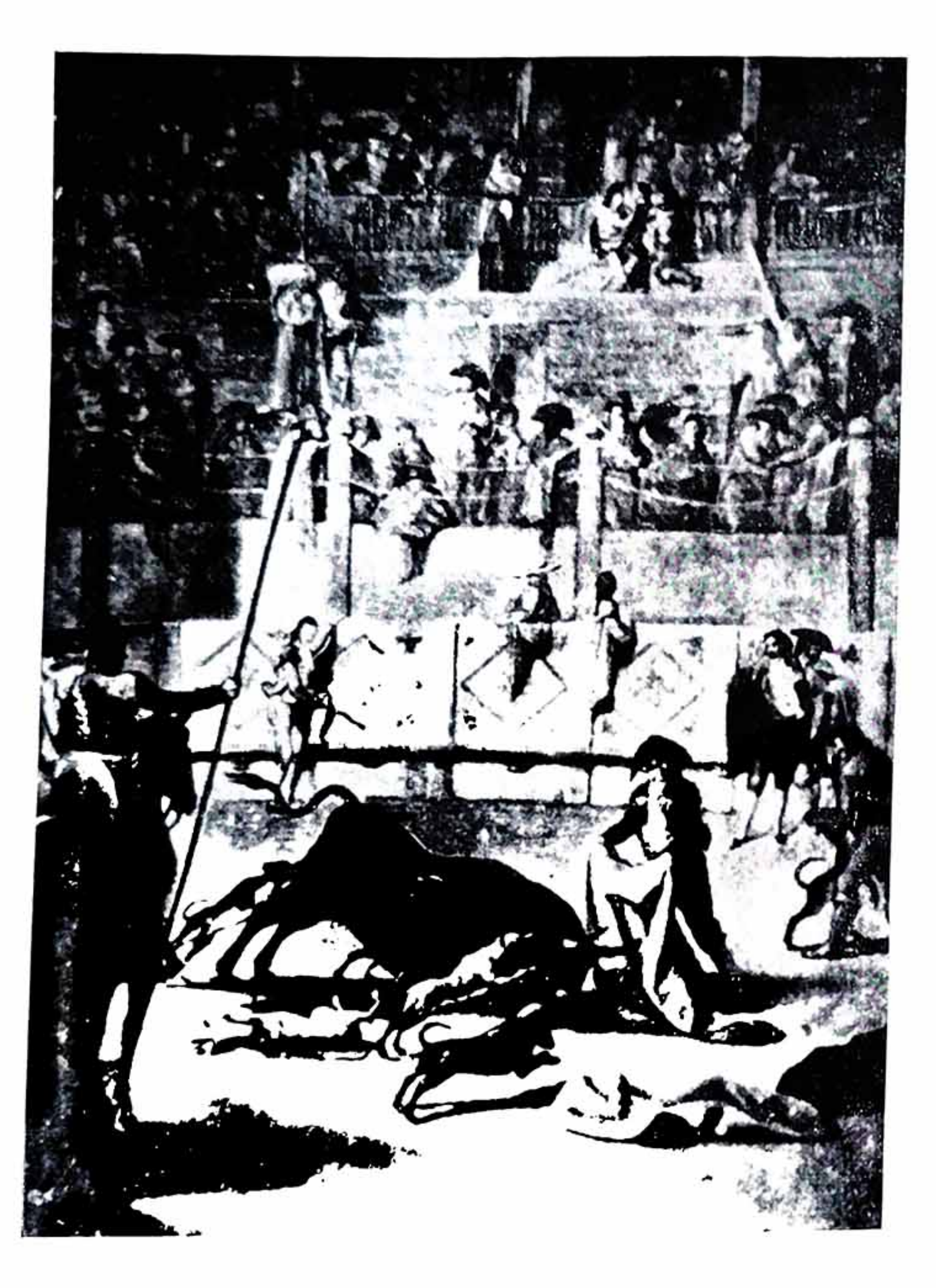
وبما اختصت بـــه مادريـــد عن سائرها من بلاد اصبانية أنك لاتلقى بهـــا سـائلا في أزقتهـــا مـــع ان السوال في بلاد النصارى لاحد لهـــم وما رأيت بمادريد أكثر مسئلة من الفـــرايليـــة أهلكهـــم الله وطهـــر منهم البلاد فقـــد ضلوا وأضلوا وهـــم اشد كفـــرا وعنادا جعلوا تلك الحـــرفـــة التي بأيديهـــم من اظهار الزهد وهـــم أشـــد النـــاس حـــرصا أحبولة نصبوهـــا على هـــؤلاء الحمر الذيـــن طبـــع الله على قلوبهـــم فهـــم لـــن يعقلوا رشدهـــم ولم يقدروا مقـــدار نعـــم الله عندهم فـــألقـــوا أزمتهـــم بأيدى هـــؤلاء الفجـــرة الفرايلية يخبطون بهم خبط عشـــواء، حتى انهـــم ألـــزموهم الاقـــرار بالذنوب فيناجونهم بهـــا نجوا، وربمـــا خـــلا راهب بامـــرأة حسناء جميلة، اذا أبصرتها العيون ترجـــع وهي كليلـــة، فتقر بذنبهـــا المستور، لاكـــن بعد ان يرخي عليه وعليها الستور، فتخبره بما أسرت وأعلنت، ويلزمها أن تصدقه الخبر ولو زنت فيغفر لها بعـــد ان تنـــوي التوبة، وربما تعده بالاوبـــة، وتخـــرج من عنده وذنوبها قـــد غفـــرت وعيوبها للورى قـــد نشرت فتلك المدة التي أقمنا بمادريـــد يخـــرج هؤلاء الفـــرائليـــة بـــين العشاءيـــن ويوقدون عـــدة منارات يرفعونها على أعمدة ويحملـــون معهـــم صورة يزعمـــون أنها صورة السيدة مـــريـــم ويصحبون معهم افـــريليـــة مخصيـــين يخصون انفسهم بأيديهـــم لتبقى حلوقهم رقيقة ويرفعون اصواتهم في الازقـــة بالحان مضمنهـــا المسئلة مستشفعين بالصورة ويتصدق عليهم النصارى، وما رأيتهـــم أبطلوا عملهـــم ذلك مـــدة مقامنـــا وكـــان ذلك في فصل الشتاء وشدة القـــر ويظهـــرون مـــع ذلك خشوعـــا ووقـــارا، ورعـــدة واقشعـــرارا، وفـــاقة واضطـــرارا، رب لاتـــذر على الارض من الكافـــرين ديارا، لقـــد أحيـــوا طريقة ساسان، وأزاحوا عنهـــا من الملل والكسل ماشان، فقد رفعـــوا علمهـــا، محلين حلالها وحـــرامهـــا، وكما أعمى الله تعالى بصـــيرة هـــؤلاء الضلال حتى لـــم يهتدوا سبيلا أعمى بصرهـــم فغالبهـــم بـــل جلهـــم ضعيف البصر فتجـــد الفرايلي

يجعل نصب عينيه زوجين من النظارات ليتأملك وبينك وبينه خطوتان أو ثلاث قبحهم الله

وبمادريد أيضا دار مستديرة متسعة الغاية وبدائرتها من البيوت مطلين عليها عدد كثير معدة عندهم لعيد عندهم يقال له عيد الثيران وذلك أنه اذا انقضى صيامهم وفات عيدهم بأيام قلائل يتخيرون ثيران سمانا عظاما يشترونهم من القرى والمداشر التي في حوز مادريد ويأتون بهم وحين يقربون من مادريد يخرج أهل المدينة كلهم عشية لرؤيتهم ويجعلون معهم ثيرانا آخرين قد الفوا الدار المعدة لهذا العيد فيدخلونهم الدار المذكورة في بيت هنالك فيجتمع من النصارى في تلك الدار مالا عد له ولم يحضر الطاغية بمادريد فقد كان برانخوبس وبعث الينا احد خاصته فهيأ لنا موضعين بأعلى الدار المذكورة وكساهما بأنواع الحرير والزينة أحدهما لنا والآخر لاصحابنا وقال ان الطاغية بعثني لاتوجه بكم الى رؤية هذه الفرجة فتوجهنا معه فأدخلنا الموضع المذكور فأشرفنا على الدار فاذا بها خلق كثير والصبيان يلعبون بوسطها فلما ارادوا اللعب خرج أناس راكبون على خيولهم ومعهم نحو العشرة من الخيل فسألت عنهم فقيل انهم أهل شريعتهم ، فأخرجوا جميع من كان بوسط الدار وطلع كل الى موضعه ومن لم يكن له موضع خرج على الباب وأخرجوا كاغيدا مكتوبا قرأه نصراني جهرا ، فسألت عن ذلك فقيل انه يعلم الناس أن يلزموا اماكنهم ولا ينزل احد ومن نزل ووقع به شيء من أجل الثيران فلا يلومن الا نفسه وبعد ذلك يدخل فارسان بيد كل واحد رمح لقتال الثور فيقفان بازاء الباب التي يخرج منها الثور أحدهما عن يساره والاخر عن يمينه ويفتح صاحب الباب ، وفوق سطح الباب نصراني بيده عصا فيها حديدة فيطعن بها الثور من طاق في السقف فيخرج الثور وقد جن ، وحيث يرى كثرة الناس ويقوى عليه الصياح يكثر جنونه ولا يجد معه في البلاصة أي الموضع المتسع الا الفارسين المذكورين فيقصد أحدهما ويحمل عليه فيطعنه الفارس بالرمح بين

كتفيه فاما ان يمكن الثور قبل ان يصل اليه ويركض الفرس وينجو منه واما ان يخطئه فيلحقه الثور فيضرب الفرس فيبقر بطنه وياتي الفارس الآخر فيحمل عليه الثور كما فعل أول مرة ويدفع له الرمح فاما واما . فقد مات فى ذلك اليوم عدة من الخيل وأما الثور لم يقتله احد من الفرسان لان الذي بصدد قتله هو آخر ياتي من بعدهم يقاتله بالسيف وأما الخيل فانما يقاتلونه هنيئة حتى يظهرون شجاعتهم فاما واما ، وبعد لعب الخيل ياتي صبيان بيد كل واحد عيدان في طول ذراع في راس كل عود حديدة فيقصدون الثور أقبح مايكون ويقصدهم فيطعنونه بالعيدان فتنشب فيه ولا تخرج فيزيد جنونه فيضرب بوق باذن اهل شريعتهم المتقدمي الذكر اشارة يامرون بها صاحب السيف ليخرج لقتال الثور فيخرج بسيفه وبيده ثوب أحمر يمسكه بيده اليسرى والسيف في اليمنى فيحمل عليه الثور فيشغله بالثوب الاحمر فيحمل عليه مرة اخرى فيروغ له يمينا وشمالا ولم يطعنه بالسيف أول مرة يريد أن يظهر شجاعته وحين يريد قتله يقابله والسيف بيده وحين يدفع عليه الثور يتحامل عليه بالسيف بين كتفيه فبعضهم يخرج السيف من تحت ابطه ويسقط الثور وياتون بالبغال مزينات فيربطون الثور فيهم ويخرجونه عن البلاصة ويخرجون ثورا آخر الى ان يكمل عدد الثيران الذين عندهم والثور الذي لم يقاتل الفارس وولى الادبار من حينه أو لم يصدق القتال يخرجون له كلابا كبارا معدين عندهم لذلك فيرسلونهم عليه فيقبضون الثور بعضهم من أذنه وبعضهم من ناحية أخرى ويوقفونه ولا يطلقونه الا بمشقة عظيمة (I) ، وحينئذ يقتله صاحب السيف ، وقد رأيت بعض الثيران قتل عدة من الخيل واصحاب الشريعة واقفون من وراء خشب ينظرون فاذا رأوا فرسا بطيئا و جرحه الثور جرحا مضرا وبقي

I – لم تبق اليوم هذه العادة من ارسال الكلاب على الثيران فى هذا اللعب الاسباني الشهير وقد رجعت الى بعض علماء الاسبان فى هذه المسألة فأكد لي أن ذلك كان يقع كما وصفه ابن عثمان وقفت بعد هذا على صورة زيتية اسبانية تمثل لعب الثيران مع الكلاب وقد أثبتناها مقابل هذه الصفحة .



صورة تمثل حفلة مصارعة الثيران التي شهد مثلها محمد ابن عثمان
بمدريد ووصفها في الصفحة ١٠٨

صاحبه يقاتل عليه يقدمون اليه فيخرجونه ليمدل العرس ويرجع ، ويجمعون في ذلك اللعب من الامـوال شيئا كثيرا لان البيت الواحـد يكرى بعشرين ريالا أو مايقـرب منها ، وهـذه المرتبـة العليـا ومادون ذلك الى ريال وما يحصل من ذلك تخـرج منه المصاريف والباقي موقـوف على السبطار وهـو عندهم بمنزله المـارستـان (1)

وصيام النصارى المتقدمـة الاشارة اليه الذي يقـع بعده لعب الميران هـو صوم ستة وأربعـين يـوما آخـرها اليوم الذي يكـون فيه القمـر تما من شهـر نيسان من حساب اليهـود ، فيحسبون قبل ذلك ستة وأربعين يوما ويقدرونهـا حتى يكـون آخـرها اليوم الذي يكـون فيه القمـر تـمـا من الشهر المذكـور واليوم السابـع والاربعـون هـو عندهم عيد القيامـة ، ولا يكـون العيد عندهـم الا يـوم الاحـد ، فـاذا كان السابـع والاربعون ليس يـوم الاحـد بـل يوم الاثنـين مثلا ، ينقصون ستة أيـام من الستة والاربعين اول مـرة ليوافق العيد يـوم الاحـد وان كان بعـد تمام القمـر بستة ايـام كما في المثال وصومهـم المذكـور هو امساك عـن أكـل اللحم فقط ، لانهـم يشربون صباحـا كاسا من الشكلاط ، وبعـد نصف النهـار بساعـة ياكلون مـن الخبز والسمك والخضر ماقـدروا عليه وبالليل ياكلون أيضا في صومهـم المذكـور البياض وهـو عندهم اللبن والجبن والسمن والبيض لكـن بشرط أن يشتري كل فـرد من النصارى البولـة (2) وهو اذن البابا في أكـل البيـض

1 — اى المستشفى واصل الكلمـة فـارسي وهي بيمـارستان وقـد اختصره العرب لكـراهيتهم الكلمـات الطويلة ولكـن الكتـاب الاقدمين كانوا يستعملون الكلمتين ـ وقـد بقيت الكلمة مستعملة فى العاميـة للدلالـة على ملجـا المجانين بصيغة مرسطان

2 — بالاسبانيـة Bula وهـي كل أمـر صادر عن البابـ وكل رسالة موجهـة لعموم النصارى وامـا «البـولـة» الخاصة باعفائهـم من الصيـام على ما ذكـره ابن عثمـان فاسمها Bula de la Cruzada أي «بولـة الحرب الصليبية» لان الاصل فيها أن يعفى من الصيام الذيـن يحاربـون المسلمـين ولا زال الاسبان يتمتعـون بهـذا الترخيص نظرا لوجودهم بمليلية وسبتة حيث يعتبر هذا الوجود كحـرب صليبيـة

المذكور وكيفية ذلك أن تجعل أوراق لا تعد ولا تحصى فيها اذن البابا في أكل ماذكر وهي موضوعة عند من هو معين لذلك من قبل البابا فتجد النصارى كل واحد يدفع قدرا معلوما في ورقة يستبيح أكل ماذكر وتجد الفقير يتطلب ما يشتري به البولة ويجتمع من ذلك مال لاعد له موقوف على ان يصرفه الطاغية على المراكب البحرية فانظر الى ما هو عليه هذا البابا أخزاه الله من الحيل والدسائس وفي كل سنة يعطي اذنا جديدا في البولة المذكورة ولم يكتف باذن واحد وذلك منه حيلة على جمع المال المذكور وهو الذي يحل لهم ويحرم عليهم ويشرع لهم شرائع كفرياتهم على وفق ارادته ويحل لهم نكاح المحارم مثل بنت الاخت وهي حرام في دينهم لكن لايقدر أن يتوصل الى نكاح ابنة أخته الا من كان ذا مال وجاه ويعطي على ذلك أموالا كثيرة فحينئذ ياذن له في تزوجها لمسوغ يستنبطه ، وقد رأيت حاكم قالص تزوج بنت أخته ، فهم له أتبع من ظله ، واطوع من نعله .

والاصل في هذا البابا عند هؤلاء الكفرة الصليبيين أنه لما صعد المسيح عليه السلام الى السماء زعموا أنه قال لهم : هذا ـ لاحد الحواريين ـ هو خليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا فهم يرونه بمثابة المسيح قبحهم الله فلا يقدرون على مخالفة ما يامرهم به ولا يسعهم الا الانقياد والامتثال لان الخروج عن رأي البابا هو خروج عن الدين . وكيفية تولية هذا البابا أنه يجتمع عدد معلوم من الرهبان من أكابر ضلالهم يلقب كل منهم بالكردنال ومرتبة الكردنال لا مرتبة فوقها الا البابا فاذا مات البابا وكبكب في الجحيم وتجرع الحميم اجتمع الرهبان المذكورون الذين عليهم لقب الكردنال في موضع ويدخل كل بيته يزعم أنه يتعبد بحيث لايكلم أحد منهم الاخرين ويقيمون على ذلك أياما قيل نحو الاربعة أشهر فاذا انقضت المدة يفكر كل واحد منهم في نفسه أي رجل من الرهبان المذكورين يرتضيه أن يكون بابا لما يتخيل فيه من دينه وأمانته فيكتب اسمه في قرطاس ويجعله في صندوق مغلق لا يطلع

عليه أحد ، وكل واحد من الرهبان المذكورين يكتب في قرطاس من يغلب على ظنه أنه يليق لتلك المرتبة فاذا فرغوا من الكتابة اجتمعوا وجعلوا ديوانا وفتحوا الصندوق وقرؤوا البطاقات فأي اسم من الاسماء وجدوه اكثر تعددا من الاخرين اتفقوا عليه وولوه تلك المرتبة بعد ان ياخذوا عليه العهود والمواثيق ويشترطون عليه شروطا معلومة عندهم من الامانة والصدق ويشترط عليهم أيضا هو مايريد من الامتثال والطاعة والانقياد ويصير حينئذ هو البابا لكن بشرط ان يقبله طواغي الاجناس الصليبيين مثل الصبنيول والفراتصيص والبرطقيز وغيرهم ، وذلك انه يكون عند البابا عدة من الطواغي المذكورين لكل وسيطة يسمونهم النبشادريس وسائط بينهم وبين البابا فيما يعرض لاحدهما عند الآخر كما يفعله سائر ملوك العجم فاذا مات البابا فان خبره يصل جميع الطواغي وحينئذ يعلم كل طاغية نبشادوره بأنه لا يرتضي فلانا وفلانا وما عداهما هو موافق عليه ومرتضيه فحين يكمل الرهبان تعبدهم ويتفقون على أحدهم كما ذكر يعلمون النبشادوريس ليكملوا نائبين عن طواغيهم فان قبلوه فذاك ، وان لم يقبلوه أو أحدهم يعيد الرهبان النظر مرة أخرى وحيث يقع الاتفاق فلا يمكن لاحد مخالفته الطاغية فمن دونه ولو فعل ما فعل . وهذا البابا ، المذكور لا يكون الا من رومة من بلاد لطالية ولا يكون من الصبنيول ولا من الفرنصيص ولا من غيرهم من الاجناس الذين لهم شوكة وعصبية حسبما اتفق رأي هؤلاء الاجناس على ذلك حذرا من أن يميل الى أحد الاجناس المذكورين اذا كان منهم فاعجب لسخافة هؤلاء العقول يتهمونه من جهه ويقتدون به في أخرى

ولنرجع الى تمام الكلام على صومهم الفاسد فانه كما تقدم امساك عن أكل اللحم لاغير الا من كان مرضيا أو ذا جاه فيأخذ الاذن من البابا أو خليفته بعد أن يختلق له عذرا وعامتهم يأكلون السمك والخضر والبياض على الشرط المتقدم ويشرب من الخمر ماشاء ويستعمل طاباقوا

ويجامع ولو زانيا ، وهذه السنة التي كنا عندهم فيها أحل لهم البابا أكل اللحم في أربعة أيام في الاسبوع الاحد والاثنين والثلاثاء والخميس والاربعاء والجمعة والسبت لاياكلونه ، والسبب الذي أحل لهم ماذكر هو أن السمك الذي يباع في مادريد جله ياتي به اليهم اللنجليز وهذه السنة لما كانت الحرب بينهم قل عندهم السمك لان سمك بلادهم لايكفي عامتهم ، ومن أجل هذا أحل لهم البابا أكل اللحم في الايام المذكورة ، وانما خصص الايام المذكورة بالصوم لانها معهود صيامها قديما من غير هذا الصوم ، ولهم في أيام الصوم يوم زائد على يوم الاحد في استماع الكفر والضلال العائد عليهم بالثبور والوبال وهو يوم الجمعة ياتون الكنائس رجالا ونساء مشاة ويستمرون على صومهم الفاسد على الوصف المذكور الى أن تكمل ثمانية وثلاثون يوما وتدخل عندهم الاعياد التي جمعوا في هذا الصوم كما يزعمون وقوع ذلك للمسيح في اعتقادهم فاذا كان اليوم التاسع والثلاثون كان عندهم عيد الشعانين (I) وهو يوم دخول المسيح بيت المقدس كما هو في انجيلهم الذي يتداولونه وأن المسيح لما دخل بيت المقدس في اليوم المذكور خرج بنوا اسرائيل لملاقاته وقد فرشوا الطريق والسكك بالحرير وورق الشجر ، وفيه كانت بنوا اسرائيل يتحيلون عليه ليمسكوه ويقتلوه فلم يمكنهم امساكه فاعد النصارى ذلك اليوم عيدا يجتمعون فيه في الكنائس ويذكرون شأنه وما وقع له ويخرجون الصليب ويطوفونه في الازقة ، وفي ذلك اليوم تجد بيد كل واحد من النصارى جريدة من نخل أو عودا من الزيتون او ما شاكل ذلك من الاغصان اللينة ويردون الصليب الى موضعه ومن الغد يجتمعون أيضا في الكنائس ويذكرون

I – عيد يقع أسبوعا قبل عيد الفصح يوم الاحد واصل الكلمة من العبرية ويدعى فى اللغات الاوربية بما معناه «احد الاغصان» (Domingo de Ramos. بالاسبانية مثلا) وذلك تذكارا لما وصفه ابن عثمان من اقتبال اليهود لسيدنا عيسى بورق الاشجار فى أيديهم

ما وقـع للمسيح بعـد الشعانـين مـن التحـزب عليه والمشاورة في قتله فـاذا كـان اليوم الرابـع والاربعـون كـان عيد الفطر ويسمونه الفصح ، وفـي هـذا اليوم يجعل الطاغيـة طعامـا يعده للمساكين ويدعـوا اثنى عشر رجلا مـن الفقراء ويدخلهم بيته ويجلسهم في مراتبهـم ويقف الطـاغية أمـامهـم مثل الخادم يناول الفقـراء المذكـوريـن الطعـام بيـده مـن تقـديـم الاوانـي وتاخيرهـا حتى يناولهـم ما أعـد لهم من الطعـام ويسقيهم الخمر ما تتم بـه حسناتـه وتشتد عليه حسراتـه ، فـاذا فرغـوا من الطعـام والشراب غسل الطاغيـة بيده أقـدام هـؤلاء الفقـراء جميعـا ويجففهم بمنادل أعـدهـا ، وعند فـراغه يقبل كـل واحـد منهم ويعطيـه كسوة ودراهـم وينصرفـون ويحملون جميـع ما فضل عندهم من الطعـام بـآنيتـه فيبيعـون ذلك في سكك المدينـة بازدحـام كثير لاعتقادهـم البركـة في ذلك الطعـام وهـذا الغسل في زعمهـم على مافي انجيلهـم هـو قـربـة وسنة فعلها المسيح يـوم الفصح وذلك أنـه لمـا كـان يـوم الفصح وأحب المسيح أن يفطر مـن صومـه هيأ لـه طعـام العيد المذكـور بعض أصحابـه وأتى اليـه المسيـح وتـلامذته وهـم اثنى عشر فـأكل معهـم الفصح ولمـا فـرغ من الاكـل قـام وأخـذ منديلا شد بـه وسطه وجعل يغسل أقدام أصحابه ولما انتهى الى سمعان الصفا (I) قـال لـه لاتغسل قدمـي فقـال لـه المسيح ان الذي أصنعـه لست تعـرفـه الآن ولكنك ستعـرفه بعـد . فقـال لـه سمعان لست بغاسل لـي قـدمي الى الابـد ، فقـال له المسيح الحق أقـول لك ان لـم أغسل قدميك فليس لك معي نصيب، فحينئذ قال لـه سمعـان يا سيدي اغسل قدمـي ويدي وراسي ، فقال لـه المسيح اذا كنت أنا قـد غسلت أرجلكـم فأنتـم أحـرى أن يغسل بعضكـم اقـدام بعض وانمـا اعطيكـم هـذا مثلا فكمـا صنعت بكـم تصنعـون أيضا فهـذا هـو السبب الذي لاجله تغسل أرجـل هـؤلاء الفقـراء ، وقـد زعمـوا

I — أحـد الحواريـين ويدعى عنـد النصارى الاوربيـين القـديس سيمون وهو الذى بشر بالمسيحية فى مصر وبـلاد فارس ـ وعيده عند الكاثوليك يـوم 28 أكتـوبـر وعنـد الاورثـوذكس يـوم عـاشر مـايـه

أيضا أن المسيح لما كان ياكل الفصح مع تلامذته قال لهم ان أحدكم هو الذي يسلمني الليلة فجعل كل واحد منهم يتبرأ وكان من جملة التلامذة رجل يقال له يهوذى الاصخريوطى (I) زعموا أنه كان من التلامذة ووسوس له الشيطان واتفق مع اليهود المتألبين على المسيح وباعه لهم بثلاثين من الفضة وأسلمه لهم ليلة قبض عليه في البستان وهو يصلي ليلا فغره الطمع ظنا منه أن اليهود لايقدرون ان يصلوا اليه وأن يمنع منهم فلما قبضوا عليه ندم وذهب الى البرية وخنق نفسه خنقا واسفا على مافعل وحيث يطعم الفقراء يوم الفصح يجتمع سائر الرهبان والقسيسين ويخرجون جميع ماعندهم من الصور والتماثيل التي هم لها عاكفون ويطوفون بها في الازقة والسكك بعد أن يوقدوا من الشمع نهارا عددا كثيرا يقصدون الكنائس مظهرين حزنا وبكاء ويزعمون أنه كذلك فعل بالمصلوب فيمرون بصورة في بستان يصلي ثم يمرون بصورة أخرى ومعها من الحرس طائفة يزعمون أنهم كذلك تحزبوا على المسيح حين قبضوه ثم يمرون بصورة وأثر الجلد على كتفيه ثم يمرون بصورة وقد حمل صليبه على كتفيه ثم يمرون به مصلوبا ثم يمرون به بعد ذلك في نعش محمول بعد ما أنزل من الصلب وحوله من النصارى مالا يمكن عده فمنهم من يبكي ومنهم من يتأسف ومنهم من يستر وجهه ولا يقدر أن ينظر ذلك من شدة الفرق . ومن الغد أيضا يخرجون الصورة المصلوبة ثم يمرون بها وقد أنزلت من الصلب ثم يدخلونها الكنيسة ويخفونها كأنها مدفونة ويطفؤون المصابيح وهذه الايام التي يزعمون أنه وقع للمسيح فيها ما ذكر يسمونها أيام الالم

I – هو أحد الحواريين وهو الذى خان المسيح مقابل مال دفعه له أعداؤه وجعل بينه وبينهم علامة للقبض عليه ان المسيح هو الشخص الذى سيقبله لذلك يقال فى اللغات الغربية لمن يعمل عملا ظاهره المودة والخير وباطنه الشر والخيانة «قبلة يهوذا» ونسبته الى مدينة اصخريوط بفلسطين حيث ولد

ويسمونها بلسانهم البسترسيون (1) لاتضرب فيها أجراس ولا تركب أكداش وكل أعيانهم وكبرائهم يمشون على أرجلهم وكذا خاصتهم وعامتهم فاذا كان اليوم الثالث من الفصح عند منتصف النهار تفتح أبواب الكنائس وتضرب الاجراس ويطبعون أوراقا يرمونها تتطاير بينهم ويتلقونها ويتهادونها مظهرين من الفرح شيئا كثيرا استبشارا برفع المسيح لزعمهم دفن المسيح ورفعه من القبر . وهذا العيد يسمونه عيد القيامة (2) المعنى اليوم الذي قام فيه عيسى من القبر في اعتقادهم الفاسد وأقام معهم اربعين يوما وعرج الى السماء بعد أن وعدهم انه بعد عشرة أيام من صعوده ينزل عليهم روح القدس تامينا لهم وتقوية فيزعمون انه بعد العشرة أيام نزل من السماء نور غشيهم وحصل لهم بذلك نشاط وذهب عنهم ماكانوا يجدونه من الخوف والروع ويستعملون في ذلك اليوم عيدا يسمونه عيد الخميس (3) قبح الله سعيهم .

وقد كان يختلف الينا مدة مقامنا بمادريد الفرائلي ترجمان الطاغية وهو يحسن الكلام بالعربية على لغات المشارقة وقد جرى الكلام بيني وبينه ذات يوم في شان المسيح عليه السلام فقلت له ماتقول فيه فقال انه ابن الله فقلت ما مرادكم بالابن فقال قبحه الله ذات الله ثلاثة أقانيم الاب والابن وروح القدس فحل ابن الله في بطن مريم وتكونت ذات عيسى فهو من جهة الذات انسان ومن الحيثية الاخرى اله ، فقلت له الله تعالى لا يشتمل عليه مكان وهو تعالى بذاته ولا يحل بالذات الا الصفة وكيف تقول انه حل في بطن مريم ، فقال هو تعالى في كل مكان

---

1 — بالاسبانية Postración وهي من الكلمات العلمية القليلة الاستعمال عند العامة مما يدل أن معرفته بالشؤون الدينية وغيرها كانت عميقة .

2 — عيد القيامة هو l'Ascension ويقع أربعين يوما بعد يوم عيد الفصح .

3 — هو Pentecôte بالافرنسية أو Pentecostés بالاسبانية من لفظة يونانية ويحتفلون كما قال في هذا العيد بنزول الروح القدس على الحواريين .

بذاتـه فقلت هـذا لايصح لانـه لايمكـن ان تكـون ذات واحـدة في كـل مكان وانمـا الله تعالى في كـل مكان بعلمـه فقـال قبحـه الله ان لـم يكـن فـي أحـد الامـاكن بذاتـه لـزم ان يتحيز الى ماعـداهـا . فقلت : لانقـول كذلك وانمـا نقـول الله تعالى لا يعلم حيث هو الا هـو وهو معنـا في كـل مكـان بعلمـه فصمـم الكافـر على كفـره أهلكه الله فاعـدت معـه الكـلام فـي شأن عيسى فقلت عـن زعمك الفاسد انه الله فكيف يمكـن أن يقـدر عليـه اليهـود ويتسلطـوا عليه ويفعلوا بـه ماذكـرتم ولا يقـدر أن يمنع نفسـه فهـذا عجـز . فقـال ان ذلك بارادتـه فقلت وباى سبب ؟ فقـال : أراد أن يخلص الناس مـن الخطيئة التي أخطـأ أبـونا آدم لان بنـي آدام أخـذوا بذنب ابيهم فـأراد ان يخلصهم من الخطيئة وفداهم بنفسه بذلك الالـم على شرط أن يصبـوا المـاء على رؤسهم وهـو مـاء المعمـوديـة والاسـم التعميـد وهـو بلغـة الفـرس وكل من يولـد بعد ذلك يذهب بـه الى الكنيسة ويصب القسيس على رأسه مـاء العمـوديـة ويقـول حـين صبه عمـده بالاب والابن وروح القدس . فقلت لـه هـؤلاء اليهـود الذيـن تزعمـون أنهـم قبضـوا المسيح وقتلوه وصلبـوه ، وما قتلوه وما صلبوه ولكـن شبـه لهم ، وان الذين اختلفـوا فيه لفي شك منه مالهـم بـه مـن علم الا اتباع الظـن ومـا قتلـوه يقينا أخطئـوا أولا ؟ فقـال أخطئـوا ، فقلت لـه أنت تقـول ان المسيـح اراد ان يخلص الناس مـن خطيئة آدم . فقـال نعـم . فقلت كيف حـال هـؤلاء الذيـن تزعمون أنهم فعلوا بالمسيح ما ذكـرت خلصهـم مـن خطيئـة فعلهـا غـيرهم وأوقعهم فيما هـو أعظـم منها ، على أن آدم صلوات الله عليه تلقى من ربـه كلمـات فتاب عليـه وبنو آدم لـم يتعلـق بهـم شيء مـن ذلك ولا تزر وازرةوزر أخـرى ، والانبيـاء مغفـور لهـم وأنتـم تسلمـون ذلك وهم ولـد آدم فصمم على اعتقاده الذميـم وحـاد عـن الطريـق المستقيـم

وبمادريـد أيضا دار للطاغية يصنع بهـا الفخـار من الودع وهى دار كبيرة والمعلمـون أهل الصنعـة ساكنون بهـا بأولادهـم ومتأهلـون وقـد أخبرني القيـم عليها أن عـددهم زهـاء أربعمـائة رجالا ونساء وقـد كـان أخبرني

بالدار المذكورة بعض النصارى ممن كان يختلف الينا من خواص الطاغيه وبالغ في وصفها الا أنه قال انها ممنوعة لا يدخل اليها أحد كائنا من كان وانت اذا أردت ان تدخلها فاستاذن الطاغية فنقل علي ذلك فبلغ الخبر الطاغية فبعث الينا ذات يوم مع احد الاعيان . وقال ان الراي يسلم عليك وقد سمع بأنك أردت أن تدخل دار الودع وهو أعطى الاذن بدخولك اليها متى أردت وان كان لايدخلها أحد غيرك اعتناء بك وبمرسلك سيدنا أمير المومنين . ومن الغد بعث الينا الراي قصد بذلك تانيسنا ولما علمت أن الدخول الى هذه الدار هو عندهم أمر عظيم قلت له قد بلغني الخبر أنك أذنت بدخولنا دار الودع متى أردنا وفرحنا كثيرا فقال ما أريد الا تانيسكم وان تكونوا على أكمل الحالات مادمتم عندنا . وبعد ذلك توجهنا الى الدار المذكورة فتلقانا أهلها ببابها وقد توجه معنا من أعيان النصارى وكبارهم شيء كثير يريدون أن يدخلوا معنا لدار الودع لكونهم ممنوعين منها . فلما وصلنا الدار المذكورة سلم علينا قيمها وقال ان الطاغية أمره ان يدخلنا ويدخل كل من تعلق بنا وأردنا ان ندخله معنا فاذا هي دار كبيرة ، وقد أرانا القيم المذكور جميع ما عنده من صنائعه الغريبة والاواني العجيبة والصور على اختلاف أشكالها وألوانها وصنعوا أمامنا آنية كثيرة حتى شاهدنا كيفية صنع ذلك ، ولما أردنا الخروج من الدار المذكورة أهدى الينا معلمها الكبير وشيخ أهل التصدير محبقة (I) فيها تصاوير من النور ياسمين وورد وغير ذلك لا يشك فيه أنه نور ولا تدرك حقيقة ذلك الا باللمس وقال انه أهدى الينا ذلك بأمر عظيمه الطاغية وقال لنا هذه خصوصية لك عند الراي واعتناء بك والافما أحد أخذ قط شيئا من هذه الدار ولو ما يساوي قلامة كائنا من كان ولا يدخل هذه الدار الا الراي واولاده أو الوزير

I – المحبقة اناء من زجاج او خزف اوما شابههما يجعل فيه الازهار وهو مشتق من الحبق . والمحدثون يطلقون عليها اليوم زهرية .

وان دخل احد من ذكر غير الراي وأولاده فلا يمكن أن يخرج منها شيئا وهذه قربة جعلها لك الطاغية ما جعلها لاحد ففابلناهم بما يجب وشكرنا احسان الطاغية حين تلاقينا معه بعد ذلك لشدة اعتنائه بتلك الدار

وبمادريد أيضا دار يقال لها دار العدة فيها من آلات حرب الاقدمين شيء كثير من الدروع والبيضات ، والقسي والسيوف للمسلمين وغيرهم وكل حاجة مكتوب عليها اسم صاحبها في كاغيد ملصوق فيها ، وقد أراني القيم على الدار المذكورة مكحلة (1) يجعل فيها البارود والخفيف (2) ما يكفي ثمانية عشر عمارة

وبمادريد أيضا دار معدة لصنعة الحجر على أشكال غريبة ففي الدار المذكورة من معادن الحجر على اختلاف أنواعه شيء كثير فقد رأيتهم ينشرون الحجر أرق مايكون ويلصقون بعضه ببعض في ترصيع بديع وألوان غريبة في الحجر متناسبة حتى يصيرونه لوحا واحدا على قدر مايريدون من الطول والعرض ويلصقون أجزاءه المذكورة الصاقا محكما لاينفصل عنه بوجه من الوجوه وقد أروني من صنعتهم طبلات متعددات في غاية الحسن والتانق يخالها الناظر مرصعات بالجوهر لصفاء جوهرية الحجر وصقال جرمه ويستنبطون من الصور ما أرادوا الحيوانية وغيرها وذلك من احدى العجائب التي لا تدرك الا بالمعاينة .

---

1 – هي ما يسمى اليوم البندقية تشبيها لها بآلة كانوا يرمون بها البندق فى صيد الطيور . أما المكحلة فهى كلمة قديمة كانت تستعمل لقذف الاحجار ثم لقذف مواد محرقة وعندما اخترع الرصاص والمواد المتفجرة سمي السلاح الذى يقذفها مكحلة .

2 – الخفيف هو الرصاص تيامنا وابتعادا من اسمه الاصلى لانه يوحي بمعانى الثقل والضرر ونجد هذا التبديل عند المغاربة فى كلمات كثيرة فمنهم من يسمى صلاة العصر «الساهل» (أى السهل) لان لفظة العصر تشبه في النطق العسر . وكذلك يسمى الفحم «الفاخر» ابعادا للفظة التى توحى معنى السواد وهكذا



ساحة من ساحات مدريد في عهد [illegible]

وبمادريد أيضا دار معدة للرسائل يسمونها دار الرقاس يجتمع فيها من المكاتب مالا عد له فمن كتب براءة وأراد أن يبعثها الى بلد يكتب عنوانها لفلان الفلاني بالبلد الفلانية ويختمها ويدفعها بصندوق بالدار المذكورة وبالدار المذكورة أمناء قائمون بهذا الوظيف فاذا اجتمعت المكاتب ياتي الوكلاء ويميزون براوات كل بلد على حدتها ويشدونهم مميزين ويجمعوا الجميع ويدفعونهم الى السفراء الذين يسافرون بذلك ويتوجهون والبلد الذي يصل اليها ينزل بها مكاتبها بدار معدة لذلك الى ان يلتقي بسفير آخر جاء ببراوات أخر يدفع كل مكاتبه الى الآخر وكل واحد يرجع الى البلاد التي جاء منها وينزل بدار الرقاس الرسائل ويوم ورود الرقاس معلوم مرتين في الجمعة فياتي اصحاب الرسائل يتفقدون أجوبتهم فمن وجد كتابا له يعطي عليه مقدار موزونة (1) ونصف أو موزونتين بحساب تفاوت أجرام المكاتب وهذا في المكاتب التي تاتي من بلاد اصبانية مثل برصلونة أو قالص وكذا بلاد البرطغال وأما المكاتب التي ترد من البلاد البعيدة مثل الهند أو نابل أو رومة او ما أشبه

1 – موزونة بزاى مفخمة وهي اسم المفعول من وزن فى الاصل وقد كانت فى النظام النقدى المغربى القديم عبارة عن وحدة قياسية للدراهم وهى تساوى اربعة وعشرين فلسا – ولم تكن هناك قطعة رائجة بهذا القدر . وانما الموزونة وحدة للحساب فقط واصغر النقود التى كانت مستعملة هي الزلاغى وكان يساوى أربعة فلوس ثم اندثر وبقى الثمن فلوس (اى ثمانية فلوس) وزال كذلك من الروجان وبقيت القطعة المسماة سطاشر فلس (أى 16 فلسا وتنطق الراء فى هذه الكلمة لاما) وكانت رائجة الى أيام الحرب العظمى الاولى ثم زالت وبقيت الموزونة وثمنية (أى موزونة وثمانية فلوس أى 32 فلسا) . والدرهم يتركب من ثلاث من هذه القطع (أى فى الاعتبار من أربع موزونات) والمثقال يتركب من عشرة دراهم وكان المثقال أكبر وحدة للحساب قبل ادخال نظام الكرش (القرش) والبسيطة والريال – والقرش كان يساوى سبعة دراهم والبسيطة أربعة قروش والريال خمس بسيطات – وفى أيام الحماية سويت البسيطة المغربية بالفرنك الفرنسى

ذلك فذكر انها توزن ويعطي صاحبها مقدار زنتها ويجتمع من ذلك من الاموال مالا عد له فقد ذكر لنا أحد الاعيان الذين كانوا يختلفون الينا أنه في هذه السنة التي كنا عندهم وقع الحساب فيما تحصل للطاغية من مستفاد الرسائل بعد اسقاط اللوازم من لدن تولى الى تاريخه فكان جملة ذلك عشرة مائة مليون واثنى عشر مليونا في كل مليون عشر مائة الف ريال كبير (I) ولهذا السفير اسراع كبير فقد كانت ترد علينا الرسائل من قالص مسيرة مائة ساعة في خمسة أيام وان وردت مع أمر مهم للطاغية تاتي في ثلاثة أيام لانهم مستعدون لذلك بخيل البريد فلا يمر السفير بالمكاتب الا عدوا ومهما سار ساعتين او ثلاثا يجد الدار التي فيها الخيل المعدة لذلك فيجعل علامة قبل وصوله الى الدار يسمعه صاحبها فيسرج له الفرس ، وحين يصل ينزل على فرسه ويركب الاخر ويمر على الاول لان لهم اعتناء بالرسائل كبير ومدخول كثير وسائر امورهم جارية على القوانين في غاية الضبط حتى أن عسكرهم تجده مميزا فيه الكبير من الصغير ولكل درجة ومرتبة مخصوصة يستعملها اصحابها في ثيابهم المرتدين بها بحيث ترى الرجل من العسكر تعرف مرتبته ان كبيرا أو صغيرا ولكل مرتبة راتب معلوم فمهما علت المرتبة يعلوا معها الراتب . ولهم عادة اخرى فيمن يجب أن يدرك الكبير زيادة على ذلك ، وهو أن يكون من أعيان جنسه وأن يكون من جملة الاكابر الذين لهم بال ووجاهة فيطلب ذلك ولهذا الامر قوم معينون للبحث عمن يطلب ذلك فيبحثون عنه وعن أبيه وأمه وأسلافه وان كان من بلاد بعيدة يكتبون المكاتب الى قوم آخرين معينين لذلك بأن يبحثوا عن فلان الفلاني وعن أسلافه حتى يتحققوا أمره ويكونوا على بصيرة

I – أي ما يساوى من الدراهم المغربية عشرين مليارا وحيث انه كانت مرت على تملكه عندما كان ابن عثمان باسبانيا عشرون سنة فيكون دخل البريد في كل سنة من سكة اليوم مليارا من الدراهم .

فيه ويجدونه نصرانيا خالصا ابن نصراني الى سبعة وثمانية أجداد لاشك فيه ولا ريب فيكتبون له بذلك حينئذ ويعطيه الطاغية صليبا يعلقه في ثوبه المدثر على صدره ويوكل به الطاغية أحدا من الاكابر يغعب معه في هذا الامر فيلبسه ثوبا أبيض مثل السلهام (I) وله ذيل طويل من ورائه يجره ويتوجه معه جماعة من الاعيان الذين أدركوا هذه المرتبة ويجعل كل واحد عليه ثوبا أبيض مثل الثوب المذكور فيمرون معه الى الكنيسة حتى يعلم الناس أنه من الاكابر ويرجعون وينزع الثوب المذكور ويحفظه . ذكر أنه حين يموت صاحبه يجعله كفنا ويكون الكبير الذي وقف مع هذا الكبير الذي ادرك الكبيرة بمنزلة والده . ولهم أشياء متعددات ومعتقدات فاسدات أهلك الله جميعهم

ولما طال مقامنا بمادريد صرنا كلما تلاقينا مع الطاغية نعرض له بطول غيبتنا وارادنا التوجه الى سيدنا ومولانا أمير المومنين ولي أشغال كثيرة مثل تفريق الصدقة على أسارى المسلمين وغير ذلك ، فأحب أن أتوجه الى هذا الغرض لعلني اذا فرغت منه تكونوا أنتم قد أجمعتم أمركم فقال لي الطاغية حين أردت أن أتوجه الى رؤية الاسارى والصدقة عليهم فلا بأس بذلك لاننا ما أردنا الا استرلاحتك وتانيسك والان فأمر السفر الى الاسارى موكل اليك ، فقلت له غدا أتوجه ان شاء الله فأمر في الحين باحضاره الاكداش الكافية لاصحابنا وبعث الينا كدشا من أكداشه الخاصة به . وقال هذا الكدش هو لركوبك وأمر طائفة من العسكر بالتوجه معنا ومصاحبتنا الى ان نرجع .

I – السلهام عبارة عن لباس كالمعطف له قب وليست له أكمام وهو ما يسمى البرنس بالعربية وان كانت هذه الكلمة غير مستعملة فى المغرب وهي تطلق فى النصوص القديمة على ما فى القاموس على قلنسوة طويلة تجلل الرأس ويتدلى منها طرف على الاكتاف ثم استعيرت لما يسمى فى المغرب بالسلهام . وهذه اللفظة الاخيرة بربرية الاصل وهى اسلهام ويجمع على اسلهامن ومنهم من يسميه اخنيف اما السلهم في العربية فهو الضامر والطويل والناقه من المرض

وسافرنا من مادريد الى شقوبية (1) لرؤية رؤساء أسارى المسلمين لانهم عزلوهم في تلك البلاد لبعدها عن البحر لئلا يفرون وكان توجهنا الى شقوبية من مادريد يوم الاحد عاشر ربيع الثاني من سنة أربعة وتسعين ومائة الف (2) فكان مبيتنا بمدشر يقال له كلبكر (3) وصلناه على خمس ساعات من مادريد في طريق مستوية مستقيمة في بلاد صعبة وكدى متشعبة والطريق مارة في ذلك في غاية الاستواء تمر بها الاكداش والكراريط أسهل ما يكون ، ولما وصلنا المدشر المذكور تلقانا أهله وفرحوا بنا وكان مبيتنا في الدار المعدة لنزول المسافرين ووجدنا أهلها قد هيئوا لنا جميع ما نتوقف عليه لعلمهم بمبيتنا عندهم ، ومن الغد سافرنا من هنالك وحيث انفصلنا من المدشر المذكور ظهر لنا الاسكريال فقصدناه في طريق مستقيمة على الوصف المتقدم فوصلناه على ساعتين فتلقانا الفرائلية سكانه ، لان الطاغية أمرهم أن يحسنوا ملاقاتنا ويكرموا نزولنا وأن يدخلونا الكنيسة ويظهروا الينا جميع ما عندهم من الذخائر والخزائن وخزانة كتب المسلمين رحمهم الله ، ودار الطاغية وجميع بساتينه ومتصيداته ، ففرح بنا الرهبان امتثالا لامر عظيمهم وأنزلونا بموضع مشرف على بساتين الطاغية ، وفي عشية ذلك اليوم ورد علينا

---

1 - Segovia وهى مدينة كبيرة في شمالي مجريط بينهما نحو تسعين كيلو ميترا وهي مدينة عتيقة كانت مركز مقاومة الاحتلال الرومانى وقد تم فتحها وتخريبها على يد الرومان سنة 80 قبل المسيح ولما فتحها المسلمون صارت احدى عواصمهم وهم الذين أنشؤوا بها صناعة الثياب الصوفية المسماة اليوم «ملفا» وقد توسع ابن عثمان فى وصفها وذكر آثارها وصناعاتها فأفاد وأجاد .

2 - 10 ربيع الثانى سنة 1194 يوافق 15 ابريل سنة 1780 ولكن يوم الاحد كان فى الحقيقة 11 ربيع الثانى اذن فالتاريخ الشمسى هو 16 ابريل .

3 - بالاسبانية Galapagar (كلاباكار) وهى قرية تبعد خمسة وثلاثين كيلو ميترا عن مجريط وكان يسكنها فيليبي الثانى عند بنائه لدير الاسكوريال .

الفرائلية وتوجهوا معنا الى الاسكريال الكنيسة المتقدم ذكرها فاذا هي احدى عجائب الدنيا في ارتفاع جدراتها وضخامة بنيانها يقف الوصف دونها فلما وصلناها وجدنا في ربعها الغربي ثلاثة أبواب الباب الاوسط هو باب الكنيسة والذي عن يمين الداخل باب المطبخة والباب الايسر يدخل الى الموضع الذي يقرأ فيه الفرائلية وجميع بناءاتها بالحجارة الهائلة التي تشبه ألرخام وبجانبي باب الكنيسة سواري عظام غاية في الطول وفوق الباب صورة من الحجر بكسوتها من جنسها وبيد الصورة حديدة لها قضبان من الحديد على شكل المشوى الذي يشوى عليه اللحم زعموا أن تلك الصورة هي صورة لرينص الريال الراهب الذي بنيت الكنيسة المذكورة باسمه فسألت الفرائلي عن الحديدة التي في يده فقال ان قوما يقال لهم الرمانوس (1) جاهلية قبضوا الراهب المذكور وألزموه الدخول في دينهم فأبى فقبضوا عليه وشووه بالنار على تلك الحديدة وجعلوا يعذبونه بذلك لعله يدخل في دينهم فأبى حتى مات وذلك فيما يقرب من الخمس عشر مائة سنة (2) ودخلنا باب الكنيسة فوجدنا امام الباب بلاطا وأمام البلاط صحن كبير متسع وقابلنا في طرق الصحن الموالي للكنيسة ست صور من الحجارة كل صورة فوق سارية غاية في العلو وعلى كل صورة كسوة من جنس الحجارة زعموا أن تلك الصور ملوك ملكوا بني اسرائيل ، وعلى رأس كل صورة تاج من نحاس مموه فالاول الذي عن يسار مستقبلهم بيده شاقور من الحديد زعموا أنه كان يدعوا بني اسرائيل الى عبادة الله تعالى فيفرون من سماع كلامه الى الغاب فكان يقطعها ليلا يجدوا مفرا حرصا على

---

1 – يعنى الرومان وهو يكتب الاعلام التاريخية والجغرافية كما ينطقها الاسبانيون Romanos

2 – قد تقدم في التعليق 2 ص. 92 ان القديس لورانس قتل سنة 258 ميلادية وهو ما يقرب مما ذكر حيث انه كان يكتب سنة 1780 فبين هذين التاريخين خمسة عشر قرنا واثنتان وعشرون سنة

ايمانهم ، والذي بعده بيده صورة طست زعموا أنه مبخرة ، والثالث زعموا أنها صورة نبي الله داود على نبينا وعليه الصلاة والسلام وبيده آلة يسمونها الاربة (1) لها أوتار كثيرة زعموا أنه كان يقرأ بها الزبور ، والرابع صورة سليمان على نبينا وعليه الصلاة والسلام ولم يحضرني من أسماء الصور الست الاهذان الاسمان (2) . وحدثني الفرائلي كبير الكنيسة أن الصور الست مع صورة لرينص ألريال التي بباب الكنيسة كلها مصنوعة من حجر واحد ثم دخلنا الكنيسة فقابلتنا قبة كبيرة في أعلاها صورة المصلوب الذي يعبدون وتحته صور زعموا أنها صور الحواريين وكلها مموهة وهذه الكنيسة من أغرب ما يحكى في غرابة البنيان وبوسطها قبة غاية في العلو وسواريها المرفوعة عليها عرض ربع كل واحدة نحو الاثنى عشر دراعا في علو كثير ، وذكر الفرائلي أنه ليس موجود في بلاد النصارى كنيسة أعظم منها وكلها مفروشة بالرخام وأوقدوا بها من الشمع نهارا شيئا كثيرا ، وقد أرانا الفرائلي جميع ماعنده من الذخائر النفيسة والاحجار الثمينة والصور الذهبية والفضية ما يكون عليهم حسرة يوم القيامة ان شاء الله . فقد أرانا صورة امرأة من الفضة زنتها ثمانية عشر ربعا وبيدها شكل قبة من الذهب زنتها ثمانية عشر رطلا وبازائها صورة لرينص الريال الراهب المذكور وحذاءه عن يمينه معصم وعن يساره معصم بأكفيهما جعلوا كل واحد في زجاجة زعموا أن أحدهما يد أبيه والاخر يد أمه وقد أرانا أيضا بالكنيسة موضعا هبطنا اليها بما ينيف على الخمسين درجة تحت الارض فانتهينا الى قبة مثمنة الشكل في كل ثمن ستة صنادق من الرخام الاسود في أصل الجدرات بعضها فوق بعض من الارض الى أعلى القبة والصنادق منفصلة

---

1 – آلة موسيقية كبيرة تسمى بالاسبانية Arpa وبالفرنسية Harpe ويسميها المغاربة الجناح

2 – أما ملوك اسرائيل الاربعة الآخرون فهم يوسفات وازيكياس ويوسياس ومناساس .

بعضها عن بعض كل في موضعه ولكل صندوق غطاء من جنسه في غاية الاحكام ، وهذه القبة هي مقبرة ملوكهم من لدن فلب سكوند باني هذه الكنيسة فتجد كل صندوق مكتوب عليه بذوب الذهب اسم الطاغية الذي جعل به وكذا نساء ملوكهم وقد أروني الصندوق المعد لدفن كارلوس الطاغية الموجود اليوم . وحيطان مدارج هذه القبة مبنية بالرخام الاحمر والاسود غاية في صقالته وصفاء جوهريته كانه المرءات ، فطلعنا من هنالك الى الكنيسة وطلعنا بمدارج عديدة الى موضع كفرياتهم المسمى بالميسا (1) وهو منرف على الكنيسة وفيه من الذخائر أضعاف ما بأسفل الكنيسة وفيه آلة الموسيقى التي يستعملونها وقت صلاتهم ويسمونها أوركان (2) لها جعاب وقنانيط كثيرة من الرصاص وقد استعملوها لما دخلنا الكنيسة ونزلنا من هنالك وأدخلونا دار الطاغية من داخل الكنيسة فاذا هي دار كبيرة ذات قبب عديدة مشرفات على أجنة الطاغية وبساتينه، وقد رأيت باحدى قببها صفيحة من الحجر الاسود في عرض نصف شبر ممتدة من احدى طيقان القبة الى قعرها وجعلوا فيها ستة خطوط بين كل خطين ثلاثة أقدام وفتح بأعلى الطاق في الجدار ثقب صغيرة قدر أنملة الخنصر تدخل منه الشمس وقت الزوال ، ففي شهر يناير تكون الشمس عند الزوال في الرسم الاخير في الصفيحة في قعر القبة والشهر الذي بعده في الرسم بعده الى يونيه فتكون الشمس عند الزوال في الرسم القريب من الطاق وينعكس في الستة الاشهر الباقية ، ومثل ذلك في قبة أخرى . وأدخلونا خزانة كتبهم فأرونا بها من البسط المنضدة بالجوهر الثمين عددا كثيرا معدة لصلاة أعيادهم وأرونا

---

1 — الميسة هى صلاة الكاثوليك نفسها وهى من كلمة لاتينية اصلها من العبرية ومعناها القربان وتكتب بالاسبانية Misa .

2 — بالاسبانية Organo وبالفرنسية Orgue وهى مزامير من نحاس كبيرة جدا تكون فى مؤخر الكنيسة أى فوق باب الدخول وتقابل المذبح والعازف عليها يضرب فوق نوع بيان يتصل بتلك المزامير فتخرج أصواتا عالية قوية وقت صلاتهم

حجرا من حجر الماس زنته نحو رطلين او ثلاثة ، وأطلعونا مدارج أخرى من فوق خزانة كتبهم الى خزانة كبيرة في غاية النظافة والصون جعلوا بها كتب المسلمين رحمهم الله التي بقيت (I) بأيدي الكفرة ،

I – قصة هذه المخطوطات العربية الموجودة الى الآن في دير الاسكوريال باسبانيا قصة طريفة وقد كنت حكيتها في احد مقالاتى المنشورة بمجلة البينة ونظرا لفائدتها اورد هنا ما قلته عنها فى المقال المذكور وهو : ان خزانة الاسكوريال المليئة بالمخطوطات العربية الثمينة يظن الكثيرون انها من مخلفات العرب فى اسبانيا والحقيقة ان محاكم التفتيش الكاثوليكية كانت أحرقت كل الكتب العربية اينما وجدت ولم يبق بعد خروج المسلمين من الجزيرة كتب عربية تستحق الذكر. وفى ايام السعديين كان المنصور الذهبى مولعا باقتناء الكتب وجمع منها خزانة عظيمة وكان خافه ابنه زيدان على سننه فى الاهتمام بالكتب ، فنمى الخزانة التى كانت عند والده ولما قام عليه احد أقاربه واضطر للفرار كان أول ما فكر فيه خزانة كتبه فشحنها فى صناديق ووجهها الى آسفى لتشحن فى سفينة كانت هناك لاحد الفرنسيين امر ان ينقلها الى احد مراسى سوس حيث كانت عصبة زيوان وانصاره ، فلما وصلت السفينة انتظر رئيسها مدة ان يدفع له أجرة عمله . ولما طال عليه الامر هرب بمركبه وشحنته الثمينة ، فتعرض له فى عرض البحر قرصان اسبانى وطارده للاستيلاء على الصناديق ، ولاشك أنهم كانوا يظنون انها مملوءة بالذهب ، واستولوا بالفعل على المركب الفرنسى ، واخذوا الصناديق فلما فتحوها ولم يجدوا بها الا الكتب ، فكروا من حسن الحظ ان يقدموها هدية لملكهم ، وقد كان من الممكن أن يلقوها فى البحر لانها لافائدة فيها عندهم ، ولما وصلت هذه الكتب الملك فليبى الثانى وقد كان منهمكا فى بناء الدير العظيم للقديس لورينسو بالمحل المسمى الاسكوريال ، وقد كان نذر فى حرب مع فرنسا الجأته لهدم كنيسة تحمل اسم القديس المذكور أنه ان انتصر يبنى له كنيسة أفخم واعظم ، فلما وصلته تلك الكتب حبسها على الدير المذكور ، وهي التى لا تزال الى اليوم موجودة به ، ويقصدها العلماء من كل الاقطار للاستفادة من ذخائرها ، وأخذ منذ ذلك العهد ملوك الدولة العلوية التى خلفت السعديين على عرش المغرب يطالبون فى كل مناسبة بهذه الكتب

وهي عندهم في غاية الحفظ لايمكن لاحد أن يدخل الى تلك الخزانه كائنا من كان ، ومكتوب على باب الخزانة بخط أعجمي ماينصه أمر المدينة أن لايخرج أحد من هذه الخزانة شيئا ، ومن اعتناء الطاغية بنا فتحوا لنا الخزانة بأمره ، فأرونا كتب المسلمين ، وعدتهم الف وثمانمائة سفر فيها نسختنان من المصحف الكريم وعدة تفاسير جلهم حواشي وكثير من كتب الطب ، وقد طالعت ماسمح به الوقت مع ضيقه ، فخرجت عن الخزانه بعد أن أوقدت نار الاحزان بفؤادي نارها . ونادت يالثارات فلم يأخذ أحد ثارها ، ياليتني لم أرها ، والحاصل أن هذا الاسكوريال من احدى عجائب الدنيا ففيه من البيوت نحو الستة آلالف بيت حسبما أخبرني بذلك الراهب الكبير فاذا ورد الطاغية على الاسكريال في وقته المعلوم كما تقدم ومعه جميع أهل ديوانه وخدمه يسكنون بالاسكريال المذكور ويسعهم جميعا وحين يسافر الطاغية يبقى الجميع بيد الغرائلية، ففيه اليوم من هؤلاء الرهبان الضلال مائة وخمسون من غير المتعلمين الذين يتعلمون الكفر لان الاسكريال المذكور مقصود لقراءتهم وعندهم موضع آخر بقرب مادريد يقال له صلمانكة مقصود أيضا لقراءتهم حتى أنه من لم يقرأ بالموضعين المذكورين لايكون عندهم بمنزلة من قرأ هنالك .

ويحيط بالكنيسة المذكورة غرسة فيها أنواع النور على اختلاف أنواعه وأشكاله في زي عجيب ، وترتيب غريب ، ويحيط بالجميع بساتين الطاغية ومتصيداته المحمية التي لايصطاد بها غيره وقد أدار بها سورا من الحجر دائرته ثمان ساعات داخله من أنواع الوحوش مالا عد له . وبالكنيسة المذكورة جميع مايتوقف عليه سكانها من رحى وفرن ، وجميع الصنائع والحرف ، وفي أعلى هذه الكنيسة تسعة منارات فيها نواقس متعددات تستعمل الموسيقى بنقرهم مثل المكانات واحدى المنارات المذكورات في غاية العلو ، زعموا أنها أعلى من منار اشبيلية بنحو العشرة اقدام . ومن غريب هذه الكنيسة بما احتوت عليه من دار الطاغية والخزائن

والمساكن العديدة ومواضع سكنى أكابر الديوان كله بالحجارة المنحوتة التي تشبه الرخام في غاية العظم وسقفها كذلك بالحجارة وليس فيها من الخشب الا البنيان فقط وقد وضعت هذه الكنيسة في سفح الجبل الفاصل بين قشتالة القديمة وقشتالة الجديدة . وقد ذكروا ان بانيها فلب سكوند لما أراد بناءها جعل قنطرة من الخشب في اعلى الجبل الى موضع الكنيسة فكانوا يقطعون الحجارة العظيمة فتسحبها القراريط المذكورة على القنطرة الى الكنيسة من غير تعب . ولا بقاء اليوم لهذه القنطرة ولا أثر لها لكونها كانت من خشب ، وقد مكث الطاغية المذكور في بنائها خمسا وعشرين سنة . وفوق سطوح الكنيسة بما احتوت عليه صفائح كبار من الخفيف ذكروا أن الريح يقلعه ويرمي به لان بهذه البقعة من الريح مالا يكيف وقد أدخلوانا دارا في وسط بستان لولد الطاغية الكبير في غاية اللطافة مشرفة على البستان المذكور ينزلها حين ياتي مع والده للاسكريال وفيها صهريج صغير فيه سمك بالابيض والاحمر والاصفر ملون بألوان كثيرة وهو من الغريب .

وقد أقمنا بهذه البلدة يوما لرؤية ماذكر ومن الغد سافرنا لمدينة شقوبية في طريق ابتدعها والد هذا الطاغية وخدم فيها بعده الطاغية فرناند ولده وكملها هذا الطاغية وهي مفتتحة في أمنع مايكون في الجبل وشق الطريق فيه حتى صارت تمر بها الاكداش والكراريط أسهل ما يكون .

ولما وصلنا قنة الجبل وانحدرنا منه ظهرت لنا مدينة لرانخة يمنة ومدينة شقوبية شئامة بينهما نحو ساعتين فقصدنا مدينة شقوبية فوصلناها على ثمان ساعات من الاسكريال فاذا هي مدينة قديمة أثر القدم لائح عليها وجل جدراتها متلاشية ولا سور لها كسائر مدن اصبانية وأهلها أهل تقشف والغالب عليهم أنهم أهل حرف ونساؤهم يستعملن الغزل كثيرا ولا رفاهية لهم كغيرهم من ضامات الحواضر مثل مادريد واشبيلية وغيرها ، وقد أسست المدينة بعضها على ربوة مطلة

على وادي يقال له الوي لرزمة (1) وليس في حوز هذه المدينة أجنات ولا بساتين ذكر أهلها أنه لا ينتج بها شجر ولا ثمر من شدة القر والجليد فتلقانا حاكم البلد المذكور مع ماقل من أعيان بلده وأدخلونا دارا أعدوها لنزولنا واعتذروا عن التقصير وأتى كبير العسكر بما ينيف على الخمسين من عسكره أوقفها بباب الدار عن أمر عظيمه . فبتنا تلك الليلة هنالك ومن الغد ورد علينا حاكم القصبة المسماة بالقصر (2) الذي به أسرى المسلمين الرؤساء وجعلوهم في ذلك المكان ليبعدوهم عن البحر حذرا من أن يفروا فجعلوهم في القصبة المذكورة لكونها في غاية الحصانة في علو الاسوار والحفير دائر بها ، فسلم علينا الحاكم المذكور وقلت له أردت أن أنظر الاسارى فعينا الوقت لذلك وتوجهنا اليهم فلما وصلنا القصبة المذكورة وجدنا ببابها كبيرها ومعه جميع أصحابه وكلهم صبيان مجموعون عنده بقصد تعليم علم رماية المدافع والمهارس كما هو مرسوم عندهم في دفاترهم ويتعلمون الهندسة والحساب وهم ساكنون بالقصبة المذكورة فقد أرانا كبيرهم موضع تعلمهم وموضع نومهم لكل فراش على حدته وأدخلونا أيضا الاسبطار المعد لمرضاهم وفيه خزانة كبيرة فيها جميع الادوية والمعاجن وطبيبها ساكن معهم وموضع آخر لا كلهم

---

1 - هذا النهر يسمى بالاسبانية Eresma وهو يجرى فى أسفل الجبل المبنية عليه مدينة شقوبية من جهة الشمال كما يجرى من جهة الجنوب نهر ثان يسمى Clamores (كلاموريس) ويلتقيان في ناحية الغرب اسفل القلعة المسماة الى اليوم القصر Alcázar

2 - هذه القلعة التاريخية كان أول من بدأ تأسيسها الخليفة الاموى عبد الرحمن الثالث وفى القرن الحادى عشر المسيحى التجأ الملك الفونسو السادس الى ملك طليطلة عندما غلبه اخوه على الملك فانتهز فرصة وجوده بتلك المدينة المحصنة ودرس كيفية بناء قلعتها فلما استرجع مملكته اتم بشقوبية ما كان بدأه الخليفة عبد الرحمن الثالث واقتبس مما رآه فى طليطلة فجعل هذا القصر حصنا منيعا وزاد فيه من جاء بعده . وهو اليوم مركز الوثائق الحربية الاسبانية

حتى أنهم لا يتوقفون على شيء خارج عن القصبة وكبيرهم ساكن بالقصبة المذكورة بأولاده متاهل بها . وأسارى المسلمين الذين يكونون بها على يده والى نظره فأطلعنا الى موضع الاسارى لكونه بأعلى القصبة ففتح عليهم وأخرجهم وسلموا علينا وسلمنا عليهم وأعلنوا بالدعاء لسيدنا ومولانا أمير المومنين حتى ارتجت القصبة ودخلنا معهم الى موضعهم وجلسنا معهم كثيرا تطييبا لخواطرهم ودفعنا لكل واحد منهم حظه من الصدقة التي بعث سيدنا ومولانا أمير المومنين لسائر أسارى المسلمين فنابهم خمسة مثاقيل (1) للواحد قبل الله تعالى من سيدنا المنصور بالله عمله وبلغه من فضله قصده وأمله وبشرناهم بأن سيدنا ومولانا أمير المومنين مجتهد في انقاذهم وحريص على فدائهم وأننا تكلمنا مع الطاغية في هذا الامر فجعل أمر ذلك بيد سيدنا ومولانا أمير المومنين ، وسيدنا نصره الله يتكلم بعد هذا مع صاحب الجزائر ، وعن قريب ان شاء الله تاتيكم البشائر فسروا بذلك كثيرا وأوصيناهم بالصبر والصلاة والاقبال على الطاعات ، وقد أحسن معهم هذا الطاغية فلم يكلفهم بعمل ولا خدمة وهم على الكفاية من جهة المأكل والملبس الا أنهم مشدد عليهم في عدم الخروج وأوصينا عليهم النصراني الكبير المتولي أمرهم وأمر القصبة أن يستوصي بهم خيرا واحسانا الى أن يجعل الله لهم سبيلا وعن قريب ياتي الامر بسراحهم ان شاء الله وأخذنا عليه مواثق بذلك وانصرفنا عنهم بعد أن ودعناهم وءاماق الاعين في مجاري أدمعها غرقا ، والزفرات من الجو تتناسق نسقا

وقد أدخلونا كنيسة هي أعظم كنائسهم في ضخامة البناء وعلو السمك بناؤها شبيه بمسجد طليطلة وبانيها هو كارلوس كنط لنبرطور ولعله لما أعجبه بناء مسجد طليطلة بنى على شكله هذه الكنيسة وقد أرانا الرهبان أهل هذه الكنيسة جميع ما عندهم من الذخائر والصور والتماثيل الذهبية

---

1 – اى ما يعادل بسكتنا اليوم ستة وثلاثين درهما

والفضيــة والاحجــار الثمينــة التــي هــي أوقــاف الكنيســة أهلكهــم الله وطهــر منهم البلاد .

وقــد أرونــا بشقوبيــة الدار التي يصنــع بها الكاغيد وذلك أنهم عمدوا الى وادي شقوبية المتقدم الذكــر وأخذوا منه ساقية كبــيرة ابتنوا عليهــا الدار المــذكورة والالآت التي يخدم بها الكاغيد كلها بحركــة المــاء وكيفية ذلك أنهم يجمعــون من خــرق الكتان المتلاشي شيئا كثــيرا يجلب اليهــم مــن سائــر البلدان وقــد أرونا من ذلك مخــازن كثــيرة مملــوءة منــه ويخــرجــون منــه شيئا فشيئــا الى نساء عجــائز يميزون منــه الجيــد والوسط والرديء وعندهم صهريــج من خشب كبــير تصب فيه أنانيب المــاء يرسلونهــا وقت الاحتيــاج اليها ويمسكونها بعــد فيجعلــون في الصهريــج المــذكور الخــرق مــن جنس واحد بعد تمييزه ويطلقون عليه المــاء حتى يمتليء الصهريج ويغسلون الخــرق المذكــورة من الاوســاخ حتى ينظفونهــا كما ينبغي ، ويخرجونهــا من الصهريج ويجعلونهــا في موضــع آخــر متراكــم بعضها فــوق بعض ويتركونهــا أيــامــا الى أن تتلاشى وتنتن رائحتها وتعفــن ويقطعونهــا بعــد ذلك اربــا اربــا . ولهم مــوضع فيــه جفــن مستطيــل في طــوله نحــو الثلاثــين شبرا وعــرض نحــو الخمسة أشبــار وقــد نصبوا عليه قــوائــم الخشب في رؤوسهــا حــدائــد مثل المــدى لهــا حــركات بالمــاء تضرب في الجفــن المذكــور فيجعلون الخــرق الممزقة فيها وترســل حــركــات المــاء على قطــع الخشب وتضرب في الجفــن على الخــرق الى أن تصــير مثل العجــين وينقلونها الى موضع آخــر فيعيــدونهــا بالخــدمــة الى ان تصير خــدمــة ذلك الغــايــة المعتــادة وعندهم صهــريــج آخــر يملــؤونــه مــاء ويجعلون فيه الكتــان المخــدوم ويحركونــه بــأعمــدة وياتي المعلــم بالقالب من السلك الــرقيــق فيغمسه في المــاء فيرفعــه وقــد علق بــه شيء من ذلك المــاء الابيض فيقبضه من عنده معلــم آخــر ويضع القالب على حصيرة صغــيرة من الحلفــاء على قــدر قــالب الكاغيد فيضــع القــالب عليهــا وقــد علــق بهــا ماكان بــه وهي ورقــة ويجعــل فوقهــا حصــيرة مثلها

ويجعل عليها قالبا آخر وهكذا حتى يجعل رزمة (1) مثل نصف قامة ويجعلونها تحت تخت (2) ويديرونه عليها حتى يخرج جميع ما علق بها من الماء وياتي معلم آخر ويخرج الرزمة من التخت وينزع الحصيرة العليا ويزيل الورقة التي تحتها ويجعلها على لوح ويستمر على عمله الى أن يزيل جميع ما بتلك الرزمة من الاوراق ويجعل بعضها فوق بعض وبها بقية بلل فيضعها في خزين معد عنده لذلك ، وقد ادخلني اليه فوجدته مملوا من ذلك ، وقد أدخلني موضعا آخر فوجدته مملوا من أطراف صغار من جلد البقر وأصفاق ورقائق الجلد فيطبخون من ذلك شيئا فشيئا وماؤه هو بمنزلة النشا فحين يطبخ يخرجون الماء من الطنجير ويصبونه في جابية من الحجر وياتون بالرزمة من الكاغيد وقد يبست وتلاصقت أوراقها فيجعلونها في ماء الجلد المذكور الى ان يتخللها البلل ويجعل كذلك رزمات متعددات ويجعلها تحت تخت ويديره عليها الى أن يخرج جميع ماعلق بها من الماء ويخرجها من تحت التخت ويزيل الاوراق واحدة بعد واحدة بعد أن ينفخ على كل منها وينشرهم على أحبال حتى ييبسوا وما ذكرت هذه الكيفية الا لانه في القلب شيء من أجل النشا المستعمل من جلود البقر وذكاة النصارى لا يستلزمون فيها شروط الذكاة المعتبرة شرعا

---

1 – الرزمة بالكسر عربية فصيحة ومعناها ما شد في ثوب واحد ويقال رزم الثياب ترزيما شدها والكل يستعمل بهذا المعنى فى عامية المغرب ، ثم هي تطلق مجازا على كل الكتل التى تجمع كما هنا

2 – التخت هنا استعمال خاص بمعنى آلة تعصر بواسطتها ثياب أو ورق أو نحوهما وقد استدرك هذا المعنى دوزى فى قاموسه ج 1 ص.142. وفى الفصحى التخت لفظة معربة معناها وعاء لحفظ الثياب . ولهذه اللفظة اليوم معنيان آخران وهما المكان المرتفع للجلوس وجوقة الموسيقى ، أما فى العامية المغربية فهو ما يتبقى ويرسب فى قعر الانية التى بها مادة سائلة كالزيت ونحوها وهو الدردى

وقد أرونا بشقوبية دار سكة الفلوس النحاسية وهي في غاية الاتقان مثل دار السكة التي باشبيلية المتقدم ذكرها الا ان حركات هذه كلها بالماء الا الطبع بالآلة المسمى بالدولب فحركاته باليد .

وبشقوبية أيضا الدار التي يصنع بها الملف (1) على اختلاف أنواعه وألوانه وقد أرانا معلمها جميع مرماته ومواضع الغزل ومواضع الصبغ وغير ذلك وقد أخبرني المعلم الكبير الذي على يده صنعة الملف أن الصوف التي يصنع منها الملف تجعل في الزيت بحساب ربع رطل من الزيت لكل رطل من الصوف وأنهم عند الفراغ من الخدمة يجعلونه في البول لانه لايزيل رائحة الزيت ودسمه من الثوب الا البول ولا يزيلها صابون ولا غيره ويغسلونه بعد ذلك وحين ينسجون الملف المذكور ينسجونه في عرض نحو الاربعة عشر شبرا ويجعلونه بعد ذلك في موضع يسمى البطان (2) له حركات بالماء فيجعلون فيه الملف المذكور وحين يخرجونه منه ينقص العرض نحو النصف أو ما يزيد عليه .

ومن غريب ما رأينا بشقوبية القنطرة (3) المارة بوسطها التي ادخل عليها

---

1 - الملف ثوب ناعم من صوف كان أساس لباس المغاربة يتخذون منه القفاطين والسراويل والجلاليب والسلاهم ونحوها للرجال والنساء وكان فى القديم يصنع بالمغرب والاندلس ثم صار يجلب من أوربا . ويظهر ان اصل الكلمة من أمالفي Amalfi وهي مدينة ايطالية .

2 - البطان كلمة اسبانية وهي Batan من فعل Batir أى ضرب ويطلق على آلة لصنع الملف وذلك بضرب ليق الصوف بعضها ببعض حتى تلتصق وتكون كتلة واحدة وهذه الكلمة لازالت مستعملة الى الان بفاس وتطلق على مصنع القلانس المسماة الشواشي جمع شاشية وهي التى تلبسها طائفة من الفراشين ممن يطلق عليهم اسم المخازنية .

3 - هذه القنطرة لازالت قائمة الى الآن وهى من صنع الرومان وتنسب للامبراطور طراجان الذى حكم من سنة 98 بعد المسيح الى سنة 117 وأصله من اسبانيا وقد خلد آثارا جليلة فى كل الامبراطورية الرومانية ـ وما ذكر من العلو يساوى 33 ميترا لان القدم نحو ثلث الميتر والواقع ان اقصى علو هذه القنطرة اليوم هو 28 ميترا ونصف والخطب سهل

الماء الى المدينة لان طرفا من المدينة المذكورة في شعبة وطرفا على ربوة مطلة على الوادي لا يعرف من بناها والظاهر أنها مبنية قبل الرمانوس الذين كانوا في تلك البلاد قبل الاصبنيول لان بنيان الرمانوس يعرفه النصارى وقالوا ليس هذا بنيانهم فاتفقوا على أن البناء المذكور أقدم من ذلك وعدد أقواس هذه القنطرة مائة وواحد وستون قوسا مبنية بالحجارة فقط من غير جير ولا تراب حتى أنه يمكن عد أحجار القنطرة على كبرها . وغلظ كل سارية من سواريها أحد عشر قدما في داخل القوس وثمانية أقدام في ظاهرها ومن غريب اتقانها واحكام صنعتها لم يقع بها شيء لم تزل كما هي من عهد بانيها مع تقادم الازمان والماء مار بأعلاها الى الآن على علو القوس الاول منها المبتدا به سبعة عشر شبرا واستمرت زائدة في العلو كل قوس أعلى من القوس الذي قبله بسبب الانحدار الى الشعبة فيلزم أن يزاد في علو الاقواس ليصل الماء بعد قطع الشعبة الى طرف البلد الآخر الذي بأعلى الربوة الى أن وصل علو الاقواس خمسة وستين شبرا ومن هنالك ازداد عمق الشعبة فاحتيج الى علو الاقواس أكثر من ذلك فجعلوا قوسين قوسا فوق قوس علو كل قوس من القوسين الاولين تسعة وثلاثون قدما واستمرت القنطرة من هنالك على هذه الكيفية قوسا فوق قوس متفاوتة في العلو الى أن انتهت القنطرة بانتهائها لطرف البلد فكان غاية العلو عند انتهائها قدمين ومائة ، فالماء منحدر الى المدينة من القنطرة المذكورة مع شرفات السور يفترق في المدينة كلها من شرقيها الى غربيها وأما الوادي المار بأسفل المدينة فلا ينتفع به الا في ديار الصنائع التي جعلوا عليه مثل دار الكاغيد ودار السكة ودار الملف وأما أهل المدينة فلا يشربون منه ، وقد بحثنا في المدينة المذكورة عن شيء من آثار المسلمين رحمهم الله فلم نجد بها شيئا . وأقمنا بالمدينة المذكورة يومين وسافرنا منها الى مدينة لرانخة متنزه الطاغية

دخـولنـا مـدينـة لـرانخـة أعـادهـا الله دار اسـلام (I)

فوصلناهـا على ساعتين من شقوبيـة في شرقيها ، فتلقانا حـاكمها وجميع أعيـان بلده وتوجهـوا معنا الى الدار المعـدة لنزولنا وقـالـوا جميعـا ان الطـاغيـة أمـرهم أن يدخلونـا الى داره وجميـع بساتينـه وأجناتـه وقـد كـان ذلك عشية فشيعتهم وقلت لهـم غـدا ان شاء الله نتوجـه الى الجميـع ، وهـذه المدينة مـع بساتينهـا قـد أسسها فلب كنط والد هـذا الطاغيـة كما تقدمت الاشارة اليه وهي في سفـح جبل مشرف عليها تنحـدر الاودية مـن أعلى قنته الى أسفله . فجلب الطـاغية منها الى الاجنة والبساتين وداره ما أراد والباقي مـار بالوادي المـار بظـاهر لرانخـة . وبتنا هنالك ومن الغـد قـدم علينا الحـاكـم وأعيان قـومـه وتوجهنا الى رؤيـة دار الطـاغيـة التي ينزلها حـين قـدومـه ، فـأدخلونا جميع قببها وأرونا جميـع مابهـا من التصاويـر والذخـائـر ، وهي مطلـة على بساتين الطـاغية وأجناتـة لهـا مـرأى غريب ومنظر عجيب فلما طفنا بالدار جميعا خرجنـا الى رؤيـة البساتين فتلقـانـا وكـلاؤهـا والقائمـون بأمورهـا فـأرونـا جميع ذلك ، وهـذه الاجنـة على أشكال وأنواع منهـا مـاهـو مغروس بالشجـر الـذي يثمر الفـواكـه مـن تفاح واجـاص وليـم وغير ذلك وقـد سألتهم كيف تنتج عندهم هـذه الثمـار وشقوبيـة لايصلح بهـاشيء مـن شـدة القـر والبلاد واحـدة ، فقالوا ان هـذه الاجنـة لا يستعملهـا أحـد غـير الطـاغيـة لان هـذه البـلاد مـع بلاد

I – يعنـي La Granja (ومعناهـا العزبـة) اسم قرية بنى فيها الملك فيليبي الخامس قصرا أراد أن يكون شبيها لقصر فرساي بفرانسا حيث قضى شبابـه . وهي تبعـد عن مجـريط 77 كيلـو ميتـرا وعـن شقـوبيـة II كيلو ميتـرا

شقوبية سواء في شدة القر فلا يصلح بها شيء من ذلك ، وهذه البساتين هي للطاغية فيصرف عليها مالا كثيرا ولا يبالي أصلحت غلتها أم فسدت. وهناك بساتين ملتفة من شجر لاثمر له وانما المقصود منه الظل ولتالفه الوحوش ، وقد شاهدت بها شيئا كثيرا من ذلك. وفي عشية ذلك اليوم ورد أيضا الحاكم وتوجهنا الى أحد البساتين ففيه نحو من أربعة وعشرين صهريجا في كل صهريج صور كثيرة من الحيوانات البرية والبحرية والادميين على اختلاف أشكالهم وأنواعهم وألوانهم وفوق الجميع في أعلى البستان مما يلي الجبل صهريج عظيم يسمونه البحر (1) وهو الذى جلب اليه الطاغية شيئا من الماء المنحدر من الجبل ومن ذلك الصهريج يتفرق الماء على سائر الصهاريج والسقايات (2) التى بالبستان المذكور في قواديس (3) الخفيف وبازاء كل صهريج وبركة حركة يحركونها فيخرج الماء اليه ويحركونها فينقطع فأمر الحاكم الوكلاء القائمين بأمر البستان فأرسلوا الماء الى الصهاريج فجعلت الصور التي في كل صهريج تفور بالماء على كثرتها من أفواهها وآذانها وأنوفها وأقبالها وجميع منافذها وصور كل صهريج ترمي بالماء على شكل مخصوص ، فمنها ماينتشأ منه شكل سلة كبيرة ومنها ما يتنشأ أشكال أقواس مرتفعة في الجو ومنها ما يخرج الماء منها على شكل الحرب طائفة ترمي بالماء على طائفة لتغلب احدى الطائفتين الاخرى ، ومنها ما ترمي بالماء

---

1 – بالاسبانية El Mar وهو بحيرة اصطناعية على علو 1249 ميتر وهي التى تمد الصهاريج العظيمة التى تزين حدائق لاكرانخا وهي تعتبر أجمل حتى من حدائق فرساى.

2 – السقاية فى الاصطلاح المغربى هى صهريج يتخذ عادة فى الحائط ويزان بانواع الفسيفساء المسماة « زليج » وتكون له أنابيب يتدفق منها الماء.

3 – القواديس جمع قادوس وهو القناة لنقل الماء تحت الارض من مكان لاخر وله معان اخرى وهو من الدخيل واصل الكلمة من اليونانية

منظر لبساتين ارنجويس Aranjuez التي تكلم عنها ابن عثمان [illegible]

في الجو عمودا واحدا غاية في العلو مقدار مائة وأربعين قدما الى مائة وسبعين قدما كما أخبرني بذلك قيم البستان ، وقد شاهدته ولا غرابة فيه ولا زالت هذه البساتين والصهاريج والماء المجلوب اليها ترمي به صور الحيوانات على ما هي عليه من لدن عهد فلب كنط والد هذا الطاغية الى الآن في غاية الصون لم يفسد فيها شيء ، وهذا الماء الذي بهذه البساتين على هذه الاشكال ليس في المعمور مثله كما أخبرني بذلك من كثر جولانه في بلاد المسلمين والنصارى .

وفي هذه المدينة أيضا الدار التي تصنع البلور وانما جلب اليها معلمي هذه الصنعة الطاغية الموجود اليوم وكل ما يصنع بها هو للطاغية وله دار معدة لبيع ذلك بثمن معلوم مقدر لكل اناء ، وقد ذكر لي معلم هذه الدار الكبير أن الطاغية لانفع له في ذلك وأنه يخسر في ذلك في كل سنة نحو الخمسة عشر الف ريال كبير (1) فشاوروه على ابطال ذلك فأبى وأمرهم أن يتمادوا على خدمتهم والخسارة عليه حرصا منه على وجود هذه الصنعة في أرضه وبلاده ، وقد أدخلونا المواضع التي يصنعون فيها البلور المذكور وأرونا الافران المعدة لطبخ طينه وكيفية صنعه ما تقضينا منه العجب وأرونا جميع مابهذه المدينة من الصنائع والحرف مثل الدار التي تصنع المبارد الهندية وغير ذلك .

وكان مقامنا بالمدينة المذكورة يومين لرؤية ماذكر ثم سافرنا منها فكان مبيتنا بمدشر وا رامة (2) وصلناه على خمس ساعات فى طريق

---

1 — أي ما يقابل من سكتنا اليوم ثلاثمائة الف من الدراهم وهي ثلاثون مليونا من الفرنكات .

2 — هذه اللفظة حرفت له من واد أرامة Guadarrama واصلها العربى وادى الرمل وهو اسم جبل فى شمالى مجريط ، ويطلق كذلك على قرية فى هذا الجبل وهى التى يعنيها ابن عنمان وهى على بعد 49 كيلو ميترا من مجريط وعلوها 1400 ميتر

محدثة في الجبل مفتتحة في أمنع ما يكون منه أحدثها فلب كنط والد هذا الطاغية وخدم فيها بعده فرناند وكملها الطاغية كارلوس حتى صارت في غاية السهولة تمر الاكداش والكراريط في قننها والمواضع التي يعقد الثلج بها من غير كلفة ولا مشقة ومن الغد سافرنا من المدشر المذكور قاصدين حضرة مادريد فوصلناها على ست ساعات بالسير الحثيث فدخلنا الدار التي كنابها أول مرة وقدم علينا صاحبنا الموكل بأمورنا لانه أقام بمادريد ينتظر قدومنا فسلم ورحب وكتب من حينه الى الطاغية يعلمه بقدومنا فبعث الينا الطاغية يستدعينا للقدوم عليه وبعث كدشا من أكداشه لركوبنا وفرق البغال في الطريق عند رأس كل ساعة وركبنا من مادريد وسرنا سيرا حثيثا ومهما نسير ساعة نجد بغالا واقفين بها أصحابها فيبدلون بها البغال ويستمرون على سيرهم فوصلنا ران خويز في ساعتين مسيرة ست ساعات فتلقانا أحد خواص الطاغية وتوجه بنا الى دار أعدها لنزولنا للاستراحة فنزلنا بها وقال ان الطاغية يسلم عليك وفرح بقدومك وحين تستريح نتوجه بك اليه ليراك وتسلم عليه ، فجلسنا بالدار هنيئة وتوجهنا الى الطاغية فدخلنا عليه فوجدناه واقفا على قدميه وأزال شمريره وأظهر من البشرى والبشاشة بقدومنا عليه شيئا كثيرا وسألنا عما رأيناه من أماكنه ومتنزاهته ومتصيداته فشكرنا صنيعه وما فعل معنا أهل بلاده من البرور والاكرام والاجلال والاعظام فقال أحب أن تكونوا على خير فرحين مسرورين مادمتم في بلادي تعظيما لسيدنا ومولانا أمير المومنين أعز الله ببقائه الاسلام ، وأبقاه ملاذا للخاص والعام ، فشكرنا فعله وأجبنا بما يناسب وانصرفنا من عنده الى الدار المعينة لنزولنا فوجدنا بها من خدام الطاغية عددا كثيرا قد هيئوا من الاطعمة وأنواع الحلاوات مالا عدد له ، وقالوا ان الطاغية قد علم أنك وردت من مادريد وحدك وتركت خدمك هنالك وقد بعث اليك هذا الطعام لغذائك أمر بصنعه لم يشبه شيء من المسائل التي هي حرام عندكم فجازيناه خيرا ، وبعد ذلك

بعث الينا وقال اننا هيأنا لكم اليوم فرجة النيران تحضرها بعد العصر ثم لك الخيار من بعد في الرجوع الى مادريد أو المقام هاهنا فقلت له أجب الطاغية على صنيعه معنا بما يجب وقل له هذه دلائل كلها على صدق محبته في جانب سيدنا ومولانا أمير المومنين . وأما الرجوع الى مادريد فاعلم أنني لاأرب لي في مادريد ولا في غيرها وانما غرضي في قضاء مئارب سيدنا ومولانا أمير المومنين ورجوعي الى أبوابه السعيدة بتنفيذ مئاربه فأنا ألازم الطاغية هاهنا وان انتقل أنتقل معه الى أن يوجهني الى سيدنا ومولانا . فأعلم عظيمه بذلك فأجبنا الى بغيتنا وبعث خدامه الى مادريد فحملوا جميع حوائجنا وأثاثنا وقدموا به علينا .

ولنرجع الى ذكر فرجة الثيران ، فقد توجهنا اليها في الوقت المذكور فكان لعبهم فيها مثل اللعب المتقدم ، وقد رأيت هنا زيادة وذلك أنهم يحفرون حفرة وسط المجال ويركزون فيها خشبة غليظة صحيحة في غاية الاحكام ويخرجون ثورا فيكثر الضجيج والصياح من الحاضرين بقصد الفرجة فيشتد جنونه فيخرج اليه فارس بيده حبل طويل يضعه أمامه ويقبض طرفه بيده فيحمل على الفرس ويرمي بالحبل على قرون الثور فينشب فيهما فيدور الفارس بالخشبة والثور يتبعه والحبل يلتوي على الخشبة حتى يقف الثور بازاء الخشبة فيربطونه ربطا محكما من قوائمه ورأسه فينزل الفارس عن فرسه ويسرج الثور ويركبه ثم يقطعون الحبل المربوط به الثور فينطلق به أشد مايكون من عدوه مع دوران كثير وتطاير مفرط فيكون راكبه في محنة عظيمة حتى يمل ويدفعون لراكبه الرمح ويطلقون ثورا آخر فيقاتله راكب الثور ، وفي هذا من المخاطرة مالا يخفى لان راكب الثور يخاطر بنفسه فربما ينطحه الثور الاخر وهو أقرب ما يكون ولهم أشياء كثيرة يستعملونها في هذا اللعب .

ولمـا كنا باشقوبية ورأينا الرؤساء الاسـارى وطلبوا منـا أن نكلـم الطاغية على شأنهـم فكلمتـه واستعطفته عليهم فبعث الـى مـع وزيـره وقـال ان الطاغية يقـول لك قـد علمت أن لـه أسارى كثيرين بالجزائـر فـان أطلـق هـؤلاء يحتـاج الى من يفدي بـه أساراه لاكنك لمـا تكلمت على شانهـم فقـد سرح لك اثنـين منهم على سبيـل الهديـة لك اعتناء بك وان كـان ليس مـن العـادة أن يطلـق أسارى شقوبيـة الا اذا كانت فـديـة الاسـارى جميعـا وها نحـن بعثنا اليهـم ليقدمـوا عليك فتعجب جميـع أهل ديوانـه كيف يعطي الطـاغيـة الرؤساء ، فقدمـوا علينا والكـل من بـركـة سيدنا ومولانا أمـير المومنـين أدام الله وجوده وأوصيناه بمـن بقي خـيرا حتى يجعـل الله لهـم سبيلا على يـد سيدنا ومولانا أمـير المومنين .

وأقمت برانخويز مـع الطاغيـة شهر جمادى الاولى بتمامـه وفي خلاله كان الطـاغيـة يتعاهدنا كثـيرا فكان يبعثنا الى أجناتـه وبساتينه ومتنـزهـاتـه ففي هـذه المدينـة من البساتين البديعـة الشكـل ما ليس في غـيرهـا ، وقد بعث الينـا الطـاغية ذات يـوم فيلا ورد عليه من الهند مـع اصحـابـه الذين قدموا بـه عليه وصاحب الفيل راكب عليه وفي يده حـديـدة معوجـة يوغلهـا في جبهته حـين يريد ان يبرمه (I) يمينا وشمالا وقد رأينا منـه صورة هائلـة وهـو مـع ذلك صغـير السن لـه نحـو الخمس عشرة سنة ويطعم في كـل يوم نحـو النصف قنطـار من الارز فسبحـان من يخلق مـايشـاء . ولـم يتـرك الطـاغيـة صـاحب طرب ولا فـرجـة الا وبعث به الينا ، وقـد أمـر كبـير الاجنات والبساتين ان ياتي الينـا في كـل يـوم بطبقـين مشتملـين على أنواع مـن فواكـه العام الفارط فقد كـان ياتينـا بتفـاح العـام المـاضي في شهـر مـايـه يريـد بذلك تانيسنا حيث علم مالحقنا من القلـق وارادتنا التوجـه الى سيدنا ومولانا أمـير المومنين وهـو في ضمن ذلك يريـد أن يتم أمـوره التي يريـد من سيدنا ومـولانا لاننا لمـا كنا بمادريـد بعث الينا مـع وزيـره الاعظم

I — بـرم هنا بمعنى أدار واصل الكلمة من البـرم الذى هو الفتل .

وقال ان الطاغية يريد منك أن تتوسط له عند سيدنا ومولانا أمير المومنين في تجديد الصلح والمهادنة معه لان له محبة قوية في جانبه الشريف فيريد أن يكون معه على أكمل الحالات ويحب أن يكون هدا الامر على يدك وأعاد ذلك علي مرارا مشافهة وبالوسائط . وهذا كله من شدة ما ألقى الله تعالى في قلوبهم من الرعب من سيدنا ومولانا أمير المومنين أعز الله ببقائه الدين فتعين ان اجيبه لما طلب امتثالا لقول الله عز وجل لنبيه المفضل ، وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على اللهفقلت أكتب لسيدنا ومولانا أمير المومنين ولا يكون ان شاء الله الا خير ففعلت ، وقد كان هذا الطاغية جعل الصلح والمهادنة مع سيدنا ومولانا أمير المومنين قبل هذا بنحو الاربع عشرة سنة . ثم ان مولانا أيده الله من كثرة رغبته في الجهاد والذب عن العباد والبلاد ظهر له أن يربط على قلعة مليلية أعادها الله دار اسلام فكتب الى الطاغية ، وأعلمه أيده الله بأنه متوجه اليه لياخذ أهبته وليلا يدعي غدرا أو نقضا للعهد وبقي بعد الانذار نحو الثلاثة أشهر وخيم على قلعة مليلية أعادها الله دار اسلام في أوائل شوال من سنة ثمانية وثمانين ومائة والف (I) وحميت الحرب وطال الحصار نحو الاربعة أشهر وضيق بالمحصورين تضييقا كثيرا وهدم القلعة عن آخرها ولم يبق فيها الا الابراج والاسوار والمقاتلة ، وأما النساء والصبيان فقد حملتهم مراكب العدو الى مالقة . ثم ان عظيم الروم كتب الى سيدنا ومولانا يذكر أنه كان معه على الصلح والمهادنة وأنه مشروط في عقد الصلح ان أراد أحد الفريقين نقض الصلح تجعل ستة أشهر بعد الاعلام ليتهيأ الفريقان وجعل الطاغية يتظلم ويتشكى فبلغت كتبه سيدنا ومولانا أمير المومنين فقال لهم لم أنقض لكم عهدا ، وقد أنذرناكم واعلمناكم فتوجهنا اليكم وهذه المدة التي ادعيتم أنها مشترطة في الصلح ليست على بالنا فلما ادعيتم هذه الدعوى

I — أى أوائل دجمبير سنة I774 ميلادية .

نـرحل عنكـم حتى توجهوا الينا عقـدة الصلح وننظرهـا ونحـن أولى من وفى بالعهـد ومن الغـد رحـل سيدنا ومولانا قـافـلا الى حضرة مكناسـة حتى ينظر في أمـرهـم وبسبب ذلك حصلت بين سيدنا ومـولانا أيـده الله وبـين هـذا الجنس وحشة وقـد كـان لهـذا الطاغيـة في جـانب سيدنـا محبـة كثـيرة وغبطـة كبيـرة ، فلما وقـع هـذا الامـر بقي حيـرانا لا يهتدي سبيلا وبقي خـائفـا يترقب فلما وجهنا سيدنا أيـده الله على شان تفريـق الصـدقـة على أسارى المسلمـين كمـا تقـدم ذكـر ذلك أجمعـوا على طلب الصلح والمهـادنـة كما ذكـرنا وأدخـل معـه في الصلح ولـده سلطـان نابلس لان سيدنا أيـده الله كـان يتوعـده فكتبنا لسيدنا ومـولانا نخبره واعلمناه ببغيتهم وطلبتهـم ، فـأجابنـا سيدنا نصره الله وأمـرنـا أن نقبـل منهـم الشروط التي يريـدون عقـد الصلح عليها وان نصحبها معنا ليكملهـا ويمضيها فـأعلمتهم بذلك فاستنسخوا الشروط المذكـورة وفق مـرادهم فتصفحتهـا ورددت عليهـم مالا يليـق ولا يجـوز شرعـا وأثبت مـا رأيته صوابا . ولمـا استكملوا أمـرهم وعـزم الطاغيـة على تشييعنـا بعث الينـا المـركيز المعـين لـلاقاتنـا مـع الطـاغية عند ورودنا وصدورنا ، ولمـا قدمنـا عليـه أول مرة كـان مـريضا فعـين الطـاغية أحـد خواصـه فقام بأمور ملاقاتنا نـائبـا عـن المركيز المـذكور وفي ذلك الوقت بريء فطلـع فبعثـه الطـاغيـة الينـا يعلمنـا فسلم وقال ان الطـاغيـة مسلم عليك ويقـول لـو كـان الامـر اليه وعلى وفـق ارادتـه ماوجهك اليـوم لانـه يـريـد أن تقيـم ببلدنا أكثر مـن هـذه المدة وحيث بلغـه مالحقك من القلـق وارادتك التوجـه الى سيدنا ومولانا أمـير المومنـين فهـو مساعفك وهـو متأهب لـملاقـاتك يوم الجمعة ثـامـن وعشرين من جمادى الاولى من سنة أربع وتسعين ومائة والف (1) فـي السـاعـة الحـاديـة عشرة من النهـار وجعلنـا مـع المـركيز المـذكـور دار الطـاغيـة مـوعدا في الوقت المذكـور ومـن الغد توجهنا الى دار الطـاغيـة في الـوقت

---

1 – الموافـق ثاني يونيه سنة 1780



صورة الوزير الاول فلوريدة بلانكـا الذى تفاوض عدة مرات مـع السفير محمـد ابـن عثمـان

المتفق عليه فتلقانا فابدأه صاحبنا وقال اذا دخلنا على الراي فابدءه بالسلام وبالكلام فتلك هي العادة . فبينما نحن في ذلك اذ نادانا أحد خاصته فدخلنا عليه فوجدناه قائما على قدميه مزيلا الشمرير عن رأسه ومعه أكابر دولته ووزيره الاعظم عن يمينه ، وهو الموكل بأمورنا والمعين للكلام معنا فسلمنا عليه بما هو مطلوب شرعا وقلت له قد فعلتم معنا من البرور والاكرام والانعام منذ دخلنا بلادك وتبعك في ذلك أعيان دولتك والخاصة والعامة من رعيتك ما يجب أن يشكر ولا ينكر ، ويشاع ويذكر ، وهذا أقوى دليل على محبتك في جانب سيدنا ومولانا أمير المومنين ، وقد عرفته بذلك مكاتبة وسأعرفه بذلك ان شاء الله مشافهة بجميع ما رأينا من احسانك وترحيبك وبشاشتك . فقابل عن المجازاة بالاحسان احسانا وقال : سلم على سيدنا ومولانا أمير المومنين وقل له أنا محب في جانب سيدنا وأريد أن أكون معه على خير وعلى الصلح والمهادنة دائما كما تقتضيه محبتنا في جانبه أنا وولدي سلطان نابلس ، وكل مايريد سيدنا في بلادنا نسرع لقضائه ونفرح بذلك . فقلت له : لا يفعل معكم سيدنا ومولانا أمير المومنين الا خيرا ، وهو اولى بفعل الخير وبالمكافأة عليه ثم شيعنا وانصرفنا عنه فذهب معنا المركيز الى ولد الطاغية البرنسبي ومعناه الذي يرث ملك أبيه واسمه كارلوس فوجدناه واقفا على قدميه كما فعل أبوه وزوجه عن يساره فشيعونا ثم توجه بنا الى اثنين من أولاد الطاغية ففعلوا مثل مافعل ابوهم ثم الى اولاد البرنسبي الصغار ثم الى ابنة الطاغية وهي عجوز توالت عليها الامراض لم تتزوج قط وهذه هي العادة عندهم في جميع من يرد عليهم من وفود الملوك يفعل ماذكر عند ملاقاته مع الطاغية المرة الاولى ويفعله كذلك يوم الوداع وعندهم في القوانين أيضا أنه يلزمه أن يودع جميع أكابر الدولة وأعيانها من الوزراء وماشاكلهم من الدوكيين والكنديين والمركزيين لانه لما يقدم الواحد على بلادهم يردون عليه كلهم بقصد السلام عليه فيلزمه أن يودعهم عند توجهه من بلادهم فيطبع قراطيس صغارا يكتب فيها اسمه ويبعث كل

بطاقة لدار كل واحد من الاعيان فيكفيه ذلك في الوداع ، وان كان عنده معارف خصوصا يتوجه اليهم بنفسه وهم كذلك ياتون اليه فيودعونه الا ان القراطيس لابد منها ومن لم يفعل ذلك يعد عندهم بربريا لا يفقه صوابا ، ولا يعقل خطابا ، وكذلك يفعلون هذا الامر يوم القدوم عليهم فياتي الوزراء والاكابر بقصد السلام بأنفسهم ، ومن كان به عذر أو به مرض أو نحوه يبعث كاغيدا مطبوعا مكتوبا فيه اسمه نائبا عنه في القدوم كما هي العادة ويلزمه أن يرد عليهم السلام على كل فرد فرد فكان يثقل علي ذلك فأشرت على القبطان الذي كان ملازما لنا منذ طلعنا من قالص أن يطبع القراطيس

وقد عرفت عوائدهم وقوانينهم لما أقمنا بمادريد ، ومنها أنه بعد صلاة العصر يركب الاعيان كلهم في الاكداش نساء ورجالا ويخرجون الى الباصيار في موضع متسع مستطيل مغروس في جانبه الاشجار مقصود منها الظل ويترددون هنالك في أكداشهم كما تقدم ، ففي الوقت المذكور لايكون أحد بداره فنركب عشية ونمر مع بعض الطرقات ويقبض احد من الخدام عدة كواغيد ومهما مررنا بدار أحد ممن ذكر يضع فيها قرطاسا فيكفي ذلك وكان ذلك أسهل ، ولو توجهنا وقتا آخر لزم أن ندخل الى دار كل واحد لاننا نجد صاحب الدار فيها فيلزمنا الدخول ولا نجد بدا من مساعفته .

ولما كان يوم الاحد متم جمادى الاولى ورد علينا الوزير الاعظم الذي عليه مدار جميع أمور الطاغية البرية والبحرية فكلها ترجع اليه ودفع الينا جواب كتاب سيدنا ومولانا أمير المومنين الذي كتب اليه الطاغية مع شروط الصلح المذكورة قبل ودفع الينا عدة كتب من كتب المسلمين رحمهم الله وقال ان الطاغية بعث اليك هذه الكتب على سبيل الهدية والاكرام لانه بلغه أنك لما كنت بالاسكريال ودخلت خزانة كتب المسلمين أردت اخراج شيء منها ويقول لك لو كان أمر كتب الاسكريال بيده لاعطاك منها جميع ماتريد لاكنها محبسة على ذلك



الشارع الذى كان يقصده اهل مدريد للتفسح ويصفه ابن عثمان فى رحلته الاكسير
معبرا عنه بالبرادو

الموضع من عهد الملوك الاول ، وهي على يد البابا والى نظره وحيث بلغه أنك أردت اخراج شيء من الكتب المذكورة ولم يمكنه اسعافك الى ذلك بحث في ايالته فلم يجد غير هذه الكتب فبعثها على سبيل الهدية فسررنا بذلك كثيرا وجازيناه خيرا على فعله ثم ودعنا وانصرف .

ثم أخذنا في أهبة السفر وبعث الينا الطاغية الاكداش التي تكفينا وبعث كدشا من أكداشه لركوبنا ، وبعد نصف الليل من ليلة الاثنين مهل جمادى الثانية من سنة اربعة وتسعين ومائة والف (1) سافرنا من مدينة رانخويز قاصدين حضرة طليطلة أعادها الله دار اسلام ومنها نتوجه الى قرطخنة لرؤية أسارى المسلمين الذين بها ولنفرق عليهم الصدقة بل صلة سيدنا ومولانا أمير المومنين التي بعث معنا وان كانت طريق قرطخنة ليست مارة على طليطلة ولكنها لما كانت دار اسلام ومعهد علماء أعلام أحببنا أن نتوجه اليها فاستاذنا الطاغية في ذلك فأذن لنا فوصلناها على سبع ساعات من رانخويز

دخولنا مدينة طليطلة (2) أعادها الله دار اسلام

وهي مدينة كبيرة أسست على ربوة من الارض ذات حجارة كبيرة وصخور كثيرة أحاط بها الوادي الجائي من رانخويز المجتمع من وادي

---

1 - الموافق رابع يونيه سنة 1780

2 - هذه العاصمة الاسلامية العظيمة تسمى بالاسبانية Toledo وهي تنطق بالعربية بضم الطائين وكسر الطاء الثانية غلط وقد كانت أيام الحكم الاسلامي مركزا ثقافيا هاما وكذلك اتخذها ملوك النصارى مركزا لنقل علوم العرب بالترجمة الى اللاتينية ومنها اشعت الحضارة الاسلامية على باقي البلاد المسيحية ، وقد دام حكم المسلمين لها نحو 400 سنة واسترجعها الاسبانيون سنة 1085 م . وهي تبعد عن مجريط 70 كيلو ميترا

انطاخوا (1) ووادى خرمة من جميع جهاتها الا من جهة المار الى مادريد فقد بقي في تلك الناحية شيء قليل مقدار شأوفرس فالوادي المذكور محيط بالمدينة المذكورة احاطة الصفيحة بالحافر الا ذلك المقدار القليل فعبرنا الوادي المذكور على جسر له قوسان وفوق القنطرة باب بدفقه هو أحد أبواب المدينة والوادي كالسور لها ، وصعدنا الى المدينة في طريق محدثة في أصعب مايكون من الحجر الصلد وكلها مرصفة بالحجارة وكذا جميع المدينة حتى انتهينا الى الدار المعدة لنزولنا فوجدنا ببابها الحاكم وأعيان البلد الا انهم ليست لهم رفاهية كثيرة مثل مادريد واشبيلية وقالص ولكنهم أظهروا من الفرح والبشاشة ما أظهروا ، وفي عشية ذلك اليوم توجهنا الى القصبة التي كان بها أمراء المسلمين رحمهم الله فأرونا جميعها فلم نجد بها أثرا للمسلمين رحمهم الله فقد اندثر جميعه وكل ما فيها من البنيان الآن فهو من عمل النصارى دمرهم الله والذي بناها كارلوس كينط الانبرطور ، وهي عندهم اليوم معدة لصنع الحرير وقد أرونا مواضع الغزل بالآلة المسماة بالطرن (2) وعندهم منه آلات متعددات وأرونا مواضع نسج الحرير وعندهم من مرماته على اختلاف أنواعه وأشكاله عدد كثير ومن غريب ضبط هؤلاء الكفرة وتبصرهم بأمور دنياهم أن جمعوا في هذه الدار من الصبيان اليتامى والارامل عددا كثيرا وكلهم

---

1 – هذا تحريف بزيادة النون لاسم النهر العظيم الذى يعرف عند العرب بوادى تاجه وعند الاسبان يسمى Tajo ويقطع اكثر الجزيرة الاندلسية من الشرق الى الغرب ويصب فى المحيط الاطلسي عند مدينة الاشبونة عاصمة البرتغال . أما نهر خرامة فهو أحد روافده يتصل به بعد مدينة أرانخويس وهو بالاسبانية Rió Jarama

2 – الطرنو آلة عظيمة لغزل الحرير وقد كانت بفاس معامل من هذا النوع ويطلق عليها هذا اللفظ الاسبانى وهو Torno وآخر طرنو عرفناه بفاس كان بدرب قبالة جامع الزليج قرب قنطرة الرصيف

هنالك بقصد أن يتعلموا الصنعة وكل واحد من اليتامى يخدم الصنعة التي يريد والطاغية ينفق عليهم في مأكلهم وملبسهم وسائر مؤنهم الى أن يتعلموا من الصنعة مايقوم بمعاشهم .

وقد أرونا أيضا قرب الوادى دارا جديدة أحدثها الطاغية ولا زالت الخدمة بها بناها بقصد خدمة العدة السيوف والمكاحل وحركات خدمتها بالماء ، وهي دار كبيرة وبالمدينة المذكورة دار معدة لصنع السيوف مقصورة على الطاغية لعسكره وسيوف هذه المدينة لا يعادلها شيء في الجودة فهي أفضل سيوف بلادهم وبالدار المذكورة أمين عارف بالحديد وبالسيوف فلا يدخل شيء منها للخزين الا بعد تقليبه ورضاه وأراد الطاغية أن يحول خدمة العدة المذكورة للدار الجديدة عند تمام خدمتها

وقد أرونا الاسبطار وهو بمنزلة المارستان ببلدنا في غاية النظافة والكبر وله وكلاء قائمون بوظائفه وبأمور المرضى من علاج ومأكول ومشروب وملبوس وعادتهم في ذلك اذا دخل المريض الى الاسبطار أن ينزعوا حوائجه ويلبسوه ثيابا من الحبس الموقوف على الاسبطار ويعالجه الطبيب المعين للاسبطار ويأكل ويشرب على حسب مايرى الطبيب فاذا بريء يلبس ثيابه التي دخل بها ويضع ثياب الحبس ويخرج الى سبيله وللنساء موضع مخصوص عليه نساء عجائز يقمن بأمورهن وللرجال كذلك وهذه الاسبطارات في جميع بلاد اصبانيا ولكل اسبطار طبيب له بيت جامع لسائر الادوية ومطبخة فيها سائر اللحوم الوحشية والانسية ، واذا أمر الطبيب الطباخ بشيء منها طبخه من حينه ويناوله المريض .

وقد دخلنا مسجد طليطلة الاعظم الذي ليس في الوجود مثله في الغرابة واللطافة وعلو السمك وضخامة سواريه مع غرابة شكلها وكله مبني بالحجارة التي تشبه الرخام وسقفه منها بالقبوليس فيه خشب وأرضه مفروشة بالرخام الابيض والاسود الا أن النصارى خذلهم الله ،

أحـدثوا بـداخله كنائسهم ويصلون فيها صلاتهم التي يسمونها الميسا ومواضع الموسيقى المسماة بأوركـان ذات قنانيط وجعـاب كما تقدم ذكرها كـل ذلك مقتطـع بشبابك النحاس بـين سواري المسجد كما اقتطعوا منه بيوتا كثـيرة وضعوا فيهـا ذخائـرهم وصلبانهم وغـير ذلك من الاحجـار النفسيـة والاواني الـذهبيـة والفضيـة التي يبعثها ملـوكهـم واكـابـرهم بقصد الـوقف على الكنيسة يخرجـون ذلك في أعيادهـم عند صلواتهم وطـول هـذا المسجـد أعـاده الله لـلاسلام قـدم وأربعمائـة قـدم وعرضه ثـلاثون قـدما ومائتان وعلو سمكه خمسة عشر ومائـة قـدم وله مـن الابـواب والله أعلـم خمسـة وقـد وجدت النصارى خذلهم الله يحدثـون بناء في غـايـة الضخامـة في أحد أبـواب المسجـد المذكور يريدون أن يجعلوه أعظم أبوابـه ولهم الآن في خدمتـه نحـو الست سنين ومن بديـع هـذا المسجد العظيـم المنـارة اليتيمـة التي لا تشبهها منـارة حسنا وبهـاء مبنيـة بالحجـارة من جنس الحجـارة التـي بني بهـا المسجـد ويصعد اليهـا بمائتي درجـة الى موضع الاذان ومـن موضع الاذان الى انتهـاء علوهـا نحـو المـائـة درجـة قيل علـو هـذا المنـار مثل علو منـار اشبيليـة يزيد علو منار اشبيلية على هـذا المنـار بنحـو القـدم والنصف وعـرض كـل ربـع أحـد وخمسون قـدمـا وفي أعلى المنـار المذكور تسعـة نواقس أوسطهـا في غايـة العظم دائرته نحو ثلاثة وثلاثين شبرا وغلظ جرمـه نحـو نصف ذراع ذكـر لي ان زنتـه خمس عشرة مـائة قنطار وثمانيـة وأربعـون رطـلا وذلك مرسوم عليه ومـن المنـار المذكور أشرفنا على المدينة فـاذا هي مدينة كبـيرة متصلـة العمارة وجميـع سقف دورهـا بالقـرمـود الابيض كسائـر مـدن بـلاد اصبانيا ، وأزقتهـا ضيقـة لا زالت على عهـدها وحـالهـا من حيث كـان المسلمـون رحمهم الله بها وكلهـا مـرصفة بالحجارة وقـد مررنـا في بعض أزقتهـا بكنيسة مـن أعظم كنائسهم بناهـا كارلوس كينط ولـم ندخـل اليهـا لضيق الوقت وقـد علقـوا على جـدراتهـا مـن خـارجهـا أغـلالا وسلاسل وقيـودا كثيرة ذكـر لي حاكـم البلـد أن تلك الاغـلال كـان المسلمـون رحمهم الله يجعلون فيها أسارى النصارى لمـا كانت

طليطلة بأيدي المسلمين فلما تغلب الكفار على طليطلة وأخذوها من أيدي المسلمين في سنة ثمان وسبعين واربعمائة (1) وذلك في عهد يحي الملقب بالظاهر ابن يحى الملقب بالمامون ذى المجدين ابن الحاجب الظافر اسماعيل بن عبد الرحمان بن ذى النون الملقب بناصر الدولة (2) أحد ملوك الطوائف بعد انقراض الخلائف أبقوا السلاسل المذكورة عندهم وعلقوها على هذه الكنيسة تذكرة لهم لما تقدم من عداوة المسلمين أهلكهم الله

ومن غرائب طليطلة الماء المجلوب اليها من عدوة الوادي الاخرى من عين ماء غاية في العذوبة جعلوا على الوادي قنطرة وأجازوا فوقها ماء العين المذكورة من فوق الوادي وأدخلوه المدينة وقد هدت اليوم هذه القنطرة وبقي منها أثر قليل في العدوة المقابلة للمدينة وبالوادي المذكور قوادس من الحديد في غاية الطول مثل المدافع ملصق بعضها ببعض موضوعة على جدار ممتد من أعلا المدينة الى أسفل الوادي وضعا محكما أراد بعض المهندسين أن يطلع الماء فيها الى المدينة بحركات وذلك في علو مفرط فلم يتم له ذلك . وفي هذه المدينة آثار كثيرة للمسلمين رحمهم الله مثل السور والابواب والازقة وكثير من الجدارات والآبار ولازال النصارى يسمون السوق الكبير الذي بوسط المدينة باسمه الموضوع له في الاسلام وهو السوق الكبير ولا يعرفون معناه فقلت لبعض أعيان النصارى كان معنا ما معنى السوق الكبير (3) الذى

---

1 – ابتدأت سنة 478 هـ . يوم 29 ابريل 1085 م وانتهت يوم 17 ابريل 1086 م .

2 – دولة بنى ذى النون من ملوك الطوائف وكانت مستولية على طليطلة وما اليها الى ان فتح الفونسه السادس هذه المدينة المنيعة فى السنة المذكورة وقد حاصرها المسلمون بعد ذلك مرارا ولكنهم لم يستطيعوا استرجاعها

3 – فى الواقع حرفت هاتان الكلمتان الى Socodover (سوقوضوبير) ولا زالت هذه الساحة تحمل هذا الاسم الى يومنا وهى وسط المدينة ومركز النشاط البلدى . هذا على فرض ما ذكره ابن عثمان هو الصحيح ولكن الواقع ان اللفظ الاسبانى محرف عن سوق الدواب .

نطقت بـه فقـال مـا أدرى هكـذا سمعنا مـن آبائنا وهـم سمعوا ممن تقدمهم أن هـذا الاسم موضوع على هـذا المـوضـع من عهـد الاسـلام وأمـا بلغـة الصبنيول فيسمون المـوضع المتسع الكبير البلاصة ميور (1) وكـذلك قنطرة الوادى التي عبرنـا عليها يسمونها القنطرة (2) باسمها المعهود لها في الاسـلام ولا يعـرفـون معنـاهـا ، وأسمـاء كثـيرة لازالت علـى أسمـاء المسلمـين رحمهم الله وهـذه القنطرة الموجودة اليوم هي قنطرة من عمـل النصارى ولعـل قنطرة المسلمين هـدهـا السيل

واقمنا بهـذه المدينة يومين وفي اليوم الثالث سافـرنا منها بعـد أن شيعنا حـاكمها وأعيانها فعبرنا الوادي على القنطرة التي عبرنـا عليها حـين دخلنـا فلما سرنا ساعتين من المدينة المذكورة وصلنـا قـريـة نمبـركـة (3) مـررنـا بوسطهـا وأهلهـا أهل باديـة وسرنا بساعـة من القـريـة المذكـورة ووصلنا قريـة المنسيد ذى طليطلة (4) بقيت عـن يسار الطريق بقـرب منهـا وهـي في سفح ربـوة فـوق تلك الـربـوة قصبة من عمل المسلمـين رحمهـم الله لازالت أسوارها مشيدة وشرفاتها قائمـة مطلة على جميـع تلك البلاد والارضين ولعلهـا كانت عند المسلمـين رحمهم الله بقصد الحـراسة من العدو لمـا ضايقهم وسرنا ساعة أخرى من القريـة المذكورة آنفـا فوصلنا قرية مـاسكر كـي (5) مـررنا بوسطهـا وأهلها أهل باديـة ثـم سرنا ساعـة أخرى فوصلنا قـريـة مسماة بالمـورة (6) على خمس ساعات من طليطلة ، وهى كبيرة في بسيط من

---

1 – بالاسبانيـة Plaza mayor .

2 – وهو كذلك الى الآن الا انهم لجهلهم لمعنى Alcántara يجعلون هذه اللفظـة مضافـا اليها لفظ Puente فكـأنهـم يقـولـون قنطرة القنطرة .

3 – بالاسبانيـة Nambroca .

4 – بالاسبانيـة Almonacid de Toledo .

5 – بالاسبانيـة Mascaraque .

6 – بالاسبانيـة Mora .

الارض من بقيـة المسلمـين رحمهم الله وبالقـرب منها كـدى على احـداهـا قصبة أيضا من عمـل المسلمين رحمهم الله لازالت أسواراهـا قائمـة الى الان وهـذه البلاد التي مـررنا بها مـن طليطلـة الى المـورة كلها مغروسة بـأجنة العنب عـن اليمـين والشمـال مقـدار مـد البصر فلمـا وصلنـا القـريـة المذكـورة خـرج أعيانها لـملاقاتنا وفـرحوا بنا غـايـة وأدخلونا دارا أعدوهـا لنزولنـا ومـن الغـد سافـرنا منها في أرض متسعـة ذات حجـارة كثـيرة وتـراب أحمـر وهـذه البلاد هي أرض مانشا المتقدمـة الذكـر مبداهـا مـن هـذه الناحية مـن المـورة المذكـورة وهي في الحـد الذي بـين أرض مانشـة وقشتالة الجديـدة ، ومبدأ أرض مانشا من الناحيـة الاخـرى ذكـرناه عند توجهنـا الى الطـاغيـة . وسرنا في هـذه البلاد أربـع ساعـات فوصلنا قرية كنسويكرة (1) بقيت عـن يمين الطريق بنحو ميل ، وهي من بقية المسلمـين رحمهم الله أسست في سفح ربوة وفـوق الربوة قصبة مـن بنيـان المسلمين رحمهم الله لازالت أسوارها قائمـة الى الان ، كانت عندهم بقصد الحراسة وكذا سائـر هـذه البلاد التي استوطنها المسلمون رحمهـم الله لاتجـد كديـة ولا ربـوة الا وفـوقهـا بـرج أو قصبة بقصد الحـراسة من العدو الكافـر دمرهم الله بسبب الحروب والوقـائـع التي كانت بـين المسلمين والكفـار دمـرهم الله . وسرنا ساعة أخـرى فوصلنا قرية يقال لها مادر لخوض (2) فتلقانا اهلها وتقـدمتهم خـويلة لهم على بعـد مـن القـريـة فسلموا علينا وأظهـروا فرحا كثيرا وأدخلونا دارا من خيـار دورهـم بقصد المقيل فقلنـا بهـا الى أن صلينا

1 — بالاسبانيـة Consuegra وكـل هـذه القـرى التى ذكـرها مـن طليطلة الى كونسويكـرة ليست على الطريق الكبيرة التى تذهب من طليطلة الى بالديبينياس ثـم قـرطبة .

2 — بالاسبـانيـة Madridejos بالدال بعـد الـراء لا الـلام . وهـذه القـرية على الطريـق الكبيرة التى تـربط مجـريط بقرطبة

الظهر وسافرنا وبظاهر هذه القرية عدد كثير من السواني (1) يستخرجون منها الماء ويستعملون عليه الخضر وما أشبهها الا أنهم لابساتين عندهم ولا أجنة وكذا جميع هذه البلاد فهي عارية من النبات ماعدا أجنة العنب ففيها منها مالا يعد ولا يحصى ويصنعون منه من الخمر مايجلب منه لجميع البلاد ، فسرنا بقية يومنا فوصلنا قرية يقال لها القصر ذى سان خوان (2) على تسع ساعات من بلاد المورة فتلقانا أهلها نساء ورجالا وأظهروا ترحيبا كبيرا وتوجهوا معنا الى الدار المعدة لنزولنا واستعدوا فيها استعدادا كثيرا لم ينسبوا معه الى تقصير ، وهذه القرية وأهلها تحت يد ولد الطاغية الاوسط المسمى بكابرير مع ثلاث عشرة مدينة كلها الى نظره بخراجها وجميع منافعها ، وهي قرية قائمة من بقية المسلمين رحمهم الله ولم يبق فيها من أثرهم الا برج واحد على شكل المئذنة لازالت شرفاته قائمة الى الان .

فبتنا في القرية المذكورة ومن الغد سافرنا فخرج اهلها جميعا لتشييعنا . ولما انفصلنا عنها بنحو نصف ساعة ظهرت لنا قرية يقال لها الكانب ذى كربطانة (3) عن يسارنا بنحو ميل في اسفل نشز من الارض وفي أعلاه عدد

---

1 – جمع سانية وتطلق فى مدن الشاطىء المغربى على البساتين التى تسقى بماء الابار ذات النواعير وتطلق لفظة السانية كما عند المؤلف هنا على الآلة بعينها التى يطلع بها الماء من البئر بواسطة دابة تدور حول البئر فتنزل الدلاء ثم تطلع عامرة وتنصب في اقداح الناعورة ومنها الى صهريج يوزع منه الماء على نواحى البستان المغروسة ـ والكلمة مشتقة من سنا الارض يسنوها سقاها والسانية هي الدلو الكبيرة كذلك .

2 – بالاسبانية Alcázar de San Juan وهي اليوم مدينة الى الكبر اميل حيث يسكنها قريب من 30.000 من السكان وهي وسط بلاد المانشة ومركز تجارى هام

3 – بالاسبانية Campo de Criptana

كثير من ارحية الريح (1) وجميع هذه البلاد التى مررنا بها منذ خرجنا من قرية خوان مقدار ساعتين أو مايزيد عليها كلها مغروسة بأجنة العنب والزيتون وكذا القرية التي ظهرت عن يسارنا ولما سرنا ست ساعات وصلنا قرية يقال لها سكولموس (2) فتلقانا أهلها وحاكمها على بعد منهم وسلموا ورحبوا ترحيبا كثيرا وقالوا انهم خرجوا لملاقاتنا بأمر طاغيتهم وأمرهم أن يكونوا عند أمرنا في جميع الامور اعتناء بسيدنا ومولانا أمير المومنين فأدخلونا دارا أعدوها لنا فقلنا بها الى أن صلينا الظهر ثم سافرنا منها في أرض متسعة منفسحة الى أن أشرفنا على مدينة يقال لها بلرو بلد (3) فوصلناها على ست ساعات من قرية مبيتنا فخرج اهلها نساء ورجالا لملاقاتنا واخرجوا معهم الطبول والمزامر واطلقوا محارق (4) كثيرة وأظهروا فرحا كبيرا وتوجهوا معنا الى قريتهم الى ان أدخلونا الدار التي أعدوها لنزولنا وكان عندهم بها مهرجان كبير فقد اجتمع بهذه الدار اهل هذه القرية كلهم وسقوهم جميعا الشكلاط وأنواع الحلاوات كل ذلك مبالغة في الاكرام فبقينا عندهم ومن الغد سافرنا وبظاهر هذه القرية من أرحية الريح عدد كثير .

وجميع هذه البلاد من حساب مانشا ترابا وحجارة ونباتا وكلها محروثة عن آخرها وقد صلح الزرع في الكثير منها ثم وصلنا قرية

---

1 – يقال ان هذه الارحية وعددها نحو الثلاثين هي التى شن عليها دون كيخوطى حربه الشعواء فى رواية سرفانطيس الخالدة .

2 – بالاسبانية Socuéllamos وهى ناحية غنية بزراعة القمح وبغابة البلوط

3 – بالاسبانية Villarrobledo .

4 – المحارق جمع محرقة وهي من الكلمات المحدثة للتعبير عن أشياء جديدة لم تكن معروفة عند العرب قبل الاسلام. وهي عبارة عن ارسال كميات من البارود مشعلة الى السماء حيث تتفجر عن اشكال هندسية ملونة جميلة ونسميها فى المغرب حراقيات الا ان اللفظة المستعملة فى الكتب هى المحارق وقد اوردها دوزى فى ذيله على المعاجم العربية ج 1 ص. 274.

منـايـة (1) على اربـع ساعـات فنزلنا بها للقيلولة حتى صلينا الظهر ثم سرنا فمررنا بقريـة يقال لها الروضة (2) على ساعتين ونصف من القريـة المذكورة فسرنا بقية يومنا فوصلنا قرية لخنيطة (3) على عشر ساعات من القرية التى بتنا بهـا فتلقانا أهلها وأظهروا مـن الفـرح ما أظهروا وعينـوا دارا كبـيرة لنزولنا فبتنا عندهم وقبل قريـة الروضة بنحو ساعـة انتهت بـلاد مـانشا ودخلنـا في طرف أرض مرسية وهـذه القريـة هي أول قريـة من قـراهـا وغنم بـلاد مـانشا المتقدمـة جلهـا سود ومعـزها بيض ولا مـاء فيها الا ماء الآبـار وقـد بالـغ أهل قـريـة لخنيطـة المـذكـورة في الاكـرام والتـرحيب وأنزلونا دارا كما ذكـرنا مـن أحسن دورهـم وفي الليل ورد علينـا أعيـان البلد عـن آخـرهم رجـالا ونسـاء وأصحبـوا معهـم آلات المـوسيقى التـي يستعملونها وذلك عندهم الغايـة في الاكـرام التي لاغـايـة فوقها فاستاذنونا في الدخـول علينا بالموسيقى والنساء الضامـات بقصد أن يرقص كمـا هـي عوائـدهم فما أمكنني الا أن أذنت لهم جبرا لخواطرهـم لان ذلك مـن شـدة اعتنائهم بسيدنا ومـولانا أمـير المومنين وفرحهم بخديمه فدخلوا نساء ورجـالا فاستكملوا جمعهم وأخـذ أهـل الموسيقى في استعمالهـا فبينمـاهم كـذلك اذ أقبل القـاضي يتهادى بـين عصبته بعد حلـق لحيتـه وتحسـين هيئتـه فـارتج المجلس لهجومـه وقدروا مقدار قدومـه وحلت له الحبـي وقـالـوا ما معناه مرحبا مرحبا فاستوى جالسا والتفت يمينا وشمالا عابسا فلم نشعر الا والقاضي شمر وتحزم وخـرج لميدان الرقص وتقدم وقـال ليتأخـر العجائز ثم هل من مبارز ثـم قصد خريدة كست المجلس بجمالهـا وأزال شمـريـره وبـايـع لها وقال ايـاك أعني ولست أكني فجعـل يرقص وهي بـين يديـه

---

1 – بالاسبانيـة Minaya .

2 – بالاسبانيـة La Roda وهى مـدينة وسط اقليم البسيط وتبعد عـن مدينة البسيط 35 كيلو ميتـرا

3 – بالاسبانيـة Gineta

ويخالف بين رجليه ولم يبال بالقوم الذين حضروا قلوا أو كثروا قبحهم الله فما أقل حياءهم ، وأكثر اجتراءهم .

ومن الغد سافرنا من هذه القرية في طريق مستوية فوصلنا بلدة يقال لها البسيط (1) على ساعتين من قرية القاضى الاجل عجل الله له شيئا من العذاب المؤجل فتلقانا حاكمها وأعيانها وأدخلونا دارا أعدوها لنزولنا للقيلولة وبعد صلاة الظهر سافرنا منها ، وهذه البلاد لايصلح بها غرس ولا شجر غير ما تقدم من شدة القر فان الثلج ربما ينزل عندهم في شهر مايه ومن أجل ذلك بقيت هذه البلاد بلا غرس وكذلك بلاد مانشا عارية من الاشجار ثم مررنا بقلعة عن يسار الطريق بنحو ميل على قنة ذات حجارة وصخور كثيرة يقال لها لسيودل تنتيلية (2) غاية في التحصن وهي من عمل المسلمين رحمهم الله لازالت أسوارها وأبراجها قائمة الى الان وفيها عين ماء عذب بينها وبين القرية المذكورة ساعتان وتمادينا على المسير بقية يومنا فوصلنا مدشرا يقال له بيطرلا (3) على تسع ساعات من قرية لخينطة فبتنا به ومن الغد سافرنا منه فمررنا بعد أربع ساعات بقرية عن يسار الطريق بنحو ميل يقال لها منط لبيكر (4) اسست فى سفح ربوة عليها قصبة من عمل المسلمين رحمهم الله . وجميع هذه القلاع التي في هذه البلاد كانت عند المسلمين رحمهم الله

---

1 – بالاسبانية Albacete مدينة كبيرة فى وسط سهول ممتدة لذلك سميت البسيط وهي عاصمة احد الاقاليم الاسبانية ولم تكن ذات أهمية ايام المسلمين وان كان اسمها عربيا

2 – لايمكن ان تكون هذه القرية الا Chinchilla de Monte Aragón ولعلها كانت تدعى فى وقت ابن عثمان Ciudadela Chinchilla اى حصن تينتيلية وبينها وبين مدينة البسيط 15 كيلوميترا وبها آثار عربية الى الآن

3 – بالاسبانية Petrola وهي قرية صغيرة لا توجد على الطريق اليوم .

4 – بالاسبانية Monte Alegre وقد تحرف له لفظ اليكرى الى لبيكر.

بقصد الحراسة وسرنا الى ان وصلنا بلدة ايكلة (1) على ثمان ساعات من المدشر المذكور وهذه البلدة ذات زياتين وأجنات من العنب كثيرة ولاهلها اعتناء باستعمال الحرير وفي أعلاها بناء قديم ذكر أهل البلد انه من بناء المسلمين رحمهم الله وكل هذه البلاد من حساب مرسية (2) وهي كثيرة الحجارة والكدى وليست منفسحة جدا كبلاد مانشا ونباتها غالبا الحلفا والعوسج فبتنا بالبلدة المذكورة ومن الغد شيعنا أهلها وسافرنا الى بلدة آشب (3) فلما سرنا خمس ساعات وصلنا لبنضة ذى لكمرادس (4) حد بلاد مرسية من هذه الناحية ودخلنا في طرف بلاد بلنسية وتمادينا على المسير الى أن وصلنا بلد آشب المذكورة على ثمان ساعات من البلدة التي بتنا بها وهذه البلاد التي مررنا بها اليوم المذكور ذات جبان كثيرة وكلها مغروسة بأجنة العنب عن اليمين والشمال مد البصر بصفوف معتدلة في غاية الاستقامة والاستواء وفيها ماقل من شجر الزيتون فلما أشرفنا على البلدة المذكورة تلقانا أهلها وأعيانها وفرحوا فرحا كثيرا وتوجهوا معنا الى الدار التي أعدوها لنزولنا فبتنا عندهم ومن الغد سافرنا مسيرة ساعتين في جبال صعبة وعرة فتحت الطريق

---

1 – بالاسبانية Yecla وهى مدينة صغيرة وكانت تسمى عند العرب يكة وينسب اليها ادباء وشعراء معروفون .

2 – مدينة مرسية من أهم العواصم العلمية والاقتصادية ايام حكم المسلمين بالاندلس اسسها عبد الرحمن الثانى الاموى وهي على نهر شقورة وتعتبر كذلك اليوم من المدن المهمة عند الاسبان وهى عاصمة ناحية زراعية غنية وتبعد عن مدينة القنت 84 كيلو ميترا

3 – بالاسبانية Aspe على بعد 12 كيلو ميترا من مدينة الش .

4 – اسم قرية لم تبق معروفة اليوم و «لبنضة» اى La Venta معناها عزبة وتطلق على «نزالة» وهذه الطريق التى سار فيها ابن عثمان من مدينة البسيط الى الش المذكورة بعده ليست الطريق الكبيرة التى تربط اليوم بين هاتين المدينتين

فيها بالمعاول فصارت تمر بها الاكداش والكراريط فوصلنا مدينة الش (1) على ساعتين فتلقانا أهلها ملقى حسنا وخرجوا رجالا ونساء لملاقاتنا بعد أن تقدمهم جماعة من أعيانهم فسلموا ورحبوا بنا ترحيبا كثيرا وقالوا نحن نائبون في السلام على أهل البلد كلهم وقد خرجنا للقاكم بأمر الطاغية فقابلناهم بما يناسب وصحبونا الى الدار التي أعدوها لنزولنا ولم يتركوا صاحب لهو ولا طرب الا وأحضروه بباب الدار المذكورة وكان في ذلك اليوم عندهم مهرجان عظيم فدخلنا الدار المذكورة وورد علينا قائد البلد وأعيانها ثم ورد قائد العسكر بطائفة من عسكره أوقفهم بباب الدار وجاء حاكم البلد وسلم ورحب وقال ان عظيمه أمره أن يكون عند أمرنا مادمنا ببلده.

وفي عشية اليوم بعث الينا النساء الراهبات ويسمونهن الموخات (2) وهن بدار أغلقوها عليهن لا يدخلن ولا يخرجن ولا يدخل عليهن أحد وان مرضت احداهن ياتي الطبيب الى الدار فتخرج له القيمة وعجائز معها ويحففن به يمينا وشمالا وخلف وأمام ويدخل معه الفرائلي حتى ينظر المريضة ويصف لهم العلاج ويخرج ومن ماتت منهن تدفن بالدار في مدفن معين لذلك ، ولهن بجدار الدار طاق كبير أوقفوا فيه خشبة لها طبقات مغلقة وهي تدور بوسطه فحيث يردن أن يخرجن شيئا من عندهن الى خارج يجعلنه في الخشبة ويدورنها فتخرجه فياخذه من هو موكل بذلك واذا أراد أن يدفع لهن شيئا فكذلك وحقيقة هؤلاء الموخات هي أن المراة أو الصبية التي تريد الترهب والانقطاع عن الناس والزهد كما يزعمن ذلك تدخل الدار المعينة لذلك ويسمونها الكنبنط (3) وتمكث هنالك سنة

---

1 — بالاسبانية Elche وهي الش بالعربية وكان لها ذكر ايام المسلمين وبينها وبين مرسية 58 كيلو ميترا . وقد حافظت على المظهر العربى وهى المدينة الوحيدة فى اوربا التى بها نخيل مما زاد فى طابعها الشرقى .

2 — فى الحقيقة يقال مونخة للراهبة Monja .

3 — اى الدير وهو El convento .

وتستشار هل لها غرض في الخروج أو شيء من أمور الدنيا فان أرادت الخروج فلا يمنعها أحد من ذلك وان اختارت المقام هنالك وآثرت الترهب وسلمت في الدنيا ولم يبق لها أرب في زوج ولا في غيره فتشهد على نفسها أنها زهدت في الدنيا ولم يبق لها أرب في زينة ولا في شيء من متاع الدنيا وأنها اختارت الدخول في هذا الاتفاق الفاسد الذي هو عن طريق الهدى منكب حائد فلم يبق لها حينئذ خروج ولا مطمع لها في ذلك ، فلما توجهت اليهن وجدت القيمة قد فتحت الباب وأخرجت جميع من فيها من النساء والصبيات وسلمن علينا وأظهرن فرحا كثيرا وطلبن منا ان نجلس معهن شيئا ما فساعفتهن جبرا لخواطرهن وأخذت القيمة تصف لنا حالهن وما هن فيه من الزهد في الدنيا ثم أخذت تشتكي من أهل البلد من أنهم لايواسونهن بشيء من الصدقات وأنهن محتاجات ومفتقرات فسوت شبكتها ونصبت أحبولتها وكان معنا جمع غفير من أعيان الروم فواسيتهن بما تيسر ، مرغما بالله أنوف من كفر ، وسألتني عن سيدنا ومولانا أمير المومنين وأنه منذ قطع عن بلادهم القوت غلت الاسعار وقطب وجهه الجار فهل تكون منه أيده الله عودة الى اغاثتهم فقلت ان شاء الله بتمزيق أفئدتهم . ثم نهضن جميعا لتشييعنا وانصرفنا عنهن .

ومن الليل ورد علينا حاكم البلد وأعيانها ونساؤهم وأصحبوا معهم الموسيقى وبقوا ساعة يرقصن نساء ورجالا كما هي عوائدهم اذا بالغوا في الاكرام وقد ناولوا طعامهم وشرابهم جميع أهل البلد ويقولون مافعلنا الا ما أمرنا به الطاغية وكل هذا قليل في جانب سيدنا ومولانا أمير المومنين. وهذه المدينة قريبة من البحر الشامي (1) بنحو ساعتين كثيرة الاجنات والبساتين والنخيل وأكثر غرسها الزيتون فقد ذكر لي حاكمها أنه بلغ مستفاد غلة زيتونها تلك السنة ثمانين واربعمائة الف ريال كبير (2)

---

1 – هو البحر الذى يسمى اليوم البحر الابيض المتوسط وكان الرومان ايام عزهم يسمونه «بحرنا» Marenostrum

2 – اى ما يعادل من سكتنا اليوم نحو مليار من الفرنكات .

وعدد معاصيرها مائة واحدى وعشرون معصرة ثلاثة قضبان (1) في كل معصرة غالبا وليست كلها في البلد بل جلها في البساتين وقد تعرف لنا بها أناس من أولاد اللب .

ومن الغد سافرنا منها فوصلنا بلدة يقال لها أوريولة (2) ويسميها النصارى أوورويلة على خمس ساعات وهي طرف عمالة بلنسية ورجعنا الى ارض مرسية لاننا لم نسلك في بلاد بلنسية الا في هذا المقدار القليل والا فهى ارض كبيرة وعمالة متسعة مثل مرسية واوريولة بفتح الهمزة وسكون الواو وكسر الراء وضم الياء هكذا ضبطها في نفح الطيب وقد خرج أهل البلدة المذكورة لملاقاتنا خارج بلدتهم وأنزلونا بدار عينوها للقيلولة وفي هذه القرية من الكتان والقنب ما ليس في غيرها فقد رأيت منه بظاهرها أمثال الجبال وبها زرع كثير وأهلها أهل فلاحة وهي مؤسسة على وادى شقورة (3) المار بمرسية يشقها نصفين وعليه من الارحية شيء كثير وأخرجوا منه سواقي متعددة تسقي بلادا كثيرة فجميع حرثهم على السقي .

ولما صلينا الظهر توجهنا من البلدة المذكورة الى بلدة مرسية (4) فوصلناها على أربع ساعات من البلدة المذكورة وهي مدينة متوسطة الى الكبر أميل مؤسسة على وادي شقورة المتقدم يمر بجدراتها خارجها في بسيط

---

1 – القضيب في اصطلاح اهل فاس والنواحى الشمالية التى تنتج الزيتون ولها معاصر الزيت هو جزء من ساق شجرة كبيرة يعصر عليه الزيتون بآلة العصر والمعصرات تتوفر عادة على قضيب واحد واذا كانت مهمة زاد عدد قضبانها وينطق الضاد فى هذه الكلمة طاء (انظر *Louis Brunot Textes arabes de Rabat*, II, 659)

2 – بالاسبانية Orihuela كان لها ذكر ايام المسلمين وانجبت علماء وادباء وهي على بعد 25 كيلو ميترا من مدينة مرسية بينها وبين مدينة الشن

3 – بالاسبانية Segura وهو نهر يسقى بسائط مرسية وبفضله كانت هذه الناحية من أغنى الاراضى الزراعية باسبانيا

4 – انظر التعليق 2 ص . 156 .

فسيح من الارض قد كساه الله تعالى من حلل الاغصان سناء ، فيتخيله المشرف عليه بحرا أو سماء ، قد أحاط بجميع جهاته الجبل ، فهو لها كالليل اذا أقبل ، وأكثر مافي بساتين هذه المدينة شجر التوت المعد لعلف الحرير الذي اختصها الله تعالى به عن سائر البلاد وان كانت غرناطة بلاد الحرير فمن هذه المدينة يجلب اليها لكثرته وكل ذلك على السقي من الوادي المذكور فقد أخرجوا منه ساقيتين كبيرتين احداهما مرت بسفح أحد الجبال والاخرى بمقابله واستمر السقي على جميع ما اكتنفاه من السهل المشتمل على المدينة وبساتينها ، وهي دار اسلام وما بقي من آثار المسلمين رحمهم الله بها الا القليل من الجدرات وبظاهرها قلعتان للمسلمين احداهما على قنة الجبل والاخرى مقابلة لها على ربوة أسفل منها فذكر لي بعض النصارى أن ذلك من عمل المسلمين حيث كان يحاصر بعضهم بعضا على عهد ملوك الطوائف ولاهل هذه المدينة بشاشة وطلاقة فقد احتفلوا لملاقاتنا غاية الاحتفال وأجلوا مقدارنا مراعاة لسيدنا ومولانا أمير المومنين غاية الاجلال أعز الله ببقائه الدين ونصره على القوم الكافرين ، وجعله قذى في آماقهم ، وشجى في حلوقهم ، فقد هيئوا دارا لنزولنا وورد حاكم البلد وأعيانها للسلام علينا وقالوا ان عظيمهم أمرهم أن يكرموا مثوانا ، ويحسنوا ملقانا وتقدم صاحب المال الذي بيده الدخل والخرج وقال ان الطاغية أمره أن يكون عند أمرنا في تنفيذ جميع مئاربنا فقابلناه بمايناسب وأظهرت من فضل الله والمنة من التعفف والاعراض عما بأيديهم ما أظهرت وما توفيقي الا بالله عليه توكلت .

وقد أقمنا بهذه المدينة ثلاثة أيام بقصد رؤيتها فأرونا الدار التي يستعمل فيها الحرير بحركة الماء وكذلك دار البارود وهي مقصورة على الطاغية وأطلعونا المنار وهو عمل النصارى دمرهم الله فأشرفنا منها على المدينة وأرجائها المخضرة بالاجنات والبساتين ما يتخيله الناظر لانفساحه واخضراره وبياض المدينة وسطه مستديرة والوادي بازاء المدينة وبوسطه البساتين كأنه سماء والمدينة قمرها والوادي مجرة وقد فعلوا معنا من الاكرام

مدة مقامنا ما لـم يفعله غيرهم واجتمعوا ذات ليلة نساء ورجالا وأصحبوا الآت الموسيقى المسماة عندهم بالكلابى (I) وهى آلة كبيرة يحملهـا نحـو الستـة والثمانية ورقصن الضامات كما هي عوائدهم فتجد الرجل جالسا وامرأته أو بنته ترقص مـع أجنبي ويناجي بعضهم بعضا خفـاء ولا حيـاء وكـلام الناظريـن يذهب جفاء ولا يبالي أحـد بذلك مـع ماهو معلوم فيهم وشنائـع في بلادهـم مـن الفسق والزنى ويعرف ذلك بعضهم في بعض ومـع ذلك فلا يبالون بشيء فقد جبلـوا على عـدم الغـيرة قبحهم الله وطهـر منهم البلاد . وبهـذه المدينة تسعة من الكنبنط الذي فيه الافـرائليات ولما كنـا بالمنار طلعـن على سطـوح دورهن وجعلن يلمعن بأثوابهن يردن بذلك الاشارة الى السلام فرأينـا هن

ثـم سافرنا من هذه المدينة الى مدينة قرطخنة (2) فوصلناها على تسـع ساعـات وهي مدينة متوسطة الى الكبر أميـل مشحونـة بـأهـل الصنائـع والحرف والبضائع وجل تجارها النساء وكثير من نصارى مالطة مؤسسة على البحر الشامي بمرساها العجيب وبنيانها الغريب ، صارت مقصودة للتجر ومأوى عند هيجان البحر ، وذلك ان البحـر دخل بين جبال وتجون (3) وسطها فبنوا

I – بالاسبانية Clave وهى آلة شبيهة بالبيان ويسمى بالافـرنسية Clavecin وهـو الذى عوضه البيان وصوتـه ارق منـه .

2 – Cartagena وهي من اهـم المـراسى الحـربيـة عند الاسبـان على البحـر الابيض المتـوسط اسسهـا الفنيقيـون وفـى ايـام المسلمين كانت مقر امـارة وقـد استرجعها النصارى سنة 1242 ثـم استولى المسلمون عليها مرة ثانيـة الى ان رجعت نهائيـا لحكـم الاسبان وفى الامثال العامية المغربية ان الشخص الـذى لا يعـرف من اين اتى يقال جـاء من قرطخنة بالخاء كما ينطقها اليوم الاسبان والا فهى بالجيـم .

3 – هـذا الفعل تجـون من الالفاظ العربية المولـدة عند المغـاربـة ومعناهـا بالنسبة لمـاء البحـر دخـل فـى الارض من الجـون وهـو فى اصطلاحهم الخليـج وقـد استدرك دوزى هـذه الكلمة فى ذيله (ج ا ص.236) . ولا ارى لهـا اصلا فى الفصيح الا ان يكـونوا اخـذوهـا من قولهم مـاء مجوجن اذا كـان منتنـا ولا يكـون كذلك الا اذا تجمـع .

جانبيه بالبنيان من قعر البحر وبنوا على شاطيء المرسى كثيرا من المخازن لوضع اقامة مراكب البحر وبنوا أهرية عظيمة التي تدخل اليها الصواري العظام من البحر بأن فتحوا لكل هرى بابا الى المرسى فتنزل الصواري من المراكب في الماء ويجرونها بالحبال على وجه الماء حتى تدخل الى الخزين بأقرب عمل ومن شدة اعتنائهم بأمور البحر دمرهم الله أن جعلوا لكل مركب من مراكب الحرب خزينا موضوعا فيه اقامته على حدتها مكتوب على بابه هذا خزين المركب الفلاني الذي رئيسه فلان كما أخبرني بذلك كبير المرسى وبهذه المرسى مرسيان احداهما مختصة بمراكب الطاغية وهي التي من ناحية المدينة والاخرى خارجة عنها لجميع من يرد من المراكب البحرية وقد جعلوا بينهما في موضع برجين مقابلين وفي الليل يطلقون من أحد البرجين سلسلة مربوطة فيه ويجرونها على وجه الماء ويربطونها أمام البرج الآخر وتبقى على وجه الماء حائزة مراكب الطاغية الى المدينة فلا يستطيع أحد الدخول ولا الخروج وكيفية هذه السلسلة ثلاثة صواري عظام مربوط بعضها في بعض بالحديد وفي رأس أحدهم سلسلة مربوطة في برج ربطا محكما وفي رأس الاخرى سلسلة يجرونهم بها في الليل الى البرج ويدخلونها في حديدة ويجعلون فيها قفلا فلا تفتح الى الصباح ومن غريب هذا المرسى الصهاريج التي أنشئوا في شاطئيها ببنيان ضخم لكل باب الى البحر في غاية العظم والاحكام اذا أغلق لا يدخل ماء البحر فاذا كان عندهم مركب مفتقر الى اصلاح يفتحون باب الصهريج فيدخل اليه البحر فيدخلون معه المركب فيمتلىء الصهريج ماء فيغلقون الباب وعندهم آلات متعددات لاخراج الماء يسمونها البونبة (I) لها سلاسل يديرونها الخدمة والاسارى وأهل الجرائم بجهد عظيم ومشقة كبيرة ويجعلون لها منافذ الى البحر فينزحون جميع ما بالصهريج من الماء حتى لايتركون به شيئا ويبقى المركب على

I – لفظة اسبانية Pompa تطلق على الالة التى يرفع بها الماء من البئر وهى مستعملة فى العامية المغربية

الارض على هيئته وقت انشائه وينزل اليه المعلمون ويصلحون ما فسد منه فاذا أرادوا اخراجه فتحوا الباب فيدخل البحر الى الصهريج فيمتلىء ماء ويحمل المركب ويخرجونه الى البحر بأقرب عمل وقد رأيت صهريجين في كل مركب من سبعين مدفعا وفي جوانب هذه المرسى منجرة كبيرة لانشاء المراكب فيها من الخدمة زهاء الالفين من غير أهل الجرائم وقد جمعت هذه المرسى جميع أهل الحرف المتوقف عليهم أمر المراكب من النجارين والحدادين ونساجي القلوع وصانعي الاحبال وغير ذلك وكل ذلك حوالي المرسى .

وقد تلقانا أهل هذه المدينة بظاهرها وأظهروا من الفرح ما أظهروا وتوجهوا معنا الى الدار التي عينوا لنزولنا فورد قائد العسكر بعدد كثير من العسكر أوقفهم بباب الدار وقد أكرمونا تلك الليلة اكراما كبيرا ثم كلمت حاكم البلد وقلت له أردت أن نتوجه غدا الى رؤية أسارى المسلمين ولاوصل اليهم صلة سيدنا ومولانا أمير المومنين فجعلنا الصبح لذلك موعدا ، ومن الغد توجهت الى ناحية المرسى لان الاسارى هنالك فوجدنا الحاكم قد تأهب لذلك وأحضر عسكره أذله الله بموضع متسع وأسارى المسلمين بموضع آخر مقابل لذلك فلما أشرفنا عليهم أعلنوا جميعا برفع أصواتهم بذكر مولانا أمير المومنين والدعاء له بالنصر والتمكين وعظم ضجيجهم واستغاثتهم بجناب سيدنا ومولانا أمير المومنين حتى اقشعرت الجلود فبعث اليهم الحاكم فأخرجهم في حالة تلين الصخور ، وتمزق فؤاد الكفور ، وتترك الاماقي بمدامعها تفور والقلوب في الصدور تمور ، فأخذتني الحيرة وغلبتني العبرة وجعلت أسليهم بأن سيدنا ومولانا أمير المومنين غير تاركهم وأننا تكلمنا بأمره الشريف مع الطاغية في شأن فدائكم بالمعاوضة بالاسارى الصبنيول الذين بالجزائر فأسند الامر الى سيدنا ومولانا أمير المومنين وقد كتب سيدنا أيده الله الى عامل الجزائر في شأن الفداء وعن قريب ان شاء الله ياتيكم من الله فرجه ، ويتقدم اليكم من الفتح أرجه ، ثم واصلناهم بصلة سيدنا أمير المومنين التي واصلهم بها تقبلها الله تعالى بفضل

امتنانــه ، وجعــل جــزاءهــا دار رضــوانــه وتقــدم الحاكــم فميــز مــن الاسارى ثلاثــين رجــلا وقال هــؤلاء الذين سرحهــم الطاغية هــديــة لمولانــا أمــير المومنين حين قــدمت عليه وأزال لهــم الحديــد وملكــوا أمــر أنفسهــم مــن بركــة سيدنا أيده الله . ولمــا رأيت حالة الاسارى وماهم فيه مــن الضيق والمحنــة والمشقــة وانقطــاع رجائهم من صــاحب الجــزائــر ولــم ينتظروا الا ماياتيهم من فــرج الله على يد سيدنا ايده الله كاتبت الوزير وقلت لــه ان الطاغيــة قــد فعل معنا من البرور والاكــرام ما علمت وانني قــدمت الى قرطجنة ففرقت الصدقــة على الاسارى فاستحرموا جميعا بجــانب سيدنــا نصره الله بمرأى مني ومسمع والتجئوا الى حمــاه الذي من التجأ اليــه يمنع ، فــلا يمكنني أن نهملهم ، ولا ان نترك مقالهم ، أو أبلــغ الجهــد ، ولله الامــر من قبل ومــن بعد . فعــرف الطاغية بكلامنــا فــانــه لا يكبــر عليه شيء في جانب سيدنا وامــامنــا وأنت تزيد عند سيدنا أيده الله حظــوتكــم وترتفــع مكانتكــم . وأقمنا بقرطجنة ننتظر الجواب وبعــد أيــام ورد جــواب الطاغيــة فأمــر حاكــم قرطجنة أن يسرح لنا كــل من أردنا وذكــر أنــه لو لــم يكــن عنده أسارى بالجزائــر فيحتاج الى ما يفدى بــه اخوانــه لسرحهــم أجمعــين فأخرجت بفضل الله تعالى وبركــة سيدنا أيــده الله اثنين وتسعــين أســيرا زيــادة على الثلاثين الاولين تخيرنا منهــم الصبيــان الصغــار الــذيــن يخشى عليهم الكفــر والعياذ بالله والشيوخ العاجزين وذوي الاعــذار ومــن طــال مكثه في الاسر نحــو الثلاثين سنة ، وما قصرت حتى كثــر القول ، وخشيت في المسئلــة العول ، والكــل في صحائف سيدنا ومولانا أمــير المــومنــين تقبــل الله تعالى منه عملــه ، ولا عدمنا فضل ما خــوله واكتــريت لهــم مــركبــا ووجهتهم من قرطجنــة الى سبتة أعــادها الله دار اسلام لان سيدنــا أمرنــا بالنزول فيها وأنا توجهت في البــر على حضرة غــرناطــة بقصد رؤيتهــا ثــم الى مجمع البحــريــن وأجــوز البحــر الى سبتة كمــا سياتــي ان شاء الله . والاسارى المذكورون المسرحون كلهم من أهل الجزائر وايالتها ومــع ذلك لــم يغفل عنهــم سيدنا أيده الله فقد أخــرج منهم زهــاء الالفين في دفعــات ، وقــد

كـان سيدنا أيـده الله قبل هـذا بنحو أربـع عشرة سنة تكلـم مـع الطاغية وحتم عليـه في فـداء الاسارى المذكوريـن بالمعاوضة بأسارى الاصبنيول الذين بالجـزائـر فأسند الطاغية الامـر الى سيدنـا نصره الله فبعث الى عـامـل الجزائـر يحضه على تتميـم هـذه الحسنة فأعلـم الطاغيـة فحمل جميع أسارى المسلمـين في المراكب ووجههـم الى الجـزائـر بقصد مفاداة المسلمـين بالنصارى ففدى عـامل الجزائر الترك وامتنع من فـداء العرب وفدى من بقي عنده من النصارى بالمـال ورد المسلمين الى الاسر ببلاد الكفرة فانظر الى هذا الفعل الشنيـع والامـر الفظيع كـأنه لـم يبلغه قول رب العالمين انمـا الصدقات للفقراء والمساكـين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب وقـال تعالى ليس البر أن تولوا وجوهكـم قبل المشرق ولكـن البر من آمـن بالله واليـوم الآخـر والملائكـة والكتـاب والنبيـين وآتى المـال على حبـه ذوي القـربى واليتامى والمساكين وابـن السبيل والسائلين وفي الرقاب وقال تعالى فـاذا لقيتم الذيـن كفروا فضرب الرقاب حتى اذا ثخنتموهـم فشدوا الوثاق فـامـا منا بعد وامـا فداء حتى تضع الحرب أوزارها . والفداء بمال أو بأسارى مسلمين كما ذكره المفسرون وقد قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مـن اعتق رقبـة أعتق الله بكل عضو منها عضوا من النار وقال صلى الله عليـه وسلـم ارحمـوا من في الارض يرحمكم من في السماء ان الله يرحـم من عباده الرحمـاء وكيف يحل لـه أن يفـرق بين المسلمين وكلهم اخـذوا تحت علمـه فيفتـدي اخوانـه الترك ويترك أولاد العرب على أنـه بيده من أسارى النصارى ما يفتدي بـه أسارى المسلمـين كلهم ويفضل بيـده نصارى كثيرون فـآثـر الدنيا وفدى النصارى بالمـال ورد المسلمين الى الاسر لا يرقبون في مومـن الا ولا ذمـة ولا زال سيدنا نصره الله يتلطف في انقاذهـم شيئا فشيئا كل مـرة يخـرج منهم شرذمة حتى أخرج جميعهم احتسابا لـه تعالى وابتغاء مرضاتـه قال تبارك وتعالى «من كـان يريد العاجلـة عجلنا له فيها ما نشاء لمـن نريـد ثـم جعلنا لـه جهنـم يصليها مذموما مدحورا ومن أراد الاخـرة وسعى لهـا سعيـا وهـو مـومـن فاولائك كان سعيهم مشكورا كلا نمـد هـؤلاء من عطـاء ربك وما كـان عطـاء

ربك محظورا ، انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللاخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا .»

وفي مدة مقامنا بقرطجنة وهي عشرون يوما لم يترك عامل البلد صاحب لهو ولا فرجة الا واحضره الينا وأخرجونا ذات يوم الى ظاهر المدينة فاذا بها عسكرهم على صفوف وتعبئة مخالفة لعمل المسلمين ولهم أطبال فاذا نقر فيها يعلمون ما يراد بذلك من تقديم أو تاخير أو اخراج المدافع أو تعميرها كل ذلك بالنقر في الطبل وأرونا يوما آخر لعب أهل المهارس والمدافع وأو قفوا خشبة بعيدة وجعلوا يضربونها بمحضرنا فصادفها جلهم ومن أغرب ما رأيت هنالك أن رجلا له ابنتان احداهما من أربع عشر سنة والاخرى من سبع سنين وردوا من بلاد لطالية يلعبون على الاحبال وقد رأيت من يلعب ذلك اللعب ولا رأيت مثل ذلك العجب فقد رأيت احدى الصبيتين تمشي على حبل رقيق بنعلها أماما وخلفا وتقعد وتنام على ظهرها فوق الحبل وتقوم وحدها على رجل واحدة وترفع الاخرى وتجعل على وجهها ثوبا خشينا وتمشي على الحبل ولا تنظر ثم تضرب الطبل بيدها والبوق بفيها وتخرج البارود بمكحلة ، وأغرب من هذا كله أن تجمع يديها ورجليها من ورائها وبطنها يوالي الارض وغير ذلك من الغرائب مالا يقبله أحد الا اذا شاهده .

ولما وجهت الاسارى الى سبتة كما تقدم سافرت من قرطجنة الى مجمع البحرين فوصلنا قرية يقال لها الفوينت ذى الم (I) على أربع ساعات فنزلنا بدار حاكمه ففرح بنا وجاءتنا امرأته بما تيسر من القرى وأظهرت من الفرح ما أظهرت هي وزوجها ثم أتت ببناتها ولعبن أمامنا بالآلات التي يرقصن عليها ولفظ الفونتي معناه العين وهي عين ماؤها عذب خفيف منحدر

I - بالاسبانية Fuente Alamo de Murcia اى عين الصفصاف التابعة لمرسية

من قنة جبل فلما صلينا الظهر انصرفنا الى قرية يقال لها طططنه (1) فوصلناها على تسع ساعات من قرطجنة فتلقانا أهلها وأعيانها خارج بلدهم وبتنا عندهم وأكرمونا غاية الاكرام ، ومن الغد سافرنا في أرض منفسحة اكتنفتها الجبال يمينا وشمالا فوصلنا بلدة لورقة على أربع ساعات

بلدة لورقة (2) أعادها الله دار اسلام

وهي بلدة متوسطة الى الكبر أميل ذات أجنات وبساتين كثيرة مؤسسة في سفح جبل فوقه قصبة كبيرة من بنيان المسلمين رحمهم الله وفيها برج عال ظهر لنا على بعد كثير من المدينة ولاهل هذه المدينة بشاشة وطلاقة وحلاوة منطق فقد خرج لملاقاتنا أعيانهم راكبين في أكداشهم خارج بلدهم بنحو ساعة وأظهروا من المحبة والمودة ماهو محقق في بواطنهم وتوجهوا معنا الى الدار التي أعدوا لنزولنا فاذا ببابها بقية أكابرهم وعامة البلد فورد أهل البلد كافة للسلام علينا وورد كبير العسكر وأصحب معه عددا كثيرا منه أوقفهم بباب الدار كل ذلك تنويها بقدر سيدنا ومولانا أمير المومنين واجلالا له ، ثم بعد ذلك ورد الحاكم وجماعة من أهل بلده يطلبون أن نبيت عندهم في بلدهم لان الطاغية أمرهم باكرامنا ولم يستوفوا غرضهم في ذلك فاعتذرنا لهم باشتياقنا الى رؤية سيدنا ومولانا أمير المومنين وأن لا يمكننا تراخ في السير ودافعناهم . وبعد صلاة العصر عزمنا على المسير فوردن علينا جميع نساء البلد الضامات بقصد السلام وأظهرن فرحا كثيرا وطلبن

---

1 – بالاسبانية Totona وهى قرية صغيرة على الطريق الكبيرة التى تربط مرسية بالمرية وهى على بعد عشرين كيلو ميترا من شمال لورقة

2 – بالاسبانية Lorca وهى من المدن التى كان لها ذكر ايام المسلمين وقد فتحوها سنة 780 م . وكانت عاصمة ناحية زراعية خصبة . استرجعها الاسبان سنة 1266 وهى واقعة بين مرسية والمرية تبعد عن الاولى 62 كيلو ميترا وعن الثانية 77 كيلو ميترا

منـا المبيت عندهم فتعللنا لهـم بما ذكـر فلما تحققـن منا أننـا عازمـون على السفـر طلبـن منا أن ياتين بـآلات الموسيقى يستعملنها أمـامنا ويرقصـن كما هي عوائدهم فلم أجـد بدا من اسعافهن ذلك ورقصن نساء ورجالا

وفي عشية اليوم المذكور ودعونا وتوجهنا من عندهـم وخـرج رجـالهـن لتشييعنا بظاهـر بلدهـم وقد أكـرمنا أهل هـذه المـدينـة اكـرامـا كبـيرا حتى انهم الحقونا طعـامهم وحلواءهـم مدشرا يقال له البويرط د لنبرراس (1) فقـد وصلنـاه على ثـلاث سـاعـات مـن البلـد المـذكـور وبـه كان مبيتنـا وهـذا المـدشر هـو الحـد بـين أرض مـرسيـة وأرض غـرنـاطـة . ومـن الغد سافـرنا منـه في شعبة يقـال لها الرملـة ذى لزبلـز (2) متسعـة جـدا يجتمـع فيها وقت الامطـار شيء كثـير وهي بين الجبـال فسرنـا في الشعبـة المذكورة خمس سـاعـات وخرجنا منها الى قـريـة يقـال لهـا بيلس الروبى (3) فتوجهنا اليها في طريـق صعبة بـين جبال وقـد أخـرج أهل هـذه القـريـة خـدمـة كثيريـن لتسويـة الطريـق لتمـر بهـا الاكـداش فنزلنا بالقـريـة المـذكورة وهى قـريـة متوسطـة بين جبال فـوق احـدهـا قصبة كبـيرة من بنيـان المسلمـين رحمهم الله لا زالت أسوارهـا وشرفـاتهـا قائمـة الى الآن مـؤسسـة في حجـر صلد غـايـة في التحصن . ولهـذه القـريـة مياه كثـيرة وبساتين وأجنـة فقلنـا بها وبعـد صلاة العصر سافـرنا بقيـة يومنـا في تلك الشعبـة فوصلنا مدشرا يقال له ترول (4) على أربـع سـاعـات من القـريـة المذكورة فبتنا به بالدار المعـدة لنزولنا والمسافريـن المسماة بالبينطة (5) ومـن

---

1 - بالاسبانـة Puerto Lumbreras وهى قرية تبعد 18 كيلو ميترا عن جنوب لورقـة ومنها تمتد الطريق التى تذهب الى غرناطـة .

2 - وقـع له تحريف فى هذا العلم فهـو La rambla de Nogalte . وربما كانت تدعى كذلك في ايـامـه

3 - بالاسبانيـة Vélez - Rubio وهى مدينـة صغـيرة على الطريـق الذاهبة الى بسطة فوادى آش فغرناطـة

4 - بالاسبانيـة Chirivel .

5 - بالاسبانيـة Venta ومعناهـا نزل فى ارض بعيدة عن العمـارة . وهـو مـا كنـا نسميه فى المغرب قديمـا «نـزالـة»

الغــد سافــرنــا في طريق مستوية فوصلنا قــرية يقــال لها كلية بــاصه (1) على أربــع ساعــات فتلقانا أهلها خارجهــا وأدخلونا قريتهم وأنــزلونا بــدار كبــيرهــم فقلنا بها ثــم انصرفنا عنها الى بلدة يقال لهــا بــاصــة

بلــدة بــاصــة أعــادهــا الله دار اســلام (2)

فوصلناها على ثلاث ساعــات ونصف من قريــة المقيل فتلقانا أهلها نســاء ورجــالا وأظهروا من الفرح مثل مــن تقدمهم من أهل المــدن وهي مــؤسسة في سفــح ربى مستندة اليها وبأعلاها قصبة من بنيــان المسلمين رحمهم الله فقــد ذكــر لي أحــد أعيــان البلد أنــه كان بها لمــا كانت مملكة المسلمــين بغرناطة ثــلاثون الفا من عسكــر المسلمين وكانوا أشد شوكــة على الكفــار وما توصلوا الى تملك غــرناطــة الا بعــد أخــذ هــذه البلدة بعــد قتال عظيــم ولله الامــر مــن قبل ومن بعــد . والمدينــة المذكورة مشرفــة على بسيط من الارض مغروس كله بالاجنة والبساتين على السقي يبلغ سقي الماء فيه ثلاث ساعات وفيه مــن أجنة العنب كثير فقد ذكر لي حاكمها أنه بلغ عشر عنبها تلك السنــة ثلاثــين ألفــا ربــع قنطــار ، وقــد فــرح بنا أهل هــذه القريــة كثيرا وبتنــا عندهــم ومن الغد سافرنا فخــرجوا لتشييعنا الى ظــاهــر بلدهــم وودعونــا وتمادينا على المســير فكان مقيلنــا بالبنطــة المعــدة لنــزول المســافرين ولمــا صلينــا

---

1 — بالاسبانيــة Cullar de Baza وكل هــذه الاماكــن على الطريق المعبــدة اليــوم

2 — اسمها العربى بسطة من اسمهــا الــلاتينى Basti وكــانت مــن اخريات المــدن التى استرجعها الاسبان وذلك سنة 1489 ولا تزال بهــا الى الآن آثــار عربية وهى تبعد عــن مدينــة وادى آش 48 كيلــو ميتــرا

الظهر سرنا بها بقية يومنا الى مدينة يقال لها وايس [كذا] (1) في طريق صعبة وبلاد متشعبة وهذه البلاد كلها من حساب أرض غرناطة وعمالتها

مدينة وايس اعادها الله دار اسلام

فوصلناها على ثمان ساعات من قرية مبيتنا فخرج أهلها كبارا وصغارا لملاقاتنا وأدوا من السلام والترحيب شيئا كثيرا ورجعوا الى مدينتهم فاذا بظاهرها جميع سكانها حتى الصبيان وهيمدينة متوسطة ولاهلها حضرية ورفاهية وبشاشة وهي مؤسسة بين جبال لها بساتين وأجنة كثيرة وهي من بقية مدن المسلمين رحمهم الله لازال طرف من سورها قائما على حاله وقد أنزلونا بدار ذكر لي أنها باقية على حالها من عهد المسلمين وقد بالغ أهل هذه المدينة في اكرامنا وضيافتنا وقالوا هذا كله محبة في جانب سيدنا ومولانا أمير المومنين وقد أمرهم طاغيتهم بذلك واعتذروا عن التقصير فبتنا عندهم ومن الغد سافرنا في جبال وعرة ترجلنا في بعضها شيئا قليلا فمشينا على أرجلنا نحو نصف ساعة لعدم امكان الركوب في الاكداش وبمشقة أجازوها فارغة وكان مقيلنا بالدار المعدة لنزول المسافرين فهيأ لنا صاحب الدار الفراش وكلما نحتاج اليه من الطعام لغدائنا أحضره والعادة عند الانصراف معلومة مكارمة . ولما صلينا العصر سرنا من هنالك الى قرية يقال لها ازنليوس (2) مؤسسة بين جبال

---

1 – فى الاصل هكذا وايس ومقصوده واديس كما ينطقها الاسبان اى وادى آش بالعربية وهي مدينة عتيقة اسسها الرومان حيث سموها Acci ولما فتحها المسلمون جددوا بناءها وصارت من المدن المهمة انجبت كثيرا من الادباء والعلماء وكانت كذلك من المدن التى لم يسترجعها الاسبان الا فى أواخر القرن الخامس عشر .

2 – بالاسبانية Iznalloz وهو حصن كان يدعى عند المسلمين حصن اللوز وحرفه الاسبان . وهو اليوم ليس على الطريق الذاهبة من وادى آش الى غرناطة ـ فقد اختصروها اذ كان فى الذهاب الى حصن اللوز ابتعاد عن ناحية غرناطة

فوق بعضها بقية أثر من بنيان المسلمين رحمهم الله وكذا جميع هذه البلاد لا تجد ربوة ولا نشزا من الارض الا وفيه قصبه أو برج من بناء المسلمين رحمهم الله والظاهر أنهم كانوا يستعملون ذلك لما اشتد كلب العدو الكافر دمره الله وقد خرج كبار أهل هذه القرية لملاقاتنا وأنزلونا بدار كبيرة واعتذروا من التقصير عما لم تبلغه مقدرتهم وطاقتهم فبتنا عندهم ومن الغد سافرنا من هذه القرية وحوزها كله محروث على السقي بالماء الخارج من القرية لانها كثيرة الماء ولاهل هذه القرية اعتناء كثير بالفلاحة فسرنا خمس ساعات وأشرفنا على حضرة حمراء غرناطة

مدينة حمراء غرناطة أعادها الله دار اسلام

وهي مدينة عظيمة قديمة دار مملكة للمسلمين رحمهم الله موضوعة كالشكل المثلث في بسيط فسيح من الارض دحاه الله تعالى أمامها مخضرا بالبساتين والاجنات والفدادين جميع ذلك على السقي قد أحاطت الجبال بانفساحه والمدينة مستندة الى جبل فوق المدينة الحمراء يشق غرناطة المذكورة وادي هدر (I) نصفين عليه خمس قناطر يعبر عليها سكانها وماء هذا الوادى غاية في العذوبة فقد ذكر لي أنه يمر على معدن الذهب وكثيرا ما يجدون الذهب به في المدينة فيباع بأكثر مما يباع به الذهب الاحمر وبخارج المدينة وادي شنيل (2) الشهير الذكر مار بطرف المدينة والتقى بخارجها بوادى هدر المذكور

I – هذا النهر يسمى بالاسبانية Darro ومن العجيب ان ابن عثمان سماه بالاسم الذى كان معروفا به عند العرب على خلاف عادته ولعل الاسبان كانوا لا يزالون يسمونه كذلك وهو يأتى من الشمال الشرقى وينعرج جنوبا أسفل قصبة الحمراء ويصب فى نهر شنيل

2 – بالاسبانية Genil واصل اسمه العربى من Singilis وهو اسمه اللاتينى وهو نهر صغير الا أنه أيام ذوبان الثلوج فى الجبال يمتلىء ماء لمدة قصيرة .

واستمر يعظم بما يضاف اليه من فضول السقي الى أن لحق بالوادي الكبير المار باشبيلية وقد صار نيلا عظيما

ثم اننا لما أشرفنا على هذه المدينة وجدنا خويلة بعثها أهل البلد طليعة لهم ياتونهم بخبرنا فسلموا علينا وانقلبوا الى المدينة يركضون خيلهم للاعلام بوصولنا . وبعد هنيئة خرج أعيان البلد فى أكداشهم فترجلوا عنها وأظهروا من الفرح ما أظهروا وطلبوا منا الركوب في كدشهم فأجابهم النصراني الكبير الذي كان مرافقا لنا من قبل الطاغية أنه لا يمكن ذلك لان هذا الكدش الذي نحن راكبون فيه هو للطاغية فلا يليق أن ينزل منه ويركب في كدشهم ولكن ركبوا وتقدموا أمامنا للبلد فاذا بخارجها جميع سكانها نساء ورجالا وكل من له لعب او فرجة خرج وكان عندهم يوما عظيما ودخلنا المدينة في ازدحام كبير كاد أن يمنعنا من المسير لولا أن تقدمت أمامنا الخيل الى أن وصلنا الدار المعدة لنزولنا فاذا ببابها من الخلائق مالا يعد ولا يحصى واذا بدار كبيرة قد تكلفوا في فرشها وزينتها غاية التكلف وهي عندهم معدة لديوانهم واتفاقهم على عقد الامور وحلها ودخل معنا حاكم البلد وأعيانها الى أن استقر بنا المجلس ثم استأذنونا في الانصراف وانصرفوا وورد قائد العسكر بطائفة من عسكره أوقفها بباب الدار وورد صاحب المال الذي بيده الدخل والخرج فسلم وقال ان الطاغية أمره أن يكون عند أمرنا منفذا لجميع مئاربنا مادمنا ببلده فأظهرنا من التعفف والاعراض عما بيده ما يناسب جلال الاسلام وذلك بتوفيق من الله تعالى والمنة له ومن الغد ورد علينا حاكم البلد وقال ان أعيان البلد أرادوا القدوم عليك نائبين في السلام عن أهل البلد على وجه مخصوص فنحبك أن تاذن لهم فأذنت لهم وبقرب الزوال من ذلك اليوم سمعنا بالمدينة ضجيجا ودويا عظيما ومزامير وطبولا وقصدوا دار نزولنا فقيل هؤلاء أعيان البلد فدخلوا الدار ومعهم خلق كثيرون لايحصون فلما قربوا من المنزل تميز منهم ثلاثة لابسين السواد فدخلوا الينا وحدهم وبقي من عداهم خارج الباب فجلسوا معنا فتكلم أحدهم بكلام معناه أن أهل البلد عينونا للقدوم عليك

نائبين عنهم في أداء مـا يجب لك عليهم وأن عظيمهم أمـرهم بذلك كما أمـرهم ان يكونوا عند أمـرك مادمت في بلدهم تعظيما واجلالا لمنصب سيدنا ومولانا أمير المومنين وكل ذلك نـزر وقليل في حقه . فقابلناهم بما يناسب قولهم وشيعناهـم وانصرفوا على هيئتهم التي وردوا عليها . وهـذه عادة جارية عند أهل الحواضر العظام وقد فعل ذلك أهل قالص لمـا قدمنا عليهم وكـذا أهل اشبيليـة وغيرهم

وفي عشية ذلك اليوم طلعنا الى مدينة حمراء غرناطـة التي أنشأها أمير المسلمين أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن احمد بن محمد بـن خميس ابـن عقيـل الخزرجي الانصـاري سلطـان الانـدلس يلقب بـالغـالب بالله نشأ بأرجونة (1) مـن كنبانية قرطبة أطيب البلاد مدرة وأوفرهـا غلـة فـي ظـل نعمـة وعـلاج فـلاحة وبـين يدي نجـدة وشهـرة فانطوت أفكـاره على تاميـل الامـر والريـاسة وقد حدى رغبتـه تظاهـر لاول أمـره بطاعـة الملوك بالعـدوة وافـريقيـة فخطب لهـم زمنـا يسيرا وتوصل بسبب ذلك الى امداد منهم بمـال واعـانـة ، وقـد افتتح أمـره بالدعـاء للمستنصر العباسي ببغداد حـاذيا حـذو سميـه ابن هـود وكان يعقـد للناس مجلسا يـومـين في كـل أسبوع ترتفـع اليه الظلامات ويشافـه طـلاب الحاجات وهو الذي تملك قرطبة واشبيليـة ثـم خـرجت عـن يـده كما تقدم ، مولده سنة احـدى وتسعـين وخمسمائة (2) بأرجونة عام الارال (3) وتـوفي ليلة الجمعـة تاسع وعشريـن

---

1 — أرجـونة بفتح فسكـون وهي بالاسبانية Arjona وهـى قـريـة صغيرة بين قرطبة وجيـان ولكنهـا ليست على الطريق الكبير

2 — سنـة 591 هجريـة بـدأت يوم 16 دجنبر سنة 1194 م وانتهت يـوم 5 دجنبـر سنة 1195 م

3 — الارال اسـم حصـن يسمـى اليـوم Santa Maria de Alarcos بناحية قلعة ربـاح بالقـرب من وادى يانـة اشتهر فى التاريخ بالموقعة العظيمة التى تحمـل اسم مـوقعـة الارال والتى انتصر فيها الخليفة الموحدى يعقوب المنصور على ملك قشتالة الفونسه الثامن وقد وقعت يوم ثامن شعبان سنة 591 (المـوافـق للثامن عشر يوليه سنة 1195 م)

لجمادى الثانية لسنة احدى وسبعين وستمائة (1) وأول من سكن هذه المدينة وصيرها دار ملك قبل الملك المذكور الحاجب المنصور أبو المثنى زاوى بن مناد الصنهاجى (2) لما تغلب جيش البربر مع اميرهم سليمان بن الحكم على قرطبة واستولى على كثير من كور الاندلس سنة ثلاث واربع مائة (3) وظهر على طوائف الاندلسيين واشتهر أمره وبعد صيته ثم أجاز البحر الى بلاد قومه بافريقية بعد ان ملك بغرناطة سبع سنين واستخلف عليها ابن أخيه حبوس بن ماكسن (4) وكان حازما داهية متوسط النظر الى ان مات سنة تسع وعشرين واربعمائة (5) ثم بعده ابنه الحاجب المظفر باديس (6)

---

1 – الموافق ليوم 21 يناير سنة 1273 م

2 – اصل بنى زيرى هؤلاء من افريقية حيث كانت لهم دولة بقلعة حماد ووقع ان ثار جماعة منهم والتفوا حول زاوى بن زيرى فأشار عليهم بمغادرة المغرب والالتحاق ببنى عامر فى قرطبة أيام الحاجب عبد الملك المظفر . وخدموا دولته مدة الى ان آل الامر بزاوى أن استولى على غرناطة واستقل بحكمها وفتح معاقل وقرى فى ناحيتها ثم بداله ان يرجع الى افريقية وكان ذلك سنة 416 ﻫ (1025 م) وترك الامر لابن اخيه .

3 – ابتدأت سنة 403 الهجرية يوم 23 يوليه سنة 1012 م وانتهت يوم 12 يوليه سنة 1013 م

4 – حبوس بتشديد الباء وتلقب بسيف الدولة واتسعت رقعة مملكته بفتح جيان وقبرة وكان له وزير داهية أديب باللغتين العربية والعبرية هو ابن نغزالة وهو اول يهودى تولى الوزارة للملوك المسلمين بالاندلس ـ وتوفى حبوس فى السنة المذكورة .

5 – ابتدأت سنة 429 الهجرية يوم 14 اكتوبر سنة 1037 م وانتهت يوم 2 اكتوبر سنة 1038 م

6 – باديس كان يلقب بالحاجب المظفر وقد طالت مدته وفى أيامه بلغت سلطة بنى زيرى أقصى مداها وكان بنو زيرى يوالون الحموديين اصحاب مالقة ويخطبون لهم ولكن باديس ابن حبوس تخلى عن هذه التبعية الرمزية بل تقدم الى مالقة وضمها الى مملكته سنة 450 ﻫ (1058)

وتوفى سنة خمس وستين واربعمائة (1) وبعده حفيده عبد الله (2) بن بلقين ابن بادس الى أن خلع سنة ثلاث وثمانين واربعمائة (3) وتصير أمرها الى ملك الامراء من لمتونة (4) لما ملكوا امر المسلمين بالاندلس يوسف بن تاشفين وولده بعده وتناوب أمرها جملة من ملوك لمتونة الى أن انقرض امرهم منها سنة أربعين وخمسمائة (5) وتصير الامر بها الى بني عبد المومن المسمين بالموحدين الى أن انقرض أمرهم واختل ملكهم فقام عليهم بالاندلس الامير المتوكل على الله أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود الجذامي عام ستة وعشرين وستمائة (6) ثم اضطرب الامر ولم ينشب أن قام عليه هذا البيت من بني نصر فأقاموا ملكا كبيرا . وأول ملوكهم هو الامير محمد بن يوسف المتقدم الذكر

---

1 - ابتدأت سنة 465 الهجرية يوم 17 شتنبر سنة 1072 م وانتهت يوم 5 شتنبر سنة 1073 م

2 - كان لعبد الله هذا أخ اسمه تميم كان واليا على مالقة أيام والده. فلما توفي وحل محله بغرناطة عبد الله ثار تميم واستقل بمالقة وظلت أحوالهما فى تدهور وكذلك احوال الجزيرة الاندلسية كلها الى أن انقذها يوسف بن تاشفين وقبض على عبد الله ووجهه سجينا الى أغمات وعلى تميم والزمه المقام بمراكش .

3 - ابتدأت سنة 483 الهجرية يوم 6 مارس سنة 1090 م وانتهت يوم 22 يبراير سنة 1091 م .

4 - يعنى المرابطين ويدعون كذلك بالملثمين وبالدولة الصنهاجية

5 - ابتدأت سنة 540 الهجرية يوم 24 يونيه سنة 1145 م وانتهت يوم 12 يونيه سنة 1146 م .

6 - إبتدأت سنة 626 الهجرية يوم 30 دجنبر سنة 1228 م وانتهت يوم 19 نومنبير سنة 1229 م .

رجع الى ذكر مدينة الحمراء

لما طلعنا اليها من غرناطة صعدنا عقبة ثم دخلنا باب القصبة يقال له باب الرمان (I) ولا زال مسمى بهذا الاسم منذ كان المسلمون رحمهم الله بها حتى انتهينا الى دار المملكة النصرانية فاذا بكبير النصارى الموكل بها واقف ببابها وأوقف معه طائفة من العسكر فلما أقبلنا عليه أظهر من الادب في كلامه وخطابه ما أظهر ثم تقدم ففتح الباب ودخلنا وأرانا جميع ما احتوت عليه من القبب والقصور فاذا هي احدى عجائب الدنيا في غرابة الشكل ولطافة البنيان وفي كل جهة من جهاته بستان أو جنان وبياض قببها وقصورها في أثناء الاخضرار كليل توقد كوكبه أو بحر طفاحيبه مع ما بها من جداول الماء الغريبة الاختراع ، البديعة الانطباع ، وقد عمل الجباص في جميع هذه القبب والقصور فأحسن ماشا ، وأغرب ما أنشا وجل عمله مكتوب بخط عربي حسن ولا زال ذلك الى الآن في غاية الكمال مثل لا غالب الا الله وهي أكثر ما رسم هنالك والحمد لله على نعمة الاسلام وآيات قرآنيات مثل سورة قل اعوذ برب الفلق والاهكم الاه واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم وآية الكرسي وغير ذلك مما لا يسعني كتبه ، وأما أبيات القريض فالقلب بقرائتها مريض ، فقد كتب في باب قبة مربعة ثلاثون شبرا في الربع بوسطها خصة ماء أبيات شعر وهي : (الكامل)

رقمت أناملي صنيع ديباج ... من بعد ما نظمت جواهر تاج

وحكيت كرسي العروس وزنته ... أني ضمنت سعادة الازواج

من جاءني يشكو الظما فموردي ... صرف الزلال العذب دون مزاج

وكأنني قوس الغمام اذا بدا ... والشمس مولانا أبو الحجاج

لا زال محروس المناقب ما غدا ... بيت الاله قبلة الحجاج

I – في الحقيقة يسمى هذا الباب اليوم بالاسبانية Puerta de las Granadas (أي باب الرمانات) ولعله كان يسمى ايام ابن عثمان بالاسم العربى ثم ترجم للاسبانية

وبعد ذلك «عز لمولانا السلطان الملك المجاهد أبي الحجاج عز نصره النصر والتمكين والفتح المبين لمولانا ابي الحجاج أمير المومنين ايد الله امره وأعز نصره ، وما بكم من نعمة فمن الله»

وأبو الحجاج هو يوسف بن اسماعيل بن فرج يكنى أبا الحجاج وهو سابع ملوك بني نصر كانت ولايته الملك بعد أبيه رابع عشر من ذي الحجة سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة (1) وهو ابن خمس عشر سنة . وتوفي شهيدا غرة شوال من سنة خمس وخمسين وسبعمائة (2) في السجدة الاخيرة من صلاة العيد على يد شقي ممروق طعنه بخنجره فأكرمه الله تعالى بالشهادة ثم قبض على المروق ثم أحرق بالنار وقد أرانا القيم على دار المملكة المذكورة قصرا كبيرا سواريه من الرخام الابيض وأدخلنا قبة من قببه وقال في هذه القبة ذبح ملك غرناطة عدة من أولاد السراج وذلك على عهد السلطان حسن آخر ملوك غرناطة فيما يزعم النصارى في تواريخهم وذلك أن بعض أولاد بني زكري الغرناطيين وشى الى الملك بأحد أولاد السراج وذكر عنه أن له كلاما مع زوجة ابن الملك ومخالطة فحنق الملك على أولاد السراج الذين معه بغرناطة فذبح منهم بالقبة المذكورة جماعة أعيان وكان أولاد السراج في ذلك العهد أقوى شوكة في جيش المسلمين وبلادهم أندخر المتقدمة الذكر وقد كانت باقية بأيديهم بعد تغلب الكفرة على قرطبة يحاربون عليها وحين بلغهم خبر من قتل من اخوانهم بغرناطة حملتهم الحمية والانفة والغيظ على ان لحقوا بطاغية الوقت فتنصروا على يديه وقصدوا غرناطة فأغاروا عليها وحضروا بعد ذلك مع الطاغية في حروب غرناطة والطاغية المذكور اسمه فرناند الخامس كاطلك وهو الذي حاصر مدينة غرناطة ونزل عليها بمحاله وعساكره في

---

1 – الموافق للسادس والعشرين من شهر غشت سنة 1333 م

2 – الموافق للتاسع عشر اكتوبر سنة 1354 م .

ثاني عشر جمادى الاخيرة من سنة ست وتسعين وثمانمائة (1) فأهلك الحرث والنسل وضيق عليها غاية التضييق واشتد الحصار ودام القتال نحوا من سبعة أشهر وقطع الجالب وانسدت أبواب المرافق والمراقب وطمع العدو في أخذ غرناطة واشتد الامر على المسلمين فاجتمع أهل العلم والمشورة مع السلطان فاتفق الرأي على ارتكاب أخف الضررين وهو أن يصالحوا الطاغية عن غرناطة بالمدينة الحمراء على شروط سبعة وستين رضيها الفريقان وكتبوا البيعة للطاغية ونزل سلطان غرناطة عن الحمراء وفي ثاني ربيع الاول من سنة سبعة وتسعين وثمانمائة (2) استولى النصارى على الحمراء ودخلوها بعد ان استوثقوا من أهل غرناطة بنحو خمسمائة من الاعيان خوفا من الغدر ولما تم الامر حصن الطاغية الحمراء ثم احتال على السلطان حتى طلب منه الرحيل لبر العدوة وكتب له كتابا أن لا يمنعه أحد من السفر حيثما أراد من بر العدوة فركب البحر ونزل بامليلية واستوطن بفاس وتوفي بها سنة أربعين وتسعمائة (3) ثم ان النصارى نكثوا العهود ونقضوا الشروط الى ان آل الحال لحملهم المسلمين على التنصر سنة أربع وتسعمائة (4) وهذا على سبيل الاختصار ومن اراد الاطناب فعليه بمواضعه .

والسلطان المذكور الذي أخذت على يده غرناطة هو أبو عبد الله محمد الذي انقرضت بدولته مملكة المسلمين بالاندلس ابن السلطان أبي الحسن ابن السلطان سعد ابن الامير علي ابن السلطان يوسف ابن السلطان محمد الغني بالله واسطة عقدهم ومشيد مبانيهم واخذها والامر لله فما

---

1 – الموافق للثاني والعشرين من شهر ابريل سنة 1492

2 – الموافق لثالث يناير سنة 1492 م .

3 – ابتدأت سنة 940 الهجرية يوم 23 يوليه سنة 1533 م وانتهت يوم 12 يوليه سنة 1534

4 – ابتدأت سنة 904 الهجرية يوم 19 غشت سنة 1498 م وانتهت يوم 7 غشت سنة 1499 م

أعظمها مصيبة على المسلمين فانا لله وانا اليه راجعون وقد دفن عدو الله في الجامع الاعظم بغرناطة وبازائه قبر زوجه الملكة زابيل (1) جدد الله عليها العذاب في القبر ويوم الحساب .

وبأعلى الجبل فوق المدينة الحمراء بستان عجيب جامع لكل غريب مشرف على الحمراء وعلى غرناطة ، تنحدر اليه المياه من أعلى الجبل في جداول كأراقم مذعورة تنساب في خمائل للانس منشورة ويوسط البستان خصص ماء ترمي بالمياه في الجو على أشكال مختلفة بين أفنان ملتفة ولا زال بهذا البستان شجر السرو من عهد المسلمين الى الآن رحمهم الله وكذا شبابيك من القصب المسمى عندنا بالماموني (2) لازال على شكله الذي تركه عليه المسلمون رحمهم الله ، ومهما تلاشى حبل أو قصبة تخلف بأخرى وهو على وضعه باق الى الآن وبصدر هذا البستان مقعد بهي جدراته مرقومة بعمل الجباص بأحسن ماشاء ، مكتوب ببابه بعمل الجباص أيضا (الكامل)

قصر بديع الحسن والاحسان ... لاحت عليه جلالة السلطان

فكأن مجلسه العروس تبرجت ... عند الزفاف بمجلسها الفتان

وكفاه من شرف رفيع القدر اذ ... نال اعتناء خليفة الرحمان

---

1 – هي الملكة المعروفة فى التاريخ باسابيلة الكاثوليكية وكانت ملكة قشتالة فلما تزوجت بملك أراغون فردناند تم على يدهما توحيد المملكة الاسبانية خصوصا بعد ان قضى على مملكة بني الاحمر بغرناطة وكانت اسابيلة عدوة لدودا للاسلام وساعدت حركة التفتيش ووسعت دائرتها توفيت سنة 1504 .

2 – المامونى فى الاصل قبة فى وسط بستان تتخذ من قصب أو نحوه متشابك ثم صارت اللفظة تطلق على كل ستار من قصب أو خشب من هذا النوع فى جوانب الممرات فى الحدائق ويظهر ان اصل الكلمة نسبة الى المامون بن ذى النون صاحب طليطلة وقد كان أنشأ قصرا فخما وجعل فى وسط حدائقه بحيرة وجعل وسطها قبة من زجاج وصفها الادباء وذكرها المؤرخون (انظر نفح الطيب طبعة ليدن . ج 1 ص 347 و ج 2 ص 673) .

خير الملوك أبي الوليد المنتقى | من نخبة الا ملاك من قحطان
المقتدي بالطاهرين جدوده | أنصار خير الخلق من عدنان
لحقته منه عناية قد جددت | منه جمال مصانع ومبان

وغير ذلك من الكتابة العربية كثيرا وأبو الوليد هذا هو اسماعيل ابن فرج بن نصر خامس ملوك بني نصر أمير المسلمين بالاندلس ولد يوم الجمعة سابع عشر شوال سنة سبع وسبعين وستمائة (1) وبويع يوم الخميس سابع وعشرين شوال من عام ثلاثة عشر وسبعمائة (2) ، وتوفى يوم الاثنين سادس وعشرين رجب من سنة خمسة وعشرين وسبعمائة ، (3) فسبحان الملك الحق الباقي بعد فناء الخلق

وقد طلعت الى قنة الجبل فواجهنا جبلا بالقرب منا ، فيه كهف ذكر بعض اهل التاريخ أن هذا الكهف هو كهف اصحاب الكهف (4) ، فسألت عن ذلك النصارى فقالوا ان هذا الكهف معروف عندهم كان فيه اناس أموات من اول الزمان ولا يعرفون من هم ، وقد ذكر لي نصراني أنه دخل الى

---

1 – الموافق لثالث مارس سنة 1279 م

2 – الموافق للرابع عشر يبراير سنة 1314 م

3 – الموافق لثامن يوليه سنة 1325 م

4 – أصحاب الكهف وقد حكى قصتهم القرآن الكريم فى الآيات 9 الى 26 من السورة الثامنة عشرة (سورة الكهف) كانوا عددا من الشبان المومنين (سبعة حسب الرواية المسيحية ولكن لا يعرف عددهم الا الله حسب الرواية الاسلامية) أرغموا على الكفر فهربوا الى مغارة وناموا بها سنين عديدة اكثر من ثلاثمائة سنة حسب الرواية المسيحية التى تجعل هذه الاضطهادات الدينية واقعة ايام الامبراطور الرومانى دقيوس (249 – 251 م) وبعثهم منسباتهم أواسط القرن السادس ولكن القرآن الكريم يقول : «قل الله اعلم بما لبثوا» ثم بعثهم الله الى آخر القصة وقد عين المسيحيون فى كثير من بلاد الشرق والغرب والمسلمون بعدهم كهوفا متعددة لمنام هؤلاء الفتية ، من ذلك كهف بمدينة افسوس بتركيا اليوم وبطرسوس كذلك وبالتركستان وبالاردن وباسبانيا . وهو هذا الذى يشير اليه ابن عثمان هنا

الكهف المذكور منذ ثمان عشرة سنة فوجد به عظام أولئك القوم لا زالوا على حالهم فتبركنا بهم ان كانوا هم ، وهذا الجبل الذي فيه الكهف هو في قبلي غرناطة والحمراء مشرف على وادي هدر الداخل لمدينة غرناطة وقد ذكر بعض المفسرين ان المدينة التي بقرب أصحاب أهل الكهف يقال لها طرسوس والله أعلم بحقيقة ذلك .

وقد أنشأ كارلوس كينط أحد طواغي اصبانيا بازاء دار المملكة بالحمراء دارا عظيمة في غاية الضخامة يضاهي بها دار ملوك الاسلام ، لقد حكيت ولكن فاتك الشنب (1) ، وقد هلك عدو الله قبل أن يتممها ولا زالت على حالها وقد بعث الينا جنس من الرهبان منعزلين في دار كبيرة لا يخرجون ولا يدخل اليهم أحد الا من يخدمهم ويتقضى لهم أغراضهم يسمونهم كرطوخس (2) ، يزعمون أنهم زهدوا في الدنيا وانعزلوا عن الخلق وكل من يدخل الى هذه الدار بهذا القصد لا يخرج منها ، فقد سألت أحدهم كم له في تلك الدار ، فقال ما ينيف على ثلاثين سنة وحالهم كحال النساء

---

1 — هذا الشطر الثانى من بيت هو
يابارقا بأعالى الرقمتين بدا   لقد حكيت ولكن فاتك الشنب
وهو لابى طالب بن الخيثم الحلى دفين القاهرة المتوفى سنة 642 هـ (1245 م) من جملة قصيدة أوردها صاحب معاهد التنصيص على شواهد التلخيص (ج 4 ص. 172 — 173)
ويضرب مثلا للشيء تكون له صفات مشابهة لشيء مثله فى الظاهر ،ولكن الشبه لا يتعدى الشكل الخارجي ويكون البعد شاسعا بينهما والشنب هي حلاوة فى الاسنان ويريد أن كارلوس الخامس اراد أن يخلد أثرا يشبه مآثر المسلمين بالحمراء ولكن هيهات والامر على ما ذكر فان الجمال والرقة والجو الفنى البديع الذى يغمر قصر الحمراء وبساتينه كل ذلك لا نصيب لقصر الامبراطور منه

2 — بالاسبانية Cartujas وهو النطق الاسبانى لكلمة Chartreux وهو اسم طريقة مسيحية اسسها القديس برونه سنة 1084 م بأحد اودية جبال الالب يدعى La Grande Chartreuse حيث بنى اول دير لاصحابه وهم يعيشون منعزلين عن العالم انعزالا تاما

المسميات بالموخات التي تقدم ذكرهن وقد أدخلوني الى جميع كنائسهم وأرونا جميع ما بها من الذخائر الموقوفة على الكنيسة الا الجامع الاعظم (1) لما بعثت الى الفرائلي القيم عليه لنقدم عليه أجاب أنه اذا دخلنا ومررنا بالصليب الذي يعبدون نفعل مثل فعلهم ، فقلت له قد دخلنا الى كنائس بلاد اصبانية كلها والاسكوريال الذي هو أعظم كنائسهم وبه جمع كبير من الافرايلية ولم يشافهنا أحد بما ذكرت فما ذاك الا ان معبودك والاهك الذي تعبد أفضل من الهتهم التي يعبدون فأقبل عليه جميع الافرايلية بالتوبيخ والعتاب ، وقالوا له قد فضحتنا فهذا الذي أردت أن يسمع العامة ، وطلبوا مني الدخول بعد فامتنعت ، قبحهم الله وطهر منهم البلاد

وهذه المدينة اختصها الله بالحرير عن سائر البلاد وبها من مرمات نسجه على اختلاف أنواعه مالا يعد ، ولا يفوق هذه المدينة في الحرير الا مدينة مرسية المتقدم ذكرها فمنها يجلب الحرير الى غرناطة لان صنعته بغرناطة أكثر من مرسية

وقد أقمنا بغرناطة ثلاثة أيام وقد فرح بنا أهلها فرحا كبيرا أربى على كل احد ومن جملة ذلك أن أحضروا أهل المدينة خصوصا وعموما في الدار والازقة وناولوا الجميع أنواع الحلاوي والاشربة لكل من حضر وقد بالغوا في الاكرام ومع ذلك يعتذرون ويقولون ان عظيمهم أمرهم وحث عليهم في الفرح بنا وكلما يفعلون يظهر لهم أنهم مقصرون فقابلناهم عن

---

1 — من العجيب ان هذا التعصب لا يزال متمكنا من نفوس رهبان اسبانيا الى الآن حتى اننا لما كنا بقرطبة مع صاحب الجلالة المقدس بالله الملك محمد الخامس رحمه الله سنة 1956 فى زيارة رسمية وكنا داخلين للمسجد الاعظم الذى صيروه كنيسة أشار الراهب (الفرايلى كما يقول ابن عثمان) لصاحب الجلالة بازالة طربوشوه فتنبه فى الحين احد الرسميين الاسبانيين الذين كانوا يرافقوننا فنهر الراهب وصده عنا والحالة ان علامة الاحترام عندنا هى تغطية الرأس لا تعريته .

احسانهم بما يناسب وبهذه المدينة من بقايا الاندلس شيء كثير فمنهم من ينتسب ومنهم من لاينتسب وقد تعرف الينا أحد أصحاب الشرطه ممن له غلظة وتجبر ، وقد رأيت فيه ظلما كثيرا يضرب النصارى ويشتمهم وقد أتانا ذات يوم ، فقال انني من المسلمين وانما جعلت هذه الخطة بيدي سببا للوصول الى اذاية هؤلاء الكفرة وأنا من اولاد صيرون وقد أقمت بغرناطة ثلاثة أيام ثم سافرنا منها في أجنتها وبساتينها مسيرة ساعتين وقلنا بالبنطة المعدة للمسافرين ولما صلينا العصر توجهنا الى بلدة يقال لها لوخة (I) .

مدينة لوخة أعادها الله دار اسلام

وهى مدينة صغيرة مؤسسة بين جبلين يشقها نهر شنيل الآتى من غرناطة وهي ذات بساتين وأجنات وعيون ماء منفجرات فما تجد دارا من دورها الا وفيها عين ماء أو خصة أو سقاية وأكثر من ذلك فوصلناها على تسع ساعات من غرناطة فتلقانا أعيانها في أكداشهم بظاهرها وترجلوا وأظهروا من الادب ما أظهروا ورجعوا معنا الى البلد حتى دخلنا الدار المعدة لنزولنا فوجدنا بها من النصارى مالاعد له نساء ورجالا وصبيانا وقد تكلفوا في هذه الدار واستعدوا فيها استعدادا كثيرا ولما استقر بنا المجلس ورد الاعيان فأعادوا السلام علينا وحاكمهم واقف يعرفنا بهم الى أن وجبت المغرب فانصرفت عنهم لصلاة المغرب ولما فرغنا منها استاذنونا في الدخول علينا وقالوا انهم قد هيئوا شيئا كثيرا من الحلاوات والاشربة على سبيل الاكرام لان عظيمهم أمرهم أن يكرموا مثوانا ويطلبون المجاوزة

I – كان العرب يسمونها لوشة (بالاسبانية Loja) وهي مدينة صغيرة تبعد عن غرناطة 53 كيلو ميترا غربا . واليها ينسب لسان الدين ابن الخطيب اللوشي ولا تزال بها آثار عربية قائمة الى الآن .

عن التقصير عما لم يصلوا اليه فخرجت اليهم فاذا بتلك الدار كل من له بال وشان منهم حتى امتلات الدار نساء ورجالا وناولوا الجميع ماذكر وأدخلوا أصحاب الموسيقى وأخذوا في استعمالها وغنين الفتيات من الضامات بأصوات حسان ، ورقة ألحان ، فقلت لهم قد لحقنا تعب اليوم، وأنتم مخيرون في تتميم عملكم ، أو انصراف الى منازلكم ، فقالوا قد اخترنا الامر الاول ، وعليه المعول ، فتركتهم مختلطين نساء ورجالا ، وابو مرة لا يالوهم خبالا (1) ، فبتنا ليلتنا عندهم ومن الغد سافرنا وخرج معنا أعيانهم لتشييعنا الى ظاهر مدينتهم ورددناهم من هنالك وتمادينا على المسير في أرض وعرة ، ذات جبال وأحجار وكثيرا ما كنا نترجل عن الاكداش حتى نفوت الصعب منها فقلنا بالبنطة المعدة لنزول المسافرين ثم سرنا بقية يومنا الى ان اشرفنا على قرية يقال لها للميدة (2) على ثمان ساعات فتلقانا كبارها على خويلة بظاهرها وسلموا علينا ، ورجعوا معنا الى القرية ثم الى الدار المعدة لنزولنا فبتنا ومن الغد سافرنا في أرض سهلة ذات زيتون كثير فوصلنا قرية يقال لها بيدررة ، (3) على اربع ساعات ، فقلنا بدار عينها أهل القرية لمقيلنا وهى لاحد أعيانهم ففرح بدخولنا الى داره فرحا كثيرا وقال انا من أولاد راغون وأنا محب في المسلمين فقلت له ان اخوانكم عندنا في بلدنا من خيار الناس فهلا قدمت عليهم فقال أقدم ان شاء الله لرؤية البلد بقصد التجارة ، وبقي ملازمنا لنا وأتانا بالفواكه والخضر الموجودة في الوقت ، وما قصر في الاكرام والبرور حتى أنه من

---

1 – أبو مرة كنية ابليس لعنه الله تعالى ومعناه ان ابليس لا يفتر عن الايحاء لهم باكمال الحماقات

2 – بالاسبانية Alameda ورغم وجود أل فى أول هذه الكلمة فأصلها لاتينى من Alamo اى الصفصاف والمحل الذى يكثر به هذا الشجر يسمى الاميدا وهذا الاسم منتشر فى بلاد اسبانيا . وهذه القرية ليست على الطريق الكبيرة ولا القرية التى بعدها

3 – بالاسبانية Pedrera وهى قرية فوق جبيل علوه 460 ميتر

مبالغته في الاكرام ، قال لنا انه عنده خمر معتقة ولها كذا وكذا سنة فأراد أن يتحفنا بشيء منها فقلت له لا نحتاج الى ذلك فهي حرام عندنا فبقي متألما حيث كان عنده ذلك الغاية في الاكرام ومنع منه وبقينا بداره الى أن صلينا الظهر وشيعنا وأثر المحبة ظاهر عليه وتمادينا على المسير بقية يومنا الى قرية يقال لها ارسونة (I) فوصلناها على أربع ساعات من القرية المذكورة فخرج أهلها لملاقاتنا وسلموا ورجعوا وتوجهوا معنا الى قريتهم حتى دخلنا الدار المعدة لنزولنا وجاء حاكم البلد وأعيان قريته وسلموا علينا وقالوا ان عظيمهم أمرهم باكرامنا والفرح بنا وأن يحسنوا ملقانا ويقضوا جميع مئاربنا وطلبوا منا أن نامرهم بما يفعلون فقلنا لهم لانحتاج الى شيء من فضل الله تعالى وبركة سيدنا ومولانا أمير المومنين وفرحكم بقدومنا كاف عن جميع ما ذكرتم وجازيناهم خيرا عن كلامهم وانصرفوا وبين العشاءين امتلات الدار نساء ورجالا وأوقدوا من الشمع مالا عد له وأحضروا من الحلاوي والاشربة شيئا كثيرا وناولوا ذلك جميع من حضر داخل الدار وخارجها وهذا هو عندهم الغاية في الفرح والاكرام ، وهذه القرية قديمة من عهد الرومانيين قبل دخول المسلمين الى الاندلس وسكنها المسلمون لما كانوا هنالك وبها من أثرهم برج باق الى الآنفبتنا عندهم ومن الغد سافرنا فخرجوا لتشييعنا حتى جاوزنا بلدهم ورجعوا

I – كان العرب يسمونها اشونة بضم الهمزة وهى بالاسبانية Osuna واصل الكلمة من الاسم اللاتينى Urso وجل الاسماء العربية المزيد فيها نون فى الاخير مأخوذة من اللفظ اللاتينى فى حالة الجر (أى Ursonis هنا) . والعجب ان ابن عثمان سماها أرسونة بالراء بعد الهمزة والحالة ان الاسمين العربى والاسبانى سقطت منهما هذه الراء التى كانت فى الاسم اللاتينى . ولعل الاسبان كانوا لا يزالون أيام ابن عثمان يسمونها كذلك . وهى فى شرقى اشبيلية تبعد عنها 86 كيلو ميترا على الطريق الكبيرة وكانت بناحيتها أيام العرب عدة حصون . ومن أعمالها لورة

وانصرفنا فوصلنا قرية يقال لها لابوبلة (1) على ثلاث ساعات فقلنا بها الى أن صلينا العصر وانصرفنا الى قرية يقال لها لرل (2) فوصلناها على أربع ساعات من قرية المقيل فبتنا هنالك ومن الغد سافرنا فمررنا بقرية يقال لها لاس مرالس (3) بها قصبة للمسلمين على ثلاث ساعات وبقيت مدينة طريرة (4) عن يميننا بنحو ساعة وقلنا بدار معدة للمسافرين بازاء قنطرة من عمل المسلمين أسست على خليج خارج من الوادى الكبير وهاهنا التقت طريق أوبتنا بطريق توجهنا اول مرة وقد تقدم ذكر هذه القنطرة حين توجهنا الى مادريد ، ولما صلينا العصر انصرفنا في بلاد فسيحة ذات زرع كثير ، بقيت قرية الكبسات (5) التي بتنا بها عند توجهنا الى الطاغية عن يسارنا وتمادينا على المسير فوصلنا قرية يقال لها لابريخة (6) على تسع ساعات من قرية المبيت فبتنا بها وبها أيضا قصبة للمسلمين رحمهم الله ومن الغد توجهت الى مدينة خيرز فوصلناها على اربع ساعات وقد مضى ذكر هذه المدينة اول الكتاب (7) فأقمنا بها يوما

---

1 – بالاسبانية La Puebla de Cazalla بينها وبين اشونة 19 كيلو ميترا

2 – بالعربية الرحل وبالاسبانية El Arahal وهى مدينة صغيرة بينها وبين اشبيلية 44 كيلو ميترا – وقد كتبها ابن عثمان كما سمع الاسبان ينطقونها

3 – في الحقيقة هذا الاسم جمع مذكر لا مؤنت كما ذكر ابن عثمان اذ سماها لاس عوض لوس والاولى اداة التعريف حالة الجمع المؤنث والثانية الجمع المذكر
وهو باللام قبل الراء هكذا لوس مولاريس Los Molares
وهى قرية خارجة عن الطريق الكبيرة وقد فارق ابن عثمان المحجة الكبرى التى تربط بين غرناطة واشبيلية فى مدينة الرحل واخذ ذات اليسار ليلتحق بالطريق الكبيرة التى تربط بين اشبيلية وقادس

4 – انظر التعليق 3 ص. 32 .

5 – انظر التعليق 1 ص. 31

6 – بالاسبانية Lebrija وهى مدينة صغيرة بها آثار فنية معمارية جميلة

7 – انظر التعليق 3 ص. 27 .

للاستراحة ثم توجهنا الى بلدة مدينة (1) فوصلناها على تسع ساعات وهي بلدة صغيرة على ربوة من الارض ذات حجارة وصخور ليس لها الا مسلك واحد افتتح بالمعاول والخدمة وهي من بلدان المسلمين رحمهم الله فتلقانا أهلها على خويلة بظاهرها فسلموا ورحبوا ، وتقدم أمامنا بعضهم يرينا الطريق الى المدينة وأظهروا من الفرح شيئا كثيرا وأكرمونا اكراما كبيرا ومن الغد توجهنا من عندهم بعد أن خرجوا لتشييعنا وقصدنا مدينة طريفة (2) فوصلناها على عشر ساعات في ارض وعرة صعبة ذات حجارة كثيرة وشعاب وأودية فما وصلناها الا بمشقة عظيمة وكثيرا ما ترجلنا مشاة لعدم امكان سير الاكداش فما وصلنا الا بين العشاءين فتلقانا حاكمها ومعه جماعة من البطارقة وأخذوا في جدال وخصام مع كبير النصارى الذين أصحبهم الطاغية معنا حيث أتى بنا ليلا فلم يمكن لهم مع ذلك ملاقاة كما فعله أهل المدن المتقدمة وقد أمرهم الراي بذلك ثم توجهوا معنا الى دار أعدوها قبل لنزولنا ومدينة طريفة هذه مدينة صغيرة على شاطيء البحر في مجمع البحرين يقابلها من بلاد المسلمين وادي المرسى من أرض أنجرة بين طنجة والقصر الصغير وهي مدينة صغيرة قديمة سميت باسم نازلها طريف ابى زرعة البربري الذي بعث موسى بن نصير حيث أمر أمير المومنين الوليد بن عبد الملك أن يختبر البلاد الاندلسية أول الفتح بالسرايا وأن لايغر بالمسلمين أول مرة وذلك حيث دعا يليان

---

1 – بالاسبانية Medina Sidonia وهى مدينة صغيرة بها آثار فنية اسبانية جميلة بينها وبين شريش ثلاثون كيلو ميترا

2 – بالعربية كانت تدعى مدينة طريف نسبة الى طريف بن مالك اول مسلم وطيء أرض الاندلس وقد وجهه القائد طارق بن زياد لاستطلاع الاخبار قبل الشروع فى الفتح فنزل بالفرضة التى صارت مدينة وسميت باسمه كما سمى المحل الذى نزل به طارق مع جيشه جبل طارق ـ واسمها بالاسبانية Tarifa وهى أقصى مدينة فى جنوبى اوربا وبينها وبين أقرب نقطة في الشاطىء المغربى 13 كيلو ميترا

العلج موسى الى الجواز بما هو معلوم في غير هذا وطريف هذا وجهه موسى في مائه فارس وأربعمائة راجل فنزل ساحل البحر في الموضع المعروف اليوم بجزيرة طريف وهي جزيرة صغيرة في وسط البحر قريبة من مدينة طريف تتستر بها المراكب وقت هيجان البحر بالريح الشرقية فأغار منها على ما يليه من البلاد واصحب غنيمة وسبيا ورجع

ويشق هذه المدينة شعبة منحدرة من جبل بنوا جوانبها وجعلوا عليها قناطر يعبر عليها أهل المدينة وأودية الماء المضاف الخارج من الديار يجتمع بها مع قذورات كثيرة وتبقى كذلك الى أن ياتى السيل وقت المطر فيذهب بالجميع الى البحر مثل وادي القصر عندنا . وبهذه المدينة قصبة من بنيان المسلمين لازالت على حالها الى الآن وهي من بناء بنى أمية ملوك الاندلس فقد وجدت فوق باب القصبة حجرا مكتوبا فيه مانصه ، باسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين بأمر عبد الله عبد الرحمن أمير المومنين المجاهد في سبيل رب العالمين ووقع في الكتابة هنا تكسر ومحو فلم يميز التاريخ وقطعا عبد الرحمن هذا من ملوك بني أمية لان ملوك الطوائف بعد بنى أمية ليس فيهم من اسمه عبد الرحمن ، والله اعلم . وقد أرانا حاكم البلد بأعلى القصبة جرسا معلقا ذكر انه هنالك على عهد الرومانيين قبل ماتملك المسلمون البلد وبقي هنالك على عهد المسلمين وحيث أخذها النصارى من أيديهم أبقوا ذلك الناقوس ووكلوا به من ينقره طول الليل حذرا من المسلمين ليوقظ سكانها كما اخبرني بذلك حاكمهم وهذا كله من كثرة ما القى الله تعالى من الرعب في قلوبهم والحمد لله .

ومن الغد ورد علينا رئيس المركب الذي بقصد ركوبنا فسلم علينا وقال انه مقيم هنالك مهيئا للسفر ينتظرنا بأمر عظيمه متاهبا لركوبنا متى ما أردنا فتأهبنا للركوب ثم ان القبطان الكبير الذي بيده والى نظره جميع المراكب البحرية كان بالخزيرات ومعه عدة مراكب كثيرة محاصرا لجبل طارق بعث الينا مركبا آخر أكبر من الاول ، فورد علينا رئيسه

وقال ان القبطان الكبير مسلم عليك وقد بعثني في مركبي ويقول لك ان أمرته أن يقدم بنفسه لتركب في مركبه فهو عند أمرك كما أمره بذلك عظيمه ، فقلنا له في هذا المركب كفاية وجاز القبطان عن فعله خيرا وقد كان في تلك الايام ريح شرقي عاصف لم يمكننا معه ركوب في البحر من عدم امكان السفر به الى سبتة ثم من الله تعالى علينا بريح غربية طيبة فورد علينا الرؤساء وأعلمونا وحملوا أثاثنا في فلائكهم الى المراكب ومن الغد وردوا علينا بكرة فقالوا اننا متأهبون للسفر فسرنا معهم الى المرسى وخرج معنا حاكم البلد وأعيانها فاذا بفلائكهم قد زينوها وكسوها بالحرير وبحريتها كذلك فركبنا فيها وتوجهنا الى المراكب فأخرج حاكم البلد من أبراجها عدة مدافع وقصدنا المراكب فاذا هي معلق عليها علامات كثيرات على اختلاف ألوانها وعلم مولانا المنصور وهو الاحمر من فوق الجميع ، كل ذلك رفعة لجانب سيدنا أمير المومنين أعز الله ببقائه الدين وقد أراني ذلك رئيس المركب يريني اعتناءهم واهتمامهم بسيدنا أيده الله . ولما صعدنا الى المركب أخرج جميع مابه من المدافع على سبيل الفرح والنصارى كلهم على الاحبال والصوارى معلنون بما معناه الله يطيل عمر سيدنا ومولانا ثم أدخلنا الرئيس الى الموضع المسمى بالقامرة وقد بسط فيه فرشا وزينه بأنواع الزينة ، وأخذ في حمل المخاطيف وأطلق القلوع وصرنا قاصدين مدينة سبتة بريح طيبة فوصلنا على ساعة ونصف ، فأرسينا بمرساها ، فبينما نحن كذلك اذ اقبلت من المدينة فلائك مشحونة بالطغاة وصناديد الكفرة وردوا بقصد ملاقاتنا والسلام علينا وليتوجهوا بنا الى المدينة ، فبقينا بالمراكب الى أن زالت الشمس وركبنا في الفلائك المذكورات بعد أن هيئوها على الوصف المتقدم ولما حللنا الفلائك وقصدنا المدينة أخرج رئيس المركب الذي حملنا جميع ماعنده من المدافع بالبارود واتبعه في ذلك المركب الذي رافقنا وكل ما بتلك المرسى من المراكب الحربية علقوا على صواريه وأحباله علامات كثيرات مختلفات الالوان مظهرين بذلك الزينة والفرح معلنين جميعا بذكر سيدنا ومولانا أمير المومنين

وكل مركب مررنا به يخرج ما عنده من المدافع الى أن وصلنا المدينة فنزلنا بشاطيء البحر فأخرجوا من المدينة مدافع كثيرة مثل مافعل أهل البحر ووجدنا بباب المرسى جماعة كبيرة من صناديد الكفرة وخلفهم العسكر وجميع أهل بلدهم فتقدم رؤوس الكفرة وأظهروا من الادب والتواضع والخضوع في القول والفعل ما ليس بمعهود وكل ذلك من مهابة سيدنا ومولانا أمير المومنين أيد الله ببقائه الدين وقالوا ان عظيمهم أمرهم بالخروج الى ملاقاتنا والاعتناء بجميع شؤوننا ثم توجهوا معنا الى الدار المعدة لنزولنا وهي الدار التي كنا نازلين بها أول مرة ، ولما حللنا الدار أتانا قائد العسكر بعدد كثير من عسكره بعلمهم وطبولهم فأوقفهم بباب الدار وطلع علينا وأعلمنا بهم وأنه بأمر عظيمه يكون عند أمرنا بعسكره فقلت له يترك من ذلك عددا قليلا بالباب ويبعث الباقين ففعل ، ثم ان حاكم البلد أتانا بكتاب من عند سيدنا ومولانا أمير المومنين ورد عليه ليمكننا منه اذا وصلنا فاذا فيه أمر مولانا أيده الله بالمقام بسبتة وأن نعلمه بقدومنا وننتظر أمره الشريف فكاتبنا سيدنا ومولانا في الحين وأعلمناه بقدومنا وحلولنا مدينة سبتة أعادها الله دار اسلام ونحن منتظرون أمره الشريف كما بذلك سيدنا ومولانا أمر ، فأقمنا بها ستة وثلاثين يوما وردت فيها علينا عدة رسائل من عند مولانا أمير المومنين على شان أغراض عرضت وفي مدة مقامنا هنالك كانت ترد علينا الفلائك من تطوان وطنجة بأمر مولانا المنصور بالله حاملة الغنم والبقر وجميع ما نتوقف عليه من المؤن فكان في ذلك من اظهار رفعة الاسلام واعزاز الدين مالا خفاء فيه تقبله الله من سيدنا أحسن قبول وبلغه من فضله كل مامول ، ولما كنا هنالك طلبنا حاكم سبتة باحضار الرخامة المكتوب فيها الآيات القرآنية التي كانت على قبر علي بن حمود الادريسي كما تقدم أول الكتاب لانه بلغني ونحن بمادريد أن الحاكم المذكور ضن بالرخامة ولم يبعثها الى طنجة أو تطوان وأخلف وعده في ذلك فطلبتها من الوزير فبعث له أمر الطاغية بأن يمكننا منها فلما طالبته بها ما أمكنه الا احضارها في الحين

فجعلتها في مركب من مراكب مولانا المنصور بالله التي كانت ترد علينا ونحن بسبتة وبعثتها الى تطوان وهي الآن في الجامع الكبير منها في البلاط الاول بعد الصحن عن يمين المستقبل (I) ، وهذا كله في صحائف سيدنا ومولانا امير المومنين اذ الجميع من فيض بركاته وجميل أثر حسناته أبقاه الله تعالى جمالا للاسلام ، ونورا يقتدي به الانام ، ولما كان اليوم الثالث من رمضان ورد علينا الامر الشريف بالقدوم على الحضرة العلية الامامية العلوية ونصحب معي أسارى المسلمين الذين أنقذهم الله تعالى من الاسر وبعث مولانا دامت كرامته البغال الكافية بحملنا وحمل الاسارى وبعث لملاقاتنا خيلا كثيرة ربطوا بظاهر سبتة ينتظرون خروجنا وبعثوا الينا مع ترجمان البلد مخبرين بورودهم بأمر مولانا المنصور بالله كما ذكر فتأهبنا للسفر وأقمنا هنالك بعد ذلك يومين بقصد الاستعداد لاهبة السفر وطلبنا الحاكم بتسريح الاسارى الذين أعطانا الطاغية من سبتة لكوننا طلبناهم منه عند قدومنا عليه فورد بهم الحاكم وأزال لهم الحديد وصاروا بعد ذلك في خلق جديد فحمدوا الله تعالى وحمدنا معهم وأضفناهم الى من عندنا من أسارى المسلمين فأعلنوا جميعا بالدعاء لسيدنا ومولانا أمير المومنين أعز الله ببقائه الدين وفي عشية اليوم السادس من شهر رمضان عزمنا على الخروج فتأهب الكفار لذلك خذلهم الله فبرز عسكرهم من سبتة في عدد ملا الفضاء، كما جرى به القضا في ترتيب غريب وزى عجيب ، وكل طائفة مخالف لباسها لغيرها وأصحبوا معهم الطبول والمزامر على عادتهم في سير عسكرهم انما يمشي على نقر الطبول كما تقدمت الاشارة الى ذلك فلما استكملوا تعبئتهم وأخذوا ورد علينا قائد البلد وكبيرها ومعه أعيانها ووجوه قومه والقاضي والبوسب (2) وهو بمنزلة المفتى ووجدونا قد تأهبنا للخروج فدخلوا الى الدار التي نحن فيها وأظهروا من الادب ما أظهروا وخرجنا معهم وصحبونا مشيعين

I – بعد البحث والتحرى عن هذه الرخامة بمسجد تطوان لم نقف لها على اثر .

2 – يعنى الاسقف وهو الاوبسبه Obispo بالاسبانية

لنا ولـم يبق بالمدينة رجـل ولا امـرأة الا وخـرج ، حتـى امتـلات الازقـة والسطوح والابراج ومـروا بنا على حصونهم التي اتخذوهـا ملجئا ومعاقـل لمـا يترقبونه من المسلمين ومنجى لمـا ألقى الله تعـالى في قلوبهـم من الرعب والفـرق الذى منعهم الكرى ومنحهم الارق فأرونـا جميعهـا حصنـا محصنـا ومعقلا معقلا الى ان خرجنا عـن جميعهـا فاذا بخارجها من الحصون اكثـر ممـا بداخلها جعلها الله تعالى سببا في هلاكها ووبالهـا ، ولمـا تجاوزنا الرشق الذي عندهم من وراء الجميـع وجدنا عسكر النصارى واقفا بظاهـر المدينة بصفوف مستويـة وحسن تعبيـة ، وأخـذوا حينئذ في استعمال طبولهم ومزاميرهـم ومرزنا تجاه صفوفهم ومعنا الحاكم وأعيان قومه الى ان وصلنا خيل المسلمين الذيـن بعثهم سيدنا ومولانا أمـير المومنـين لمـلاقاتنا ومعهم رمـاة المجاهدين الذين هم برسم الجهاد هنالك في مقابلة الكفار دمـرهم الله فتلقانا المسلمون وسلمـوا علينا وانطلق أسرى المسلمين يمشـون في الارض مرحـا ويعـدون طربا ومـرحا وأخرجـوا من أبراج المدينة عـددا كثيرا من المدافـع ثـم التفتنا الى قائـد البلد ووجـوه قومـه وودعنـاهم وقابلناهم بما جبرنا بـه خواطرهم ورجعـوا وتوجهنا مـع المسلمين الى الفساطيط المضروبـة في آشبـار وخيول المسلمين ورماتهم يلعبون بالبارود الى أن وصلنا آشبار وورد علينا الاسـارى وهنيناهم بسلامتهم وخروجهم من أيدي الكفرة فبتنا هنالك ومن الغـد توجهنا الى تطـوان فكـان مبيتنا في الطريـق على شاطيء البحـر ومن الغد توجهنـا الى تطوان ، فلما قربنا من المدينة تلقانا أهل تطوان مع قائد البلد القائد محمد عاشر بعـدد وعـدد زهـاء ثـلاثة آلاف رام وتقدمـوا أمـامنا مـع الاسارى وهم يلعبـون البارود الى أن أشرفنا على المدينة فـاذا بظاهـرها من النساء والرجال العاجـزين والصبيان مالا عـد له وكان عندهم ذلك اليوم يوما عظيمـا ومـوسما جسيما ذكر كبار البلد أنهم لـم يعهـدوا مثـل هـذا الجمع فيما تقـدم ولـم يظنوا أنـه ببلدهم هـذا العدد الذي حمـل السـلاح وتحـزم ، واذا أراد الله سبحانه أمـرا فربمـا الاخـرس تكلم ، ثـم دخلنا المدينة في ازدحـام كثـير وجـم غفير ، الى أن وصلنا الـدار المعينة لنزولنا وأنـزلنا أسارى المسلمـين

بدار كبيرة قريبة منا وأقمنا هنالك ستة أيام حتى تأهبنا للسفر وسافرنا من محروسة تطوان ، ولما وصلنا وادى الخروب تلقانا هنالك عدد كثير من عسكر الثغر المحروس بالله ثغر طنجة من وصفان سيدنا نصره الله وخدامه أهل الريف مع قائد الثغر المذكور القائد محمد بن بلا الشيظمي فسلموا علينا وفرحوا بأسارى المسلمين وأخذت الخيل في لعب البارود الى ان وصلنا محلتهم فنزلنا هنالك وبها كان مبيتنا ومن الغد سافرنا وسافرت المحلة المذكورة معنا فبتنا بوادى المخازن (1) ومن الغد توجهنا الى القصر فتلقانا الخلط (2) وطليق (3) بخيلهم ورجلهم مع قائدهم وصيف سيدنا ايده الله القائد قاسم السريدى فكان مبيتنا بظاهر القصر (4) ، ولما وصلنا سيدى عيسى بن الحسن (5) تلقانا ايضا سفيان (6) وبنو مالك (7) بخيل لاتحصى مع عاملهم القائد الهاشمي بن محمد وتوجه الجميع معنا الى ان وردنا على سيدنا ومولانا امير المومنين وهو مخيم بناحية المجاز بظاهر سلا ، فلما قربنا من محلته السعيدة بنحو ميلين أو ثلاثة ركب مولانا دامت كرامته في عسكر ملا الربى والوهاد أبقاه الله تعالى لمولانا أيده الله حماية للبلاد ، ونكاية لاهل الكفر والعناد فتقدمنا بأسارى المسلمين لمولانا أمير

---

1 – نهر صغير ينزل من جبال بنى عروس ويكب فى نهر لكوس وقد اشتهر فى التاريخ بالموقعة العظيمة التى دارت رحاها بين المغاربة والحملة الصليبية التى قادها ملك البرتغال دون سبستيان (انظر التعليق 2 السابق حول هذه الموقعة ص.91)

2 – و 3 ثم 6 و 7
هذه قبائل عربية نازلة فى ناحية الغرب واصلهم من اعراب بنى هلال وبنى سليم الذين ادخلهم يعقوب المنصور الموحدى الى المغرب وقد كانت لهم سطوة أيام بنى مرين .

4 – أى مدينة القصر الكبير وظاهرها خارجها

5 – سيدى عيسى بن الحسن قرية صارت اليوم مدينة تدعى سوق أربعاء الغرب وكان يقال لها من قبل «سوق أربعاء سيدى عيسى» وهى تبعد عن سلا بنحو 113 كيلو ميترا

المومنين ، بعد أن حملناهم من كتب المسلمين عدة فحصنا عنها وجمعناها لما كنا عند النصارى في تلك المدة وكان من جملة الكتب المصحف الكريم ، الجدير بالتعظيم ، فتلاقينا مع سيدنا ومولانا المنصور بالله وارتفعت اصوات المسلمين جميعا الاسارى وغيرهم بالدعاء لسيدنا ومولانا فنزل عن فرسه وقال ، اللهم تقبلها منا ذخرا ، وسجد لله تعالى شكرا ، ووقف هنيئة مع اسارى المسلمين يسأل عن قبائلهم وعشائرهم وعن مدة أسرهم ، وقال الحمد لله الذى أنقذكم من أيدي الكفرة ، وجمع شملكم بالمومنين البررة ، فاحمدوا الله تعالى على نعمه واشكروه يزدكم من كرمه ، وأنتم في ضيافتنا حتى نوجهكم الى أناسكم ، ومسقط رأسكم ، وكان ذلك اليوم ليلة القدر (I) فأقمنا هنالك الى ان عيدنا عيد الفطر وبعد العيد بيومين ركب مولانا أعزه الله الى الموضع الذي خيمنا به مع الاسارى المذكورين وأوقفناهم أمامه وواصل كل فرد فرد بصلته ، على قدر حاجته وفاقته وضعفه وقوته ، وباشر ذلك بيده بالعد والحساب ، رغبة فيما عند الله من جزيل الثواب ، وكريم المثاب ، وأمرنا أدام الله تاييده ان نرافقهم حتى نوصلهم حضرة فاس ، ونعين لهم البهائم الكافية لركوبهم الى تلمسان ومن هنالك يتفرقون في البلدان ، فتوجهت بهم الى أن أوصلتهم فاس وأقمنا معهم حتى يسرنا لهم جميع شؤونهم ، وودعناهم فرحين بما أسداه الله تعالى اليهم شاكرين نعمه عليهم ، ونسأله سبحانه عز وجل أن يجعل عملنا لوجهه الكريم خالصا ، ويؤيس منا الشيطان فيرجع عنا ناكصا ، وأن يجعلنا بفضله العميم ممن قال فيهم في كتابه الكريم فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم ، ونصلي ونسلم على سيدنا محمد صفوة الله من العباد الهادي الى الرشاد ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما والحمد لله رب العالمين

I – أى 26 رمضان سنة 1194 الموافق 25 شتنبير سنة 1780 م .

الفهـــارس

الفهـرس الاول

الاعـلام الجغـرافيـة (1)

الالف

---

(1) الحروف تشير الى صفحات المقدمـات والارقام الى صفحات الاصل حرف التاء بعد الارقام يشير الى التعاليق وذلك في الفهارس كلها .

البــاء

الجيم

الحاء

الخـاء

الـدال

الـراء

الــزاى

الطــاء

الكــاف

الـلام

الميم

النون

الصاد

الضاد

العين

الغين

الفاء

القاف

الســين

الشين

الهــاء

الــواو

اليـاء

الفهرس الثاني

الاعلام التاريخية

الالف

البـاء

التاء

الجيم

الحاء

الخاء

الـدال

الـراء

الـزاى

الطاء

الكاف

اللام

الميم

النـون

الصـاد

العـين

الغين

القـاف

السين

الشين

الهاء

الــواو

اليــاء

الفهـرس الثـالث

الكلمـات العاميـة والالفـاظ الاصطـلاحيـة

الالف

البـاء

الحـاء

الخـاء

الـدال

الـراء

النــون

الصــاد

العين

الغين

الفاء

القاف

الســين

الشــين

الــواو

الفهرس الرابع

الالفاظ الدخيلة (1)

الالف

الباء

---

(1) منها المستعمل في اللغة العربية المغربية ومنها ما أثبته ابن عثمان في رحلته .

الخـاء

الـدال

الـراء

الطـاء

النـون

الضـاد

الفـاء

القـاف

الفهــرس الخـــامس

المــواضيـــع المطروقـــة فى الـــرحلـــة

الالف

البـاء

التـاء

الحـاء

الخـاء

الـدال

الميم

النـون

الصـاد

العين

الفاء

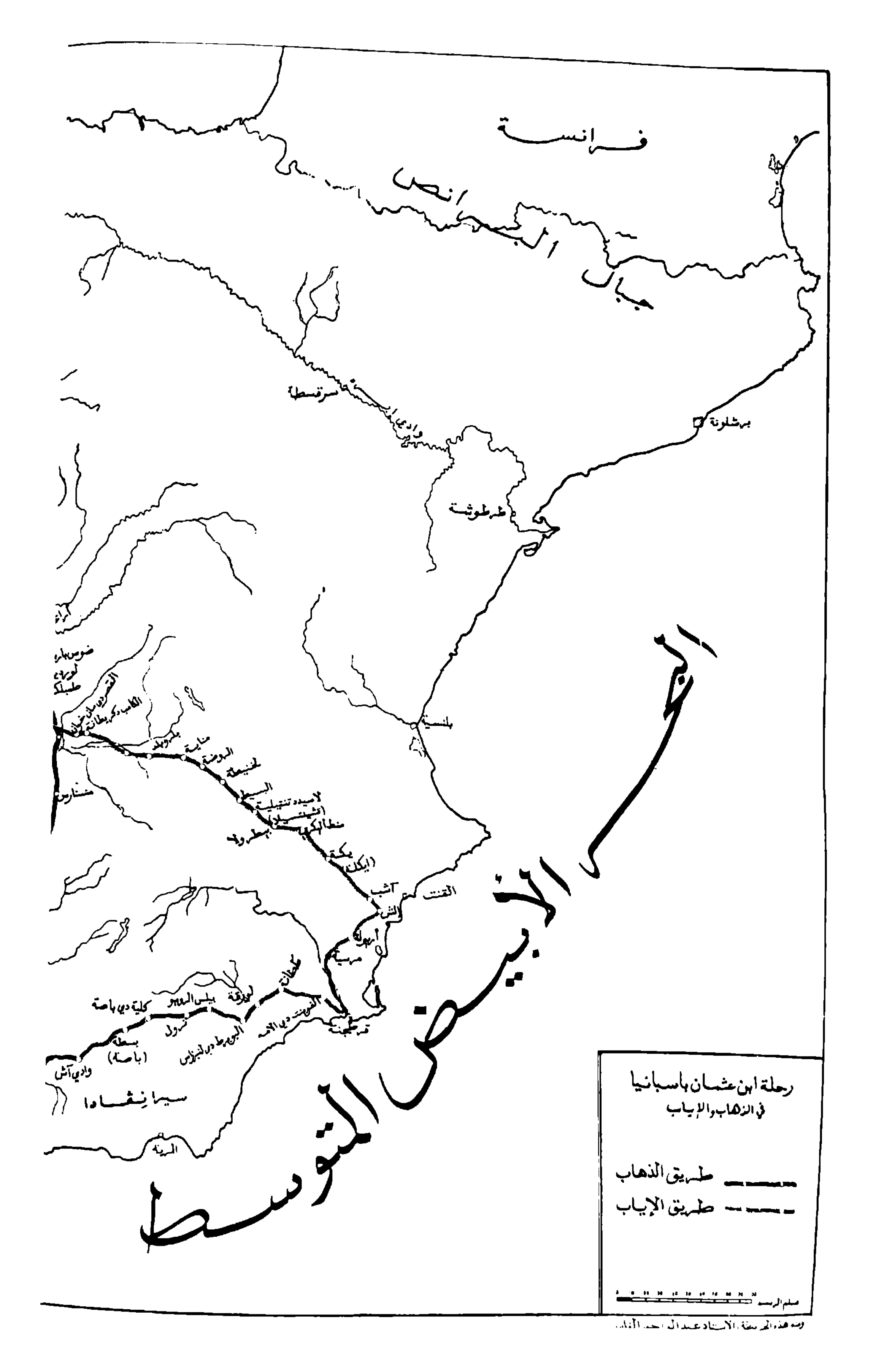
القاف

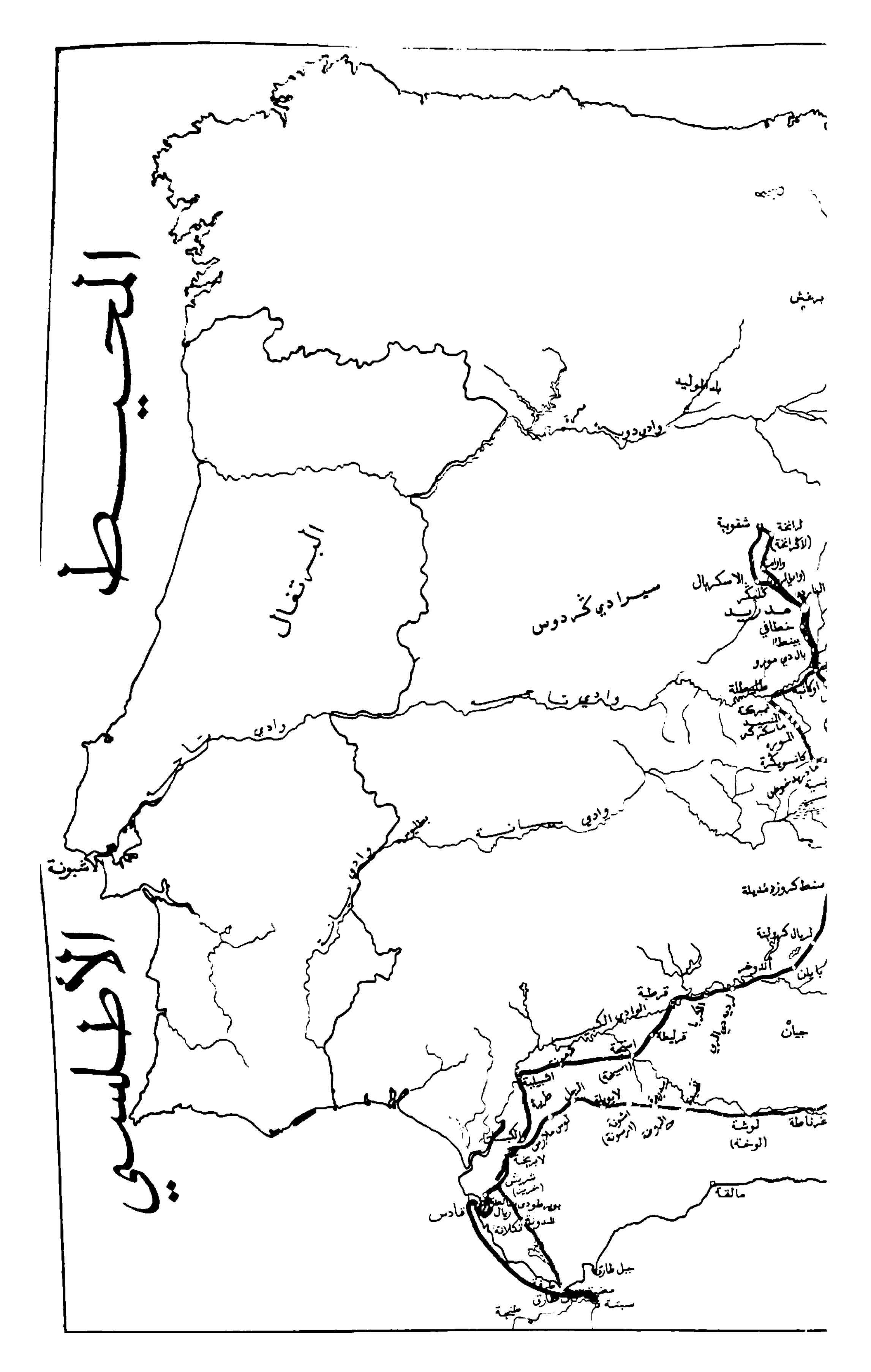
السين

الواو

اليـاء

رقم الايداع القانوني 65-15
مطبعة اكدال - الرباط


فرانسة
جبال البرانص
سرقسطة
برشلونة
طرطوشة
بلنسية
منارس
المنيمة
البسيط
لاميدو تنتيلية
منطالكون
يكة
(ايكلى)
آشب
القنت
الش
أريولة
مرسية
قرطجنة
لورقة
بيلس الروبيو
كلية دي باصة
نرول
بسطة
(باصة)
وادي آش
سيرا نفادا
المرية
البحر الأبيض المتوسط
رحلة ابن عثمان باسبانيا
في الذهاب والإياب
طريق الذهاب
طريق الإياب


المحيط الأطلسي
البرتغال
سيرا دي كردوس
مدريد
شقوبية
الاسكريال
وادي دويرة
وادي تاجه
وادي يانة
بطليوس
الاشبونة
قرطبة
الوادي الكبير
جيان
اشبيلية
غرناطة
لوشة
مالقة
قادس
جبل طارق
سبتة
طنجة